د. كايد قرعوش/ د. خالد القضاة / د. عبد الرزاق أبو البصل
د. محمّد حسن الشلبي / د. محمّد موسى نصر / د. نصر البنا / د. وليد السعد

الأخلاق في الإسلام

دار المناهج للنشر والتوزيع

الأخلاق في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

دار المناهج
للنشر والتوزيع
هاتف ٤٦٥٠٦٢٤
فاكس (٠٠٩٦٢٦)
٤٦٥٠٦٢٤
ص.ب. ٢١٥٣٠٨
عمان ١١١٢٢
الأردن
الموقع
عمان
شارع الملك حسين
بناية الشركة المتحدة
للتأمين

الطبعة الثانية

٢٠٠١م - ١٤٢٢هـ

رقم الاجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر ١٨٤٩ / ١٠ / ١٩٩٩

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنية ١٣٣١ / ١٠ / ١٩٩٩

المحتويات

الباب الثاني

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، خلق فسوى وقدر فهدى، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة العالمين، محمد بن عبد الله الذي زكاه ربه وأعلى قدره وخلقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين وبعد،

فإن الأخلاق في كل أمة مادة بنائها، وأساس تقدمها، ورمز حضارتها وثمرة عقيدتها ومبادئها. وتتفاوت الأخلاق بين الأمم قليلاً أو كثيراً. بيد أنها تتقارب إلى حد ما بحكم ما بينها من قواسم مشتركة. وقد تكون هذه القواسم دينية نلمسها إذا دققنا النظر مثلاً في القضايا الخلقية في الديانات الإلهية الكبرى من يهودية ونصرانية وإسلام فلا تكاد تختلف فيما بينها إلا في الحد الأدنى في هذا النطاق، وقد ترجع هذه القواسم إلى الاعتبارات الإنسانية، فإن للطبيعة الإنسانية أثراً في تكييف بعض الموضوعات الخلقية إيجابا أوسلباً، ولهذا لم يفصل لنا القرآن العظيم الطيبات والخبائث تاركاً للطبع البشري السليم من الآفات تقديرما يكون طيباً أو خبيثاً، قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ﴾[2]

ومن هنا تغدو دراسة الاخلاق بعامة، والاخلاق في الاسلام بخاصة، مسألة على قدر من الأهمية في حق المسلم وغيره، وهي جديرة بأن تثير في نفوس الطامحين للتغيير نحو الأفضل اهتماماً خاصاً. فالتغيير المنشود إنما يبدأ من

---

(١) القلم: ٤.

(٢) الأعراف: ١٥٧.

ساحة الأخلاق، والله تعالى يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم﴾[1].

وهذا الكتاب الذي نضعه بين يدي القارئ الكريم، جاء متسقاً مع الخطة الدراسية لمادة (الاخلاق في الإسلام) التي تعد متطلباً اختيارياً ضمن مواد الخطة الدراسية الجامعية. وقد أمل فيه مؤلفوه أن يوافي المطلوب ويحقق الأهداف المتوخاة من تدريس هذه المادة بما يقدمه من مادة تعليمية تضمنت المبادئ والأحكام، والحقائق والمفاهيم، مدعمة بالأدلة الشرعية، مشفوعة بالمناسب من الآثار والحكم والأمثال والمواقف ذات العلاقة. وقد جاء هذا الكتاب في بابين، جعل أولهما مدخلاً إلى الآخر، فتحدثنا فيه عن مفهوم الأخلاق وأهميتها وأسسها واكتسابها وخصائصها.

أما الباب الثاني فقد خصصناه لمعالجة الموضوعات الخلقية من فضائل ورذائل، في عرض حققنا فيه التكامل بين وجهي الموضوع الخلقي الواحد، فتناولنا الصدق مع الكذب، والإيثار مع الأثرة، والعدل مع الظلم وهكذا. والله نسأل أن يكون عملنا هذا عملاً نافعاً ومتقبلاً، يفيء إليه طلبة العلم فيجدون فيه بغيتهم، ويستعين به العلماء فيتلمسون فيه ضالتهم، ومن الله وحده نستلهم التوفيق والسداد، إنه أكرم مسؤول وأعظم مأمول.

المؤلفون

---

(١) الرعد: ١١.

الباب الأول

مدخل إلى الأخلاق في الإسلام

المبحث الأول

مفهوم الأخلاق في الإسلام(*)

الخُلق لغةً (بسكون اللام وضمها) لفظ يطلق على الطبع والسجية. وهو يشكل صورة الإنسان الباطنية، مثلما يشكل الخَلق(بفتح الخاء وسكون اللام) صورة الإنسان الظاهرة[1].

أما اصطلاحاً:

فيعرّفه ابن مسكويه بأنه «حال للنفس داعية لها إلى افعالها من غير فكر أو روية»[2].

ويعرّفه حجة الإسلام أبو حامد الغزالي بأنه «هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية»[3].

وليس من العسير عند التأمل في التعريفين السابقين أن نحكم لصالح تعريف الغزالي، فهو أكثر شمولاً وأدق من تعريف ابن مسكويه، وفيما يلي تحليل لهذا التعريف:

١- أن الخُلق هيئة في النفس، وليس هيئة للنفس بأجمعها. وهيئات النفس

(*) د. كايد قرعوتي.

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة خلق.

(٢) ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص٣٦.

(٣) الغزالي، إحياء علوم الدين٣/ ٦٨.

منهـا ما يتـعلق بالجـانب العـقـلي والمعرفي، ومنهـا مـا يتصل بـالجانب العـاطفي والانفعالي، ومنها ما يتصل بالجانب الإرادي، فأي هذه الجوانب تعد الأخلاق هيئة أو صفة له؟ لا شك أنه الجانب الإرادي الذي يخضع للمدح والذم، ومن هنا يعرف الخُلق بأنه "قوة راسخة في الإرادة تنزع بها إلى اختيار ما هو خير وصلاح (إن كان الخلق حميداً)، أو اختيار ما هو شر وجور (إن كان الخلق ذميماً)"[1].

وعلى هذا فإن وصف فلان ما بأنه ذكي أو جيد الذاكرة أو كونه صاحب خيال واسع او صاحب ذوق، لا يدخل في الجانب الأخلاقي لبعده عن جانب القصد والإرادة وليس له دخل في الحكم على الشخص بأنه برأو فاجر.

٢- أن الخلق هيئة راسخة، أي مستقرة، ويتفرع عن هذه النقطة مسألتان:

أولاهما: أن هذه الصفة إن لم تكن مستقرة فليست جديرة بأن تسمى خُلقاً، فمن بذل المال مرة لحاجة عارضة لا يقال إنه سخي أو كريم، وهو لا يستحق هذه الصفة حتى يصبح البذل عادة له. وقل مثل ذلك فيمن ملك نفسه من الغضب في موقف لأمر ما يسمى عنه حليماً إن كان يتميز غيظاً أمام الآخرين في المواقف الأخرى، وهكذا.

أما الثانية فإن وصف الخُلق بأنه هيئة راسخة يذكرنا بهيئات أخرى راسخة في النفس، وهي الدوافع، فما الفرق بين الدوافع والأخلاق إذن؟

لا بد لنا في البداية من تعريف الدافع، والدافع تعبير آخر عن الغريزة، وقد عرف (ماكدوجال) الغريزة بأنها "استعداد عصبي نفسي يدفع صاحبه إلى أن ينتبه ويدرك مثيرات من نوع معين، ويشعر بانفعال من نوع خاص عند إدراكها، ويسلك نحوها مسلكاً خاصاً"[2].

---

(١) دراز، دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، ص٨٨.

(٢) د. مختار حمزة، مبادئ علم النفس، ص١٠٧.

ويعرفها الأستاذ جيمس بأنها «ملَكة يقتدر بها على عمل يوصل إلى غاية من غير سابق نظر إلى تلك الغاية ومن غير سابق تدريب على هذا العمل»[1].

وهذه الدوافع منها دوافع فسيولوجية تتعلق بالطعام والشراب والنوم والجنس، ومنها دوافع سيكولوجية كالميل إلى الاجتماع، والميل إلى تأكيد الذات والميل إلى الحنو والميل إلى التملك.

والفرق بين الأخلاق والدوافع أن الأخلاق قابلة للمدح والذم، بينما الدوافع لا تخضع لمدح أو ذم. ولتوضيح ذلك نضرب المثالين التاليين:

إن الميل للطعام والشراب أمر غريزي، او دافع فطري، ووجود مثل هذا الميل لدى الإنسان وبخاصة عند الجوع والعطش مما لا يدخل تحت مدح أو ذم.

ولكن التعبير عن هذا الدافع بتناول الأكل والشرب يدخلنا في ساحة الأخلاق فالإفراط في تناول الطعام أمر مذموم، وهو تعبير عن خلق سيئ هو النهم والطمع، والاعتدال فيه أمر ممدوح ينم عن خلق حميد هو العفة والقناعة.

كذلك فإن الخوف من وقوع مكروه أثر من آثار غريزة حب البقاء، وليس محلاً للمدح والذم، فإذا دفع الخوف صاحبه إلى الهرب والهلع فهنا نتحدث عن خلق سيئ للشخص هو الجبن. أما الإقدام الذي لا يصل إلى درجة التهور فهو تعبير عن خلق حميد هو الشجاعة[2].

ثم إن الدوافع والغرائز جميعها فطرية. أما الأخلاق فمنها الغريزي والمكتسب.

٣- إن هذه الهيئة الراسخة في النفس عنها تصدر الأفعال ويعبر عنها السلوك، وهذا يعنى أن الخلق يختلف عن الفعل والسلوك.

إن الخلق كما ذكرنا صفة ذاتية، أما الفعل والسلوك فهما مظهر يعبر عن

(١) احمد امين ، كتاب الأخلاق، ص٢٨.

(٢) عبد الرحمن حبنكة وآخرون، الثقافة الإسلامي-المستوى الأول، ص١٤٩.

الخلق، وهو لا يكون معبراً عن حقيقة الخلق إلا بتوافر شرطين:

الأول: أن يتكرر الفعل بصورة دورية عند وجود ما يقتضيه، فيكون هذا التكرار مؤشراً على وجود قوة راسخة ونزعة ثابتة في النفس كما ذكرناه في البند الأول من هذه الفقرة.

والثاني: أن يقوم الدليل على أن هذا الفعل صادر بصورة تلقائية عن النفس، وليس استجابة لمؤثرات خارجية كالخوف أو الحياء أو الرجاء...الخ. مما يجعل صدور الفعل حينذاك تكلفاً يتنافى مع سجية صاحبه وخلقه[1].

مما تقدم يمكن القول بأن الفعل يكون خادعاً بعض الوقت إذا لم يكن عادة مستقرة كما قال الشاعر:

صلى وصام لأمر كان يطلبه　　　فلما قضى الأمر لا صلى ولا صاما

ولذا كان من السنة إذا سئل أحدنا عن رأيه في فلان من الناس أن يقول إذا كان ظاهر حاله السلامة والاستقامة: أحسبه كذا ولا أزكي على الله أحداً.[2]

٤- إن صدور الفعل عن هذه الهيئة يكون بسهولة ويسر من غير تكلف وروية، وذلك لأنه -كما قال الغزالي- من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم[3].

إذن فلا بد في الخلق من صدور الفعل عنه بصورة عفوية تلقائية لا تخضع للحساب والمراجعة وتقليب الرأي يسرة ويمنة، فيفيض الفعل عن الخلق كما يفيض النور عن القمر والحرارة عن الشمس، ويتلازم معه ملازمة الإبصار للعين والسمع للأذن.

---

(١) دراز، دراسات إسلامية، ص٨٩.

(٢) صحيح البخاري كتاب الأدب، باب ما يكره من التمادح.

(٣) الغزالي، إحياء علوم الدين ٣/ ٦٨.

فإذا خضع الفعل للتدقيق والتحقيق من صاحبه، وتبين حجم الربح والخسارة فتلك هي النزعة البراجماتية النفعية التي ليست لنا بسبيل.

غير أنه لا بد من الاستدراك على عبارة (من غير تكلف) التي ذكرها الغزالي في صلب التعريف لنقول إن الغزالي نفسه لا ينفي أن للتكلف دوراً في اكتساب الخلق، ولكن ليس بالمعنى المتقدم. وغاية ما يريده الغزالي أن هنالك فرقاً بين الخلق والتخلق وبين الطبع والتطبع، فيكون التكلف في هذه الحالة سبيلاً لاكتساب الخلق، وكما ورد في الحديث: «إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم»[1].

وفي ذلك يورد الغزالي حكاية عن بعضهم أنه كان يعود نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شدة الغضب، فكان يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ويكلف نفسه الصبر ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له[2].

(١) رواه أحمد في مسنده ٣/ ٦٣ والترمذي في سننه ضمن حديث طويل برقم (٢١٩٢) وهو حديث ضعيف، لكن له طريق آخر يتقوى به أخرجه الخطيب البغدادي.

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين ٣/ ٨.

المبحث الثاني
أهمية الأخلاق في الإسلام

تتبدى أهمية الأخلاق في الإسلام بالنظر إليها من اعتبارات مختلفة أهمها:

- علاقتها بباء الشخصية الإنسانية إجمالاً.
- ارتباطها بالبنية التشريعية والعقدية لهذا الدين .
- آثارها في سلوك الفرد والجماعة .

١- أما عن علاقتها ببناء الشخصية الإنسانية فمن المعلوم أن الأخلاق تمثل صورة الإنسان الباطنة، وهذه الصورة هي قوام شخصية الإنسان، فلا يوزن الإنسان بطوله و عرضه، أو لونه أو جماله، وإنما بأخلاقه وأعماله المعبرة عن هذه الأخلاق. قال ﷺ: **«إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**[١].

٢- وأما من حيث ارتباط الأخلاق بالبنية الدينية عقيدة وشريعة فأمر معلوم لكل من له بصر بأمور ديننا. ويدل على ذلك إجمالاً قوله ﷺ: **«بعثت لأتمم حسن الأخلاق»**[٢] **وقوله كذلك: «إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»**[٣]. وسنورد مزيداً من الأدلة على ارتباط الخلق بالعقيدة في أثناء حديثنا عن الأساس العقدي للأخلاق بإذن الله.

أما عن ارتباط الخُلق بالشريعة، فالشريعة منها العبادات والمعاملات، وصلة

---

(١) رواه البخاري في الفرائض باب تعليم الفرائض، ومسلم في البر والصلاة باب تحريم الظن والتجسس.

(٢) رواه مالك في الموطأ، في حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق.

الخلق بالعبادة مما لا يحتاج إلى تقرير، يعبر عن ذلك إجمالاً قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾(١) فأي صلاة هذه التي تلتوي معها الأمور الى الحد الذي يقدم ما لله للناس رياء ونفاقاً، في الوقت الذي يمنع الناس ما يطلبون من الماعون ؟!

ويقول ﷺ: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال إن المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم يطرح في النار»(٢) فالعبادة إذا عريت من الأخلاق لا تغني عن صاحبها شيئاً.

أما عن علاقة الخلق بالمعاملات فيدل عليه قوله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»(٣).

وجاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قضية، فقال له: اذهب فأتني بمن يعرفك. فذهب الرجل ثم عاد ومعه آخر فسأله عمر: أتعرف الرجل؟ قال: نعم، قال هل أنت جاره الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه؟ قال: لا، قال: فهل عاملته بالدينار والدرهم الذي يستدل به على ورع الرجل؟قال: لا، قال: فهل عاشرته في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا، قال عمر: أظنك رأيته قائماً في المسجد يخفض رأسه بالقرآن تارة ويرفعه تارة أخرى؟ قال: نعم، قال: إذهب فلست تعرفه.

٣- أما عن علاقة الأخلاق ببناء الأفراد والمجتمعات، فعلى المستوى الفردي نجد أن الأخلاق تزرع في نفس الفرد الأمانة والاستقامة والحياء والعفة والتواضع

(١) سورة الماعون (٤).

(٢) رواه المسلم في البر باب تحريم الظلم، رقم ٢٨٥١.

(٣) رواه الترمذي في باب الإيمان برقم ٩٢٦٢ والنسائي باب صفة المؤمن.

والإخلاص وغير ذلك من القيم والفضائل السامية. وقد سبق لنا أن ذكرنا أن هذه القيم ترسم لنا صورة الإنسان الداخلية، وهو ما لا غنى لأحد عنه. يقول الدكتور (الكسيس كاريل): «يتساوى النمو العقلي والنمو الخلقي من حيث ضرورتهما للبشر». ويقول الفيلسوف كانت: «إن النقص الحاصل من إهمال التهذيب أشد وطأة وأضر بالإنسان من نقص التعليم»[1].

إن الأخلاق أساس الفلاح والنجاح، واقرأ قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾[3]. والتزكية تعني تهذيب النفس باطناً وظاهراً.

وليس هذا الفلاح قصراً على الأفراد، بل إنه يعم المجتمعات المسلمة وغير المسلمة. فالأخلاق أساس لبناء المجتمعات الإنسانية، وهذا ما تشهد به الآيات الكريمة من سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾. فالعمل الصالح المبني على الإيمان، المدعم بالتواصي بالحق أمراً بمعروف ونهياً عن منكر، والتواصي بالصبر في مواجهة المغريات والخطوب، من شأنه ان يبني مجتمعاً محصناً لا تنال منه عوامل التردي والسقوط. وليس بلاء الحضارات قديمها وحديثها كامناً في ضعف إمكاناتها المادية أو منجزاتها العلمية، وإنما في قيمها الأخلاقية التي تسودها وتحتكم إليها. وقد قال الشاعر:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويقول مارتن لوثر: «ليست سعادة البلاد بوفرة إيرادها ولا بقوة حصونها

---

(١) مقداد يالجن، التربية الأخلاقية الإسلامية، ص ١٢٦-١٢٧.

(٢) سورة الشمس ٩-١٠.

(٣) سورة الأعلى ١٤-١٥.

ولا بجمال بنائها، وإنما سعادتها بعدد المهذبين من أبنائها، وبعدد الرجال ذوي التربية والأخلاق فيها»[1].

إن أخلاقنا الإسلامية تسهم في بناء مجتمع واحد بعيد عن التمزق كما قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾[2] مجتمع تسوده روح المحبة والتعاطف والتكافل.

قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[3] وقال كذلك: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[4] مجتمع يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾[5] مجتمع يؤمن بالعبودية الحقة لله ويسعى للقيام بواجب الخلافة في الأرض، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[6].

---

(١) مقداد يالجن، التربية الأخلاقية الإسلامية، ص ٨٢١.

(٢) سورة آل عمران ١٠٣.

(٣) رواه البخاري في الأدب، باب رحمة الناس والبهائم.

(٤) رواه البخاري في الإيمان باب علامة الإيمان.

(٥) سورة آل عمران ١١٠.

(٦) سورة الذاريات ٥٦.

المبحث الثالث
أسس الأخلاق في الإسلام

تستند الأخلاق في وجودها ونشأتها على عدة أسس، نجد العقيدة أولها والعمل ثانيها والجزاء ثالثها والدوافع الإنسانية رابعها.

الأساس العقدي(الإيماني)

جعل الإسلام العقيدة أساسا أول تصدر عنه الأخلاق القويمة، ومن هنا فإننا نجد ان التذكير بالعامل الإيماني يسبق الدعوة للقيمة الخلقية المنشودة، وهذا نلمسه في تتبع النصوص القرآنية والأحاديث الشريفة على حد سواء. فمن الآيات القرآنية قوله تعالى:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾[١].
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾[٢].
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ امَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ﴾[٣]
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ امَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[٤].

---

(١) سورة آل عمران ٢٠٠.

(٢) سورة المائدة ١.

(٣) سورة الحجرات ١١.

(٤) سورة الحجرات ١٢.

ومن الأحاديث الشريفة قوله ﷺ :

- **«لا يزني الزاني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»**(١) .

-**«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت»**(٢) .

إن بناء الأخلاق على أساس عقدي يشكل ضمانة لثبات الأخلاق واستقرارها وعدم العبث بها، كما يعتبر في الوقت نفسه ثمرة طبيعية لهذه العقيدة.

وقد عبر الشيخ محمود شلتوت- شيخ الجامع الأزهر سابقاً- عن هذا المعنى أجمل تعبير إذ قال: «إن العقيدة دون خُلق شجرة لا ظل لها ولا ثمرة، وإن الخُلق دون عقيدة ظل لشبح عن مستقر»(٣) .

إن محاولة الفصل بين القيم الخُلقية والعقيدة إن هي إلا محاولة لإجهاضهما ووأدهما معاً، وهذه قضية خطيرة تعاني منها المجتمعات الغربية على وجه الخصوص. ومن الجميل أن نذكر أنه عقد في انجلترا عام ١٩٠٧مؤتمر للتحقيق الدولي في التربية الأدبية، اشترك فيه أكثر من (٧٠٠) من مشاهير العلماء والفلاسفة ورجال الأدب والسياسة،وقد أجمع المؤتمرون على أنه لا يمكن الإحاطة بمواضيع التربية الأخلاقية دون الرجوع إلى الوازع الديني(٤) .

---

(١) رواه البخاري في الحدود باب الزنا وشرب الخمر. ورواه مسلم في الإيمان باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي

(٢) رواه مسلم في الإيمان،باب الحث على إكرام الجار رقم ٤٨

(٣) محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ص.

(٤) مقداد يالجن، التربية الأخلاقية الإسلامية، ص ٢٨١، ٣٨١.

الأساس العلمي

العلم رديف الإيمان وخادمه، وكما يرتبط الخلق بالعقيدة يرتبط العلم بالإيمان كذلك، والمعقول الصحيح لا يتعارض مع المنقول الصريح كما عبر عن ذلك ابن تيمية في كتابه المسمى " موافقة صحيح المعقول لصريح المنقول». وبهذا الاعتبار يشكل العلم أساسا آخر من أسس التربية الأخلاقية، ولا يمكن أن يشكل التقدم العلمي مناخاً يتيح للعابثين فرص التحرر من الالتزام الأخلاقي. وإن تعجب فعجب قول بعضهم إن جئت تراجعهم بشأن مواقفهم من قضايا خلقية كالسكر والحفلات الماجنة: يا أخي إن الناس قد غزوا الفضاء ونحن نستقبل القرن الحادي والعشرين، وأنت تتحدث في مثل هذا الذي تقول. ويقيناً إن غزو الفضاء لم يتم من عقول سكرى، وانما من عقول متفتحة على البحث، وما كان عامل الزمن يوماً مسوغاً لنا للتحرر من الأخلاق.

إن الارتباط بين الخلق والعلم مما تشهد له النصوص الشرعية والآثار والأمثال والحكم والأشعار مما نذكر بعضاً منها هاهنا:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1]. فقد جاء الحديث عن تزكية النفس (أي تهذيبها وتطهيرها بالأخلاق الطيبة) وسطاً بين تلاوة القرآن وبين تعليمهم الكتاب والحكمة، فالعلم يحوط الأخلاق ولا ينفك عنها.

ومن دعائه ﷺ: «اللهم أغننى بالعلم وزيني بالحلم وأكرمني بالتقوى وجملني بالعافية»[2] وكذلك قوله: اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علماً»[3].

(١) سورة الجمعة ٢.

(٢) رواه ابن النجار عن ابن عمر، والحديث حسن (الجامع الصغير للسيوطي).

(٣) رواه الترمذي وابن ماجه عن ابي هريرة، حديث حسن(الجامع الصغير للسيوطي).

وقد سئل الامام الثوري: ما بالنا نرى العلماء يتزاحمون على أبواب السلاطين، ولا نرى السلاطين يتزاحمون على أبواب العلماء؟ فقال: «ليسوا بالعلماء أولئك الرواة». وفرق بين العالم وراوي العلم. وقد شنع الله تعالى على بني اسرائيل بأنهم لم يعملوا بما علموا من كتابهم فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[١].

ويقول الشريف الجرجاني:

ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طمع صيرته لي سلما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

ولهذا لم يكن من العبث تسمية (وزارة التربية والتعليم) بهذا الاسم بعد أن كان اسمها وزارة المعارف، تأكيداً على وصل التربية الخلقية بالتعليم.

ومن اقوال الفلاسفة ما حكاه سقراط إذ قال: «الفضيلة معرفة والرذيلة جهل». وقوله: «الفضيلة رفيقة الحكمة».

ويقول ديكارت: «إن الأخلاق لا يمكن إدراكها إلا بعد الكشف عن جميع أجزاء العلم وإنه ينبغي اعتبار علم الأخلاق كأكاليل لغيره من العلوم»[٢].

ونعرض بعد هذه الشواهد والأقوال أمثلة ناطقة من القيم الخلقية من حيث ارتباطها بالعلوم المختلفة:-

١- يؤكد علم الطب أهمية قيمة العفة وخطورة الزنا والشذوذ الجنسي على الجنس البشري، وما أمراض السيلان والزهري والإيدز إلا ثمرة مرة للعلاقات الجنسية غير المشروعة المنافية للخلق القويم.

---

(١) سورة الجمعة ٥.

(٢) مقداد بالجن، المرجع السابق، ص٢٢٦.

كما يؤيد الطب أهمية التغريب في النكاح تأكيداً لقيم خلقية منها صحة الأبدان في النسل المنشود والتآلف بين الأسر المتباعدة الخ. . .

٢- ويعلمنا علم النفس مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين، مصداقاً لقولهﷺ: «**أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم**»[١].

٣- ويدعونا علم الاقتصاد إلى الاعتدال في الإنفاق، و الادخار، وإلى التعاون والتكافل، وكل ذلك من المقررات الخلقية.

٤- ويدعونا علم مصطلح التاريخ وعلم مصطلح الحديث إلى التحقق من صحة الرواية وإلى الأخذ بمعايير المقارنة والترجيح بين النصوص، دون الحكم على الأشخاص والأحداث جزافاً.

٥- ولو أشرنا إلى علم قيادة السيارات لكررنا العبارة الشائعة القائلة، بأن السواقة فن وذوق وأخلاق.

٦- وليس علم الهندسة من الأخلاق ببعيد، ألا ترى أن الطراز المعماري في البلاد الإسلامية يتناسب مع منظورهم الأخلاقي، ولذا كان مختلفاً عن الطراز الغربي، حتى ليصدق في هذا المقام عبارة ونستون تشرشل: «نحن نهندس أبنيتنا ثم إن أبنيتنا تهندسنا من بعد».

الأساس الجزائي

الجزاء لفظ يرد في اللغة على معنيين متناقضين هما الثواب والعقاب، فهو من ألفاظ الأضداد. وقد ورد لفظ (جزى) في القرآن الكريم بالمعنيين السابقين في آيات كثيرة منها قوله تعالى في معرض الثواب:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

---

(١) قال السخاوي في المقاصد: سنده ضعيف جداً. وفي صحيح البخاري عن علي موقوفاً "حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون ان يكذب الله ورسوله". وانظر العجلوني/ كشف الخفاء (١/ ١٩٦٩).

(٢) سورة الأنعام ٨٤.

- ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيراً﴾[1].

- ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُواْ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[2].

وفي معرض العقاب ورد قوله تعالى:

- ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾[3]، ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[4] ﴿فَأَصْبَحُواْ لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾[5]. والجزاء قد يكون دنيوياً أو أخروياً، وللترغيب والترهيب دورهما البارز في حمل الناس على التمسك بخلق معين أو النفور من آخر. وإليك بعض الشواهد في هذا المقام.

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أُوْلَـئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[7].

---

(١) سورة الإنسان ١٢.

(٢) سورة المؤمنون ١١١.

(٣) سورة سبأ ١٧.

(٤) سورة الانبياء ٢٩.

(٥) سورة الأحقاف ٢٥

(٦)سورة آل عمران ١٣٣-١٣٦.

(٧) سورة الحديد ١١,١

ومن أحاديثه الشريفة قوله ﷺ :

- «من غشنا فليس منا»[١].

- «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[٢]

- «من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه»[٣].

هكذا نجد أن للجزاء دوراً بيناً في إرساء الأخلاق وتنميتها وتهذيبها، فالجزاء قانون الهي وهو مؤيد قوي لالتزام الناس بالأخلاق وإلزامهم عند الضرورة، وهو بالإضافة إلى ذلك باعث لهم إلى التمسك بالقيم الخلقية طمعاً في الجزاء المرصود والجائزة المنتظرة، أو الهروب من عذاب منتظر أو عقاب لوحت به النُّذُر.

ولا ننس أن الجزاء يحقق العدالة في الارض، والا استوى الخبيث والطيب، والصالح والطالح، والمصلح والمفسد. والله تعالى قال: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٤].

ويقول: ﴿لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾[٥].

الأساس النفسي (الدوافع الإنسانية)

بينا سابقاً أن الغرائز يعبر عنها بلفظ (الدوافع) على النطاق الإنساني، إيثاراً لاستعمال مصطلح (الغريزة) في المجال الحيواني. ونضيف أن هناك ارتباطاً بين

---

(١) رواه مسلم في الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «من غشنا فليس منا».

(٢) رواه مسلم في الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم ١٠١٧.

(٣) رواه البخاري في الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم.

(٤) سورة القلم ٣٥- ٣٦.

(٥) سورة المائدة ١٠٠.

الأخلاق والدوافع، فالأخلاق تنشأ عن الدوافع أحياناً وتستمد منها. يقول الماوردي: «الأخلاق غرائز كامنة تظهر بالاختيار وتقهر بالاضطرار وللنفس أخلاق تحدث عنها بالطبع، ولها أفعال تصدر عنها بالإرادة» إلا أن يقول: «فصارت الأخلاق غير منفكة في جبلة الطبع وغريزة الفطرة، من فضائل محمودة ورذائل مذمومة، كما قال الشاعر:

وما هذه الأخلاق إلا طبائع فمنهن محمود ومنها مذموم[1]

وهذه الدوافع منها الدوافع المادية كالأكل والجنس والتملك، ودوافع دينية وأخرى معرفية كحب الاستطلاع.

تتنفس هذه الدوافع فتدفع صاحبها إلى إشباعها بطريقة أو بأخرى، وهنا تتدخل الأخلاق في عملية توجيهية لطريقة إشباع هذه الدوافع:

- ففي الأكل والشرب تتقدم التربية الخلقية في الإسلام بجملة من الآداب الشرعية لتهذيب هذه الدوافع، منها البدء ببسم الله، وتناول الطعام باليمين، والاعتدال في الأكل والشرب، وحمد الله آخر الأمر الخ.. قال تعالى: ﴿وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ﴾[2].

وفي مجال إرواء الدافع الجنسي دعا الإسلام إلى العفة وحفظ الفروج وعدم إتباع النظرة النظرة، ونهى عن الاختلاط الماجن الخ قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[3].

- وبصدد تلبيته لدافع حب التملك حارب الإسلام الشح والحرص على المال ودعا إلى القناعة والاقتصاد والنفقة والسخاء الخ. قال تعالى: ﴿وآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾[4].

---

(١) الماوردي كتاب تسهيل النظر وتعجيل الظفر ٥، ٦.

(٢) سورة الإسراء ٣٢.

(٣) سورة الرمز ١٤.

(٤) سورة الحجرات ١٢.

- أما عن دافع التدين فقد حث الإسلام على التفكير والتدبر وعدم التقليد، ودعا الى الإخلاص وتجنب الرياء والنفاق. قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي﴾[1].

- وفي مجال إشباع حب الاستطلاع دعا الإسلام إلى البحث والتعلم وتحري الحق والحقيقة وعدم التجسس على الآخرين. قال تعالى: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾[2].

إن الإسلام إذ يقر بوجود الدوافع ويسعى إلى إشباعها يحرص في الوقت نفسه على الإعلاء والتسامي اللذين يضعان الإنسان في مركزه اللائق به، وليتميز بذلك عن مرتبة الحيوان الأعجم. وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ . قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[3].

إن دعوة الإسلام إلى التقوى في قوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ فيها دعوة لعدم الإغراق في حب الشهوات آنفة الذكر، والتقوى لا تعني عدم أخذ الإنسان حظه من هذه الشهوات، وكيف ذلك وهي من زينة الحياة الدنيا ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾، إن غاية ما في الأمر أن يجعل الإنسان من تقوى الله كابحاً له وموجهاً دون العثرة والسقوط، وهو بهذا لن يخسر شيئاً، إذ سيعوضه الله سبحانه وتعالى خيراً مما فاته من حظوظه الدنيوية فبدلاً من نساء الدنيا هناك أزواج مطهرة، وبدلاً من حرث الدنيا

(١) سورة الأعراف ٣١.

(٢) سورة الإسراء ٢٦.

(٣) سورة آل عمران ١٤-١٥.

ومزارعها هنالك جنات تجري من تحتها الأنهار، وبدلاً من قضاء شهوة عارضة تنصرم متعتها حتى لا يكاد المرء يحس بمتعتها مع تراخي السنين، هنالك الخلود والنعيم المقيم في اليوم الآخر «خالدين فيها»، وبدلاً من ارضاء النفس وارضاء الآخرين هنالك الفوز برضوان من الله، فأية مكافأة تنتظر الإنسان إن هو تولى تهذيب أخلاقه وهو يعبر عن حاجاته وميوله ودوافعه في حياة توصف ب (الدنيا) واسمها ينبئ عنها؟!

المبحث الرابع

اكتساب الأخلاق وعلاقته بالإرادة

الأخلاق هيئات راسخة في النفس كما قدمنا، ومن هذه الأخلاق ما هو فطري هو أشبه بالغريزة، يدل على ذلك قوله ﷺ: «لأشجّ عبد القيس: «إن فيك خلتين يحبهما الله: الحلم والأناة . فقال : يا رسول الله، أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما ؟ قال: بل الله جبلك عليهما قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله»(١).

ولكن هل معنى ذلك أن الأخلاق جميعها فطرية وأن لا مجال لاكتسابها ؟ ثم أين دور الإرادة في هذا المجال؟ وهل يولد الإنسان خيّراً أم شريراً؟

إمكان اكتساب الأخلاق

يراهن بعض المفكرين على أن الأخلاق فطرية وليس هناك مجال لاكتسابها، وقد روّج هؤلاء مذهبهم بالأقوال الدارجة والقصص الشعبي. ومن ذلك قولهم: «الطبع الردى غالب، الطبع غالب، وذنب الكلب أعوج ولو وضع في مائه قالب». ويروون في ذلك قصة رمزية طريفة تقول إن ملكاً اختلف مع وزيره في أهمية كل من الطبع والتطبع، وكان رأي الملك أن التطبيع يمكنه تغيير الطبع، وخالفه الوزير في ذلك، واستشهد الملك على دعواه بأن جاء بقطط علمها كيف تحمل الشموع وتقف حول المائدة في أثناء انهماك الملك وضيوفه بتناول

---

(١) رواه ابو داود في الأدب باب قبلة الرجل، برقم ٥٢٢٥ وهو حديث حسن.

الطعام. فما كان من الوزير إلا أن أحضر فئراناًأطلقها أمام القطط، فألقت القطط الشموع وطارت في أثر الفئران، فأشعلت النار في قصر الملك وأتت عليه(١).

وقد تعرض الغزالي لأصحاب هذا الرأي ووصفهم بالبطالة فقال: «إعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة و الرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخيلته، فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فإن الطباع لا تتغير»(٢). ثم بين أدلتهم على النحو التالي:

- إن الخُلُق هو صورة الإنسان الباطنة مثلما أن الخَلق هو صورة الإنسان الظاهرة، فكما أن الإنسان القصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلاً، فكذلك السخي بطبعه لا يملك ان يكون شحيحاً، وكذلك الشحيح لا يملك أن يكون سخياً.

- لقد ثبت بالاستقراء أن من المتعذر قمع الشهوة والغضب بالرغم من طول مجاهدة النفس، فالاشتغال بذلك تضييع زمن بغير فائدة.

وللرد على هذا الفريق نورد الآتي:-

١- إن دعوى أن الخُلُق كالخَلْق لا يمكن تغييره مردودة بما يلي:

أ- إطلاق النصوص الشرعية الداعية إلى التمسك بالفضائل والإعراض عن الرذائل فلو لم يكن ثمة مجال لاكتساب الأخلاق لبطلت الحكمة من إرسال الرسل ولكان نزول الكتب السماوية عبثاً، ولما كان هنالك معنى للتعليم والمواعظ والبرامج التربوية وغيرها.

ب- قوله ﷺ مخاطباً معاذاً: «يا معاذ حسن خلقك للناس»(٣) ومن دعاء

(١) فاخر عاقل، طبائع البشر، ٥٩، ٦٠.

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين ٣/ ٧٣.

(٣) رواه أبو بكر بن لاي في مكارم الأخلاق، وهو حديث منقطع ورجاله ثقات كما ذكر زين الدين العراقي في تخريجه للحديث بحاشية ص ٢٧ من الجزء الثالث من إحياء علوم الدين.

النظر في المرآة: «اللهم كما حسنت خَلقي فحسن خُلُقي».

ج- لقد أمكن للإنسان ترويض الحيوانات والطيور والتحكم في غرائزها، من أسود ونمور ودلافين وبزاة وحمام زاجل وغيرها، فكيف لا يمكنه توجيه نفسه أو أبناء جنسه إذن؟ ونستذكر هنا أن علماء النفس الذين آثروا استخدام لفظ(الدوافع) بدلاً من (الغرائز) في المجال الإنساني إنما انطلقوا من تصور أن لا شيء في الإنسان يستعصي على التغيير، فالغريزي المغروز في النفس قد يوحي بالثبات الذي يأبى التغيير . وإن كان هذا يصدق في عالم الحيوان فإنه لا يليق بعالم الإنسان[1]. ومع ذلك فقد بقي فريق من العلماء يؤثر تعبير (الغريزة) منهم عالم النفس (أيزنك)[2] والدكتور أحمد زكي محمد إذ يقول: «لا يجوز أن تنسب سلوك الحيوانات الدنيا إلى الغريزة وحدها وسلوك الحيوانات الراقية وعلى رأسها الإنسان إلى الذكاء وحده، فالواقع أن كلاً من الطرفين له غرائزه التي تدفعه إلى أنواع سلوكه التي تشبع حاجاته الفطرية، كما أن كلاً منهما له القدرة على الانتفاع بالخبرة»[3].

د- إن العلم ما زال يقدم لنا مفاجآت تتعلق بالناحية الخَلْقية في الإنسان كالطول واللون عن طريق الهندسة الوراثية (الجينية)، مما يسقط دليل هؤلاء بقياس الخلق على الخلق في مجال التغيير.

أما قولهم إن من المتعذر قمع الشهوة والغضب فنقول رداً عليه إن هنالك سوء فهم لدى هؤلاء، فهل التربية الخلقية تستهدف قمع الشهوات وكبتها،أو ضبطها وتهذيبها؟ إن هنالك فارقاً واضحاً بين الكبت والضبط؛ إن الكبت مضاد للفطرة، وبالتالي فهو مضاد لمنهج الإسلام،أما الضبط فهو عملية واعية تستهدف

(١) الكتاب السنوي في التربية وعلم النفس، المجلد الخامس، ١٩٧٨، ص١٠٦.

(٢) الكتاب السنوي في التربية وعلم النفس ٥/١٠٣.

(٣) أحمد زكي محمد، مبادئ علم النفس التعليمي، ص٣٩.

توجيه الوارد والصادر، والتحكم في إشباع الحاجات والدوافع البشرية بصورة عاقلة راشدة بهدي من الشرع الحنيف .

يقول الغزالي: «ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات!! فإن الشهوة خلقت لفائدة،وهي ضرورية في الجبلة. فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان،ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك. . . ولو بطل الغضب لبطل الجهاد، وكيف يقصد قطع الشهوة والغضب بالكلية والانبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك؟ إذ قال ﷺ: «**إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر**». (رواه مسلم).

وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه، ولكن لا يقول إلا حقاً فكان عليه السلام لا يخرجه غضبه عن الحق. وقال تعالى: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ**﴾. ولم يقل: والفاقدين الغيظ، فردّ الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه بل يكون العقل هو الضابط لهما الغالب عليهما ممكن، وهو المراد بتغيير الخلق»(١).

ويقول الترمذي منوهاً بأهمية التعبير عن الدوافع وقوى النفس الباطنة باعتبارها جزءاً من التكوين الإنساني: «فكذلك ما في الباطن: كل شيء لم يعطك [أي الله] لم يقتضك استعماله وإبرازه عنك، وكل شيء أعطاكه ووضعه فيك فإنما أعطاكه لتبرزه، فيكون ربك محموداً على ما وضع فيك ناشراً في خلقه جماله ومحاسن فعاله وتكون عليه مثاباً كرماً، فإذا منعته إبرازك إياه فقد ظلمت نفسك وضيعتها، وضاعت عنك الأشياء التي وضعها فيك»(٢).

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين ٣/ ٧٣، ٧٤. والغزالي ، ميزان العمل ص٤٧، ٤٨ .

(٢) الترمذي، نوادر الأصول ص ٣٨٣.

أثر الإرادة في اكتساب الأخلاق

ترجح لدينا من خلال المناقشة القول بإمكان اكتساب الأخلاق، وعملية الاكتساب هذه لا تتم بالتشهي والتمني، وإنما تحتاج إلى إرادة ومجاهدة دائمتين، وإلا كانت الأخلاق عبارة عن بروق تومض في عتمة الليل ثم لا تلبث أن تنقضي. فما معنى الإرادة؟ وما موقف العلماء والفلاسفة من القول بحرية الإرادة؟ وما موقف الإسلام من ذلك؟

١- أما الإرادة فتعني لغة طلب الشيء، أو شوق الفاعل إلى الفعل.

وأما اصطلاحاً فمن العلماء من يعرفها بأنها «رغبة دخلت في نزاع مع رغبة أخرى»[١] ومنهم من عرفها بأنها "القدرة على قبول تصور أمر ما أو رفضه»[٢].

ونحن، أمام هذا الخلاف، نرى أن الحق لا يكمن في أي من التعريفين السابقين، فالإرادة عبارة عن رغبة مقرونة بقدرة، إنها كما وصفها الدكتور محمد عبد الله دراز «ليس معناها أن نصوغ (طلباً) بل أن نصدر (مرسوماً). إنها لا تعني أن نمد (يد سائل) بل هي التقدم (بخطوة فاتح)[٣]. ومن هنا عرفها سعد الدين التفتازاني بأنها «صفة بها يرجح الفاعل أحد مقدوريه من الفعل أو الترك». والمقدور متعلق بالقدرة كما هو معلوم.

إن الإرادة عنصر مهم من عناصر تكوين النفس الإنسانية، هذه النفس التي تضم بين جنباتها تشكيلة واسعة من الدوافع والانفعالات والميول والاستعدادات والأفكار، وتستقل الإرادة عن هذه المكونات كما يستقل القاضي عن جهاز العدالة في النطق بالحكم.

٢- أما عن مواقف العلماء والفلاسفة من حرية الإرادة، فهم في ذلك بين نافٍ ومثبت، سواء في ذلك فلاسفة الغرب أم علماء المسلمين.

---

(١) فاخر عاقل، طبائع البشر، ص ٢٨.

(٢) مصطفى غالب، الإرادة ، ،ص ٢٤.

(٣) دراز ، دراسات إسلامية، ص ٨٩.

فمن النافين لحرية الإرادة من الفلاسفة الغربيين الفيلسوف الانجليزي هيوم إذ يقول: «إن شعورنا بالحرية ليس إلا وهماً وخداعا»، ويشاركه هذه النظرة الفيلسوف شوبنهاور.

ومن المثبتين لها ديكارت وكانت وسارتر. وفي ذلك يقول سارتر: «إن الإنسان ليس سوى ما يصنعه هو بنفسه». ويعد مبدأ حرية الإرادة المبدأ الأول من مبادئ الوجودية[١].

أما من وجهة النظر الاسلامية فإن الإسلام يؤكد حرية الانسان، مع تقرير أن مشيئة الله هي العليا. قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[٢] وفي سياق تأكيد هذه الحرية نقرأ في سورة الشمس أحد عشر قسماً متوالية على أن تزكية النفس وتدسيتها رهن بإرادة الفرد. قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا . وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا . وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا . وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[٣].

وفي القرآن الكريم رد قوي على أنصار الجبرية الذين يرون أن ليس للإنسان من أمره شيء، وأن نسبة الفعل إلى الإنسان ليس إلا أمرا ظاهرياً كنسبة الكتابة إلى القلم، ونسبة الطيران إلى الريشة في الهواء. قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٤].

ومن هنا عبر الإمام الغزالي عن مبدأ الحرية بعبارة صريحة إذ قال: أنا أريد فأنا موجود.

---

(١) مصطفى غالب، الإرادة، ٠٣-٥٦.

(٢) سورة الإنسان ٠٣.

(٣) سورة الشمس ١-١٠.

(٤) سورة الأعراف ٢٨.

وفي الحقيقة أن مبدأ الحرية أمر يشهد به الوجدان، ولا يماري فيه إلا مكابر بالمحسوس، يحاول بحريته أن يلغي الحرية نفسها، وفي النفي دليل الإثبات.

ويعجبني في التوفيق بين الحرية والجبرية، أو التسيير والتخيير، ما قاله بعضهم إذ جعل هذين الأمرين بمثابة القطبين الكهربائيين السالب والموجب، فكل من هذين القطبين لازم للآخر لأي نشاط كهربائي. وكذلك فإن الجمع بين التسيير والتخيير لازم لأي نشاط إرادي في هذا الوجود[1].

الطبيعة الإنسانية بين الخير والشر

هل يولد الإنسان خيّرا أم شريرا؟ أم أن بعض الناس يولدون خيرين والآخرين أشراراً؟ أم أن لدى الإنسان استعدادا للخير والشر؟. في كل ذلك أقوال لدى العلماء والفلاسفة، حتى بين القائلين بحرية الإرادة.

وفيما يلي بيان موجز بهذه الآراء:

١- الطبيعة الإنسانية خيرة بذاتها، والشر عارض بسبب خطأ او جهل أو تأثير بيئي. وعلى المربين تنمية هذه الروح الخيرة في الإنسان.

ومن القائلين بهذا سقراط والرواقيون قديماً، ثم جان جاك روسو من فلاسفة النهضة الأوروبية.

٢- الطبيعة الإنسانية شريرة والخير طارئ عليها. ومهمة المربين كبح جماح الشهوات والدوافع البشرية، وتكوين ملكة إرادية توجه الإنسان إلى الخير وتنأى به عن الشر. ومن القائلين بهذا البوذيون. وقد سرى هذا الاعتقاد إلى الكنيسة المسيحية في وقت متأخر، حيث رأت أن الخطيئة ملازمة للجنس البشري، وأن مهمة المسيح تخليص البشرية من الخطيئة، فكان صلبه فداء للبشرية.

٣- الطبيعة الإنسانية فيها استعداد للخير والشر معا. وعلينا تنمية الاستعدادات لعمل الخير من خلال مناهجنا وممارستنا التربوية.

(١) مصطفى غالب، الإرادة، ١٣٩-١٤٠.

ومن القائلين بهذا جمهور الفلاسفة وعلماء النفس والتربية، وبه قال الغزالي وابن خلدون من علمائنا، وإن كانا رأيا أن ميل الإنسان إلى الخير أكثر من الشر.

٤- الطبيعة الإنسانية محايدة ليست خيرة ولا شريرة في ذاتها، وتعمل البيئة التربوية عملها في توجيه الإنسان للخير والشر.

ومن القائلين بهذا الرأي كانت ودور كايم وبرتراند رسل.

٥- الطبيعة الإنسانية متغايرة، فمنهم من يولد خيراً ومنهم من يولد شريراً ومنهم المتوسط يبن هذين وهذا الصنف الأخير هو القابل للتعديل دون الصنفين السابقين.

ومن القائلين بهذا الرأي جالينوس[(١)].

ولا بد لنا بعد هذا البيان من التعقيب على هذه الآراء بما يلي:-

١- إن سبب الاختلاف بين هذه الآراء يعود بدرجة رئيسة إلى النظر إلى العناصر المكونة للطبيعة الإنسانية:

- فمن نظر إلى العنصر الروحي الملكي قال إن الإنسان خير.
- ومن نظر إلى العنصر الحيواني قال إنه شرير.
- ومن نظر إلى العنصرين معا قال باستعداد الإنسان للخير والشر.

٢- إن للشر وجوده في طبيعة البشر، وكما ورد في الأثر: «الظلم كمين في النفس، العجز يخفيه والقدرة تبديه»[(٢)].

---

(١) ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص ٣٧، ٣٨.

(٢) العجلوني، كشف الخفاء ٢/ ٥١ وقال العجلوني، ليس بحديث ، ونقل عن النجم قوله: لم أقف عليه. ولعله من كلام بعض الحكماء.

وكما قال الشاعر:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وليس من مهمة المربين استئصال الشر كما قدمنا، لأن ما كان مرتكزاً في النفس البشرية ليس من مهمتنا قمعه وكبته، وإنما تهذيبه وضبطه. وفي هذا يقول الفيلسوف ميخائيل نعيمة: «لا تحاولوا استئصال الشر من العالم، حتى الأشواك والأعشاب البرية تصلح سمادا للأرض... الأشجار الباسقة الجميلة لا تشكل وحدها غابة، بل لا بد في الغابة من الأدغال والللبلاب والطفيليات»[1].

(٢) ميخائيل نعيمة، مردادر، ص٤, ٣.

المبحث الخامس
وسائل اكتساب الأخلاق ووسائطه

لاكتساب الأخلاق وسائل عدة أهمها :-

التعليم

سبق لنا القول إن العلم أساس من أسس الأخلاق في الإسلام، وهذا يفسر لنا ارتباط التربية بالتعليم في المناهج الدراسية التي تشرف عليها وزارات التربية والتعليم في مختلف الأقطار.

وحتى تكون المناهج الدراسية ذات أثر فعال في التربية الأخلاقية، فإنه ينبغي على أولي الأمر أن يهيئوا المناخ الملائم الذي يتحقق من خلاله درء أي تناقض بين هذه المناهج والمناهج الأخرى الموازية من وسائل إعلام مسموعة ومرئية ومقروءة، وأن تكفل التناسق بين هذه المناهج بحيث تنتفي الازدواجية في التوجيه، حتى يكون المتعلمون من أمر دينهم على بصيرة.

ومن جانب آخر فنحن نرى أن الفضائل الخلقية التي لا تؤصل على وعي وعلم لا تلبث أن تلتوي بأصحابها، وتضطرب في خضّم الحياة العملية. وعلى سبيل المثال فإن الإخلاص خلق عظيم، ولكن إخلاصاً لا يقوم على وعي كافٍ قد يدمر أكثر مما يبني. ألم يكن الخوارج مخلصين للدين؟ ولكن إخلاصهم هذا أضر بالدين أكثر من كيد العدو الألدّ نظراً لضمور وعيهم وفهمهم لحقائق الدين، حتى ليذكرنا موقفهم هذا بقصة الدب وصاحبه، وبالمثل القائل: «ومن الحب ما قتل».

التدريب العملي

التعليم شيء جميل، ولكن ماذا عسى تفيد الجندي دروس الوعظ والإرشاد حول أهمية الصبر وتحمل المشقات إذا لم نخضعه لتدريب عملي يعيش فيه الصبر واقعاً لا خطابا؟ وهل يمكنه من خلال المحاضرات النظرية تعلم الشجاعة والإقدام أم أن وضعه في مناورات بالذخيرة الحية أحرى بأن يحقق الهدف؟

وأيهما أكثر فائدة لفريق رياضي، أن نعلمه أخلاق التسامح والتعاون وضبط النفس من خلال المواعظ أو الملاعب؟ إن ضرب المثل بالروح الرياضية لا يكون إلا من خلال التدريب العملي والنشاطات الرياضية.

وقل مثل ذلك في الأخلاق الأخرى كالأمانة والسخاء والوفاء الخ. . .

يقول ﷺ: «**إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم**»[(١)]، فإذا لم يكن الحلم لدى شخص فطرياً، فهو يحتاج لاكتساب هذا الخلق إلى تدريب عملي نضع فيه هذا الشخص أو يضع نفسه في مواطن ابتلاء، المرة تلو الأخرى، حتى يغدو الحلم خلقاً له: يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي: «الطريق إلى تزكية النفس اعتياد الأفعال الصادرة من النفوس الزاكية الكاملة حتى إذا صدر ذلك معتاداً بالتكرر مع تقارب الزمان حدث منها هيئة للنفس راسخة تقتضي تلك الأفعال وتتقاضاها، بحيث يصير ذلك له بالعادة كالطبع»[(٢)].

وعلينا هنا، ونحن نتحدث عن اثر التدريب العملي، أن لا نغفل ما للعبادات من اثر واضح في تدريب الأفراد على الفضائل الخلقية،فالصلاة تعودنا النظام والتواضع في برنامجنا اليومي الذي نعيشه، والصوم دورة تدريبية على الصبر وضبط النفس والشعور مع الآخرين، والزكاة تدرب صاحب المال على مقاومة الشح وعلى البذل والشعور مع البؤساء الخ. . .

---

(١) سبق تخريجه، ص٥.

(٢) الغزالي ، ميزان العمل ص ٤٨,٤٧.

القدوة الحسنة

قد تنتهي جهودنا من خلال التعليم والتدريب إلى طريق مسدود، فلا نظفر من توجيهنا للمتعلمين والمتدربين بطائل لوجود علة أخرى تحول دون بلوغ النتائج المطلوبة أو تقلل منها . هذه العلة هي افتقاد القدوة الحسنة.

إن الإنسان كائن إجتماعي، وما من أحد إلا وله مثله الأعلى الذي يقتدي به ويسير على خطاه، ذلك أن في الفطرة الإنسانية ميلاً قوياً للمحاكاة والتقليد. ونحن نجد مثلنا الأعلى وقدوتنا في رسول الله ﷺ، يهدينا إليه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرا﴾[1] اما من لم يجعل الله والدار الاخرة بغيته فلا عليه أن يتخذ من الرياضي الفلاني أو الممثل العلاني هدفه الأعلى، وللناس فيما يعشقون مذاهب.

إن وجود القدوة والأسوة يجسد لدينا القناعة بأن ما من خلق دعا إليه الإسلام إلا وهو ممكن التطبيق، وأن بلوغ الفضائل ممكن كذلك،وما علينا إلا أن نسلك سبيل أهل القدوة .

وكما قال الشاعر :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثله إن التشبه بالكرام فلاح

الأسرة

الأسرة هي المحضن الأول للتربية الخلقية،والتي تسبق عادة التكاليف الشرعية من صلاة وصيام وغيرها. فنحن نبدأ بتربية الطفل على الآداب والأخلاق الفردية والاجتماعية،كآداب الطعام والحديث والزيارة .

ويستمر دور الأسرة لاحقاًفي صورة دعم ومؤازرة لجهود المؤسسات التعليمية والتربوية.

---

(١) سورة الأحزاب ١٣.

ويؤكد الرسول ﷺ دور الأسرة في التوجيه بقوله: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[1]. وهذا الحديث الشريف بين الدلالة في أن التوجيه الأسري قد يكون في دائرة السلب كما يكون في دائرة الإيجاب. وحري بأسرة تقيم حياتها على منهج الله أن تفلح في تربية أبنائها، غير أننا لا نطمع أن نرى مثل هذا الفلاح في أسر أخرى على خط مختلف، حياتها فسق ومجون ودأبها الشجار والشقاق، وهيهات!! ومن يزرع الشوك يجني القتاد.

مجتمع الرفاق

يشكل مجتمع الرفاق وسيطاً مؤثراً في التربية الخلقية، وبخاصة إبان مرحلة المراهقة وما بعدها، وهذا يدعونا إلى متابعة الأبناء للتعرف إلى رفاقهم وأصدقائهم، فقد يكون منهم أصدقاء سوء. قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً. يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً**﴾[2].

وقال ﷺ: «**المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»[3].

إن كثيراً من صور الانحراف التي نشهدها منشؤها رفاق السوء، وما جرائم الأحداث وانتشار المخدرات بخافية على أحد، اذ يكون ل (الشلة) من التأثير على أفرادها ما لا تحظى بمثله الأسر والمؤسسات التعليمية.

التوجيه الاجتماعي

للمجتمع دور كبير في التوجيه الأخلاقي بما يملكه من صلاحية الأمر

---

(١) رواه البخاري في الجنائز، باب اذا اسلم الصبي، ورواه مسلم في القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.

(٢) سورة الفرقان ٢٧-٢٩.

(٣) رواه ابو داود في الادب، باب من يؤمر ان يجالس رقم ٤٨٣٣.

بالمعـروف والـنهي عن المنكر، هذا المبـدأ الذي أهل هـذه الامـة لتكون خـيـر أمـة أخرجت للناس. إن تهاون المجتمع في ملاحقة العابثين مـؤذن بالتردي والسقوط. قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ امَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾.

وقال ﷺ: «إ ن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كـان الرجل يلقى الرجل فيقول له: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُون. تَرَى كَثِيرا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ الى قوله ﴿فاسقون﴾. ثم قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا أو لتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضاً ثم ليلعنكم كما لعنهم»(١).

إن دور المجتمع لا يقتصر على حدود الأمر والنهي، بل يتجاوز ذلك إلى الرفض والعزل والمقاطعة لأهل السوء، والأخذ على أيديهم، ونحن نذكر جيداً دور المجتمع الإسلامي في مقاطعة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فكان درساً بليغاً لهم.

مسؤولية الدولة

تتجلى مسؤولية الدولة في التربية الأخلاقية من خلال سلطاتها المختلفة تشريعا وتنفيذاً وقضاء.

ففي الجانب التشريعي نجد أن رعاية الأخلاق العامة من أخص وظائف الدولة في الإسلام، لذا فهي معنية بسن التشريعات التي تكفل الحفاظ على هذه

---

(١) رواه ابو داود في الملاحم، باب الامر والنهي رقم (٤٣٣٦).

الأخلاق. وهذه التشريعات ينبغي أن تكون شاملة بحيث تطال كافة المؤسسات، فعندما تمنع الخمر والقمار مثلاً فان هذا المنع لا يستثنى منه مكان يقع تحت سيادتها لأغراض سياحية أو اقتصادية أو غير ذلك.

ولما كان التشريع بحاجة إلى جهاز تنفيذي يرعاه ويحميه، لذا فإن السلطة التنفيذية مسؤولة عن تطبيق هذه التشريعات، وعدم السماح لأهل الفساد بالعبث والالتفاف على القيم الأخلاقية، وقد قيل: «يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن». إن طبائع البشر لا تستقيم على حال واحد، وما أكثر من يتجانفون للإثم، وإن العين الساهرة للسلطة التنفيذية ينبغي أن تبقى في موقع الرقابة والمتابعة، حتى لا يكون هناك ترهل في الأداء الوظيفي، أو رشوة، أو تسيب في العمل، أو انتهاك للحرمات العامة، أو اتجار بالمحرمات أو غير ذلك.

فإذا أبصرت الجهات المسؤولة خرقاً في موقع من المواقع أحالت الأمر إلى السلطة القضائية لإيقاع العقوبة المناسبة، سواء في ذلك القضاء العادي أو النظر في المظالم أو قضاء الحسبة.

لقد كان لنظام الحسبة في الإسلام دوره الرائد في الحفاظ على الآداب العامة وبخاصة في مجال المعاملات العامة في الأسواق، من مراقبة للمكاييل والموازين والنقود ومنع للغش والاحتكار، وتوجيه للسلوك العام في الاختلاط بين الرجال والنساء الخ... ونحن نرى بعض الأجهزة في أيامنا هذه تقوم ببعض وظائف الحسبة كمراقبي الصحة والتموين والسير وشرطة الآداب وديوان المحاسبة الخ...

ولنذكر آخر الأمر أنه ينبغي علينا ألا نعلق مسألة التردي الأخلاقي في مجتمعاتنا على الدول حصراً، فهذا ليس إلا هروباً من تحمل المسؤولية الفردية والجماعية فأين وازعنا الأخلاقي اذن؟ وأين واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وقديماً قيل: «من ليس له من نفسه زاجر لا تردعه الزواجر».

المبحث السادس
خصائص الأخلاق في الإسلام

تتميز الأخلاق في الاسلام بجملة من السمات والخصائص منها :-

الشمول

يتقاصر فهم بعضهم وتضيق مساحة رؤيتهم لمفهوم الخلق حتى يتصوروا أن حدود الأخلاق لا تتعدى دائرة العلاقات بين الجنسين، فصاحب الخلق الحسن عند هؤلاء من غض بصره أو أحصن فرجه، وعكسه من أرسل نفسه على هواها لا يبالي بحلال أو حرام.

والحقيقة أن دائرة الأخلاق في الإسلام من السعة بحيث تغطي شؤون الحياة كلها، فهي ذات صلة بالعقيدة والعبادة والمعاملات ومختلف العلاقات، علاقة الفرد بنفسه وبربه وبالأشخاص والأشياء.

* ففي مجال العقيدة يرد خلق الإخلاص والصدق بعيدا عن الرياء والنفاق، والتخلق بأخلاق العبودية الحقة، والعبور من دائرة الأوهام والظنون إلى دائرة اليقين، حيث العقيدة الراسخة البعيدة عن ترهات المرجفين ممن ليس لهم حظ من علم ولا هدى ولا كتاب منير.

وفي مجال العبادة تتوارد أخلاق شتى منها، ابتغاء وجه الله تعالى بها، والانضباط بحدود مقررات الشريعة فيها دون تزيد أو ابتداع، والنظام في الأداء، أما عن صلة العبادات بالأخلاق الأخرى فقد سبق بيان ذلك في حديثنا عن أهمية الأخلاق في الاسلام.

وفي مجال العلاقات والمعاملات هناك أخلاق تتعلق بصلة الفرد.

بنفسه: كالحياء والإتقان والصبر.

وبخالقه: كالطاعة والتعظيم والشكر والتواضع وعدم الاستكبار.

وبالناس: كالإحسان وأداء الواجب وحسن العشرة والتعاون على البر والتقوى والعدل والأمانة الخ مما يتخلل مختلف الأنظمة من سياسية واقتصادية واجتماعية.

وبالأشياء والكائنات الأخرى في البيئة، كالحرص على نظافة البيئة والحفاظ عليها، والرفق بالحيوان، وهكذا.

الجمع بين الواقعية والمثالية

تعتبر هذه السمة صفة سائدة في أحكام الإسلام بعامة، وفي الأخلاق بخاصة، فهي تأخذ بعين الاعتبار واقع هذا الإنسان من حيث تكوينه وقدراته وما هنالك من فروق في القدرات بين الأفراد. وليس في هذه الأخلاق ما يند عن التطبيق، بل هي أحكام ميسورة من هذه الشريعة السمحة.

أما مثاليتها فتتجلى في دعوتها الإنسان إلى التسامي والتشبه بالملائكة الأطهار حيث وجد الإنسان إلى ذلك سبيلاً.

ومن مظاهر الجمع بين الواقعية والمثالية ما يلي[1]:

أ- تطبيق مبدأي العدل والإحسان في مجال العقوبات، انسجاما مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[2] والعدل يعني المساواة في الفعل والاعتبار، وبموجبه يحق للمعتدى عليه أن يقتص من المعتدي تسكيناً لشهوة

---

(١) القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام ص ١٥٦-١٦٨، وعقلة، النظام الأخلاقي في الاسلام ص ٥٩/ ٦٠.

(٢) سورة النحل ٩٠.

الانتقام والغضب. وهذا تشريع واقعي يراعي الفطرة الانسانية وما فيها من دوافع.

ومع ذلك يدعو الإسلام إلى العفو والصفح منّةَ وتكرما، ومن هنا ورد قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(١).

وقوله كذلك: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ﴾(٢).

ب- مراعاة ما هنالك من فروق وقدرات على الالتزام بأحكام الدين بين الناس. كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾(٣) فالظالم لنفسه مقصر في الالتزام، والمقتصد وسط في ذلك يأخذ بالواجبات ويقصر في المندوبات، والسابق هو الذي يقوم بالفروض والسنن، ويتقي الله في كل شأنه.

ثم إن قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ يعبر عن حقيقة ما هنالك من فروق في القدرة على الالتزام الأخلاقي بين الناس.

ج- تقرير أن الخطأ واقع فضلاً عن كونه متوقعاً من كافة الناس، سواء منهم البر التقي أم الفاجر الشقي وليس هنالك من معصوم في السلوك، وشأن المؤمن أن ينوب ويتوب ويستغفر الله على ما فرط. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٤).

د- مراعاة الأحوال الاستثنائية، فالصدق أمانة والكذب خيانة، ومع ذلك

---

(١) سورة الشورى ٤٠.

(٢) سورة النحل ١٢٦.

(٣) سورة فاطر ٣٢.

(٤) سورة آل عمران ١٣٥.

فيجوز الكذب استثناء في بعض الأحوال كالكذب على العدو، والكذب بقصد الإصلاح كما سيتبين لنا ذلك في موضوع (الصدق) إن شاء الله.

الثبات

الأخلاق في الإسلام أخلاق لا تعرف التطور، فليس لكل زمان أو مكان أخلاقه التي يملك الناس نزعها كما ينزعون ملابسهم أو يغيرونها كما يغيرون سياراتهم وأثاث منازلهم، إنها أخلاق ثابتة، تستمد ثباتها من كونها قيماً وأحكاماً شرعية.

أما كونها قيماً فلأنه بها تقوم أفعال المسلم وأقواله من عبادات ومعاملات وغيرها، وقد ذكرنا في حديثنا عن أهمية الأخلاق في الإسلام ما يثبت ذلك من الأدلة والشواهد.

وهذه القيم معايير للسلوك الفردي والجماعي، ولا بد في هذه المعايير من أن تكون منضبطة، كما الحال في المعايير والمقاييس الخاصة بالمسافات والمكاييل مثل المتر والكيلو غرام، إذ لا يجوز أن يكون المتر (٩٠سم) مثلاً او الكيلو غرام (٨٠٠غرام)، لما يورثه ذلك من طعن في مصداقية هذه المقاييس وفقدان الثقة في التعامل. وقل مثل ذلك في الأمانة والحياء والعفة إن أراد كل فرد أو مجتمع أن يشكل لها فهماً خاصاً.

وأما كونها أحكاماً شرعية، فهي أحكام شرعية تكليفية أمراً ونهياً، فضائل ورذائل. وهذه الأحكام لا تتلون وفقاً لأهواء الناس وأذواقهم. فلا نقبل في عالم السياسة الأخلاق الميكافيلية (الغاية تبرر الوسيلة)، ولا نقبل في دنيا الاقتصاد الإقراض بالفائدة الربوية، فالربا هو الربا، ولو تعاملت به أمم الأرض. ولا نقبل في إطار العلاقات الاجتماعية تلك الحفلات المختلطة الماجنة التي أصبحت متطلباً إلزامياً في أعراس كثير من الناس، والتي يتنازل فيها كثير من الحضور عن أبسط القيم الإسلامية المعروفة.

إن هناك فرقاً بين الأحكام والقيم الأخلاقية وبين التقاليد والأعراف الاجتماعية. فهذه الأخيرة تقبل التغيير والتبديل وبخاصة ما فسد منها[1].

وتقتضينا المقارنة أن نذكر أن الأخلاق في المجتمعات الغربية فيها من المرونة ما يسمح بتعديلها أو العدول عنها. ففضيلة العفة لم تعد هاجس المجتمعات الغربية في ظل نظامهم الاجتماعي القائم على سياسة الأخدان (Boy Friend,Girl Friend)لكنها تقفز لتكون على رأس الهرم القيمي إذا تعلق الامر برئيس الدولة أو رجال الحكومة، حتى إنها قد تطيح بهم، وهذه من المفارقات العجيبة في تلك الأنظمة، وما أمر قصة الأميرة ديانا والرئيس كلينتون مع سكرتيرته مونيكا ليونسكي عنا ببعيد.

كذلك فان الوفاء بالعهود يغدو لا معنى له إذا تعارضت هذه القيمة الخلقية مع المصالح السياسية للدول الغربية، مثلما فعلت فرنسا وبريطانيا إذ نكثت وعودها للشريف حسين بن علي باستقلال البلاد العربية التي كانت تتبع للدولة العثمانية، وجادت بوعودها لليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين.

الإيجابية

الأخلاق في الإسلام أخلاق إيجابية، فهي تتغيا ما فيه صلاح الإنسان وتحقيق المقصد الأسنى من الخلق، وهذه الإيجابية نجدها في الحث على الفضائل أو في النهي عن الرذائل فدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

إن من مظاهر الإيجابية هذه أن الأخلاق في الإسلام تسمو بالفرد والمجتمع نحو المكارم، وتنأى بالإنسان عن كل ما ينزل بقدره كونه خليفة الله في الأرض، وهي تستثير دوافعه للعمل واستغلال الوقت والعطاء والبذل والتضحية والإتقان على المستوى الاجتماعي كما تدعو الفرد إلى الطهر النفسي والإخلاص والاستقامة، والبعد عن اللغو والرفث.

---

(١) محمد عقلة، النظام الأخلاقي في الإسلام، ص ٥٦,٥٥ وعبد الرحمن حبنكة، الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/ ١٢.

إن موضوع إيجابية الأخلاق الإسلامية ليس موضعا لاختلاف أو حوار، ولكن المرء تأخذه الدهشة حين يرى ضعف استجابة المسلمين لهذه الأخلاق حتى كأنما خلقت لغيرهم، وبات غيرهم أكثر حرصاً على الالتزام بالأخلاق العملية، وهذا يفسر لنا سر تأخر المسلمين وتقدم غيرهم، وهو يذكرنا بمقولة الامام محمد عبده حينما زار الغرب، وقد سئل عن انطباعاته عن تلك المجتمعات: فقال: «لقد وجدت الاسلام ولم أجد المسلمين».

الوسطية

نعني بالوسطية التوسط أو «التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين بحيث لا ينفرد أحدهما بالتاثير ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه ويطغى على مقابله ويحيف عليه»[(١)].

ومن مظاهر هذه الوسطية في الأخلاق الإسلامية

١- إن الإسلام وقف موقفا وسطاً في نظرته إلى الطبيعة البشرية، فلا هو اعتبرها خيرا محضا، ولا هو اعتبرها شرا محضا كما تقدم معنا.

٢- وتوسط الإسلام كذلك في نظرته إلى متطلبات الحياة الدنيا والحياة الآخرة، ما بين فريق ينادي بالعزوف عن الحياة الدنيا وملذاتها وفريق يعتبر الدنيا غاية المنتهى كما عبر عنها الشاعر:

إنما الدنيا طعام وشراب ومنام ... فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا السلام

قال تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[(٢)].

وتوسط الاسلام في الانفاق، فجعل الفضيلة وسطا بين الإسراف والتقتير. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ

---

(١) القرضاوي، الخصائص العامة للإسلام ص ١٢٧.

(٢) سورة الأعراف ٣١.

قَوَاماً﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾[2].

وقد ذكر الغزالي أن أمهات الفضائل أربع: الحكمة و الشجاعة والعفة والعدالة.

أ- أما الحكمة فهي وسط بين رذيلتين هما: الخب والبله.

والخب هو طرف إفراطها، وهو حالة يكون بها الإنسان ذا مكر وحيلة.

والبله هو طرف تفريطها، وهي حالة منشؤها بطء الفهم وقلة الإحاطة بصواب الأفعال.

ب- وأما الشجاعة فهي وسط بين رذيلتي التهور والجبن.

فالتهور إفراط، وهو حالة يقدم بها الإنسان على الأمور المحظورة التي يجب في العقل الإحجام عنها.

والجبن تفريط، وهو حالة تصرف عن الإقدام حيث يجب الإقدام.

ج- وأما العفة فهي وسط بين رذيلتي الشره والخمود.

والشره إفراط في الشهوة يتمثل في المبالغة في تحصيل اللذات التي يستقبحها العقل وينهى عنها الشرع.

والخمود تفريط في تحصيل الشهوة التي يقتضي العقل والشرع تحصيلها.

د- وأما العدل في المعاملة فهو وسط بين الغبن والتغابن.

فالغبن إفراط يدعو أن يأخذ الإنسان ما ليس له.

والتغابن تفريط يدعو أن يعطي ما ليس عليه حمد وأجر[3].

---

(١) سورة الفرقان ٣٧.

(٢) سورة الإسراء ٢٨.

(٣) الغزالي، ميزان العمل ٥٥-٦٠.

الباب الثاني

الموضوعات الخلقية

المبحث الأول : الصدق والكذب

المبحث الثاني : الإخلاص والرياء

المبحث الثالث : الوفاء بالعهد والوعد

المبحث الرابع : الأمانة

المبحث الخامس: الصبر

المبحث السادس: الحلم والأناة

المبحث السابع: الإيثار والأثرة

المبحث الثامن : التواضع والكبر

المبحث التاسع : الرحمة

المبحث العاشر: بر الوالدين

المبحث الحادي عشر : حق الجار

المبحث الثاني عشر : الحياء والبذاءة

المبحث الثالث عشر: العدل والظلم

المبحث الرابع عشر : الغيبة والنميمة

المبحث الخامس عشر: الحسد

المبحث السادس عشر: النفاق

المبحث الأول

الصدق و الكذب (*)

الصدق في اللغة: نقيض الكذب، ومعناه الصالح، والقوة، والجودة. «وأوسع معجم دَوَّن معاني الصدق لسان العرب» «لابن منظور».

قال ابن فارس: الصاد والدال والقاف، أصل يدل على قوة الشيء قولاً وغيره. من ذلك الصدق: خلاف الكذب، سمي لقوته في نفسه، ولأن الكذب لا قوة له، فهو باطل.

الصدق في الاصطلاح:

الصدق بالكسر: هو إخبار عن المخبر به ما هو عليه مع العلم بأنه كذلك. فالصدق: أن يكون الحكم لشيء علة شيء اثباتاً، أو نفياً مطابقاً لما في نفس الأمر.

وعليه فللصدق إطلاقان:

أن تكون أعمالنا وفق أقوالنا، بمعنى أننا إذا وعدنا وفينا، وإذا تعاهدنا على أمر أنفذنا.

أن تكون أقوالنا وفق أفكارنا، بمعنى أننا نخبر بما نعتقد أنها الحق الواقع(١).

(*) د. عبد الرزاق أبو البصل.

(١) د. محمد مهدي علام، فلسفة الكذب، ص ١٢-١٥.

فضل الصدق وأهميته

بعد بيان معنى الصدق لغة واصطلاحاً يحسن بنا بيان فضله وأهميته، فللصدق فضائل كثيرة لا يأتي عليها الحصر في مثل هذا المبحث فمنها:-

١- أنه مما وصف الله به نفسه، ولا يوصف الا بصفات الكمال، ومن أصدق من الله قيلا. قال سبحانه: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١). وقال لنبيه ﷺ: «وأتيناك بالحق وإنا لصادقون»(٢).

٢- أنه من صفات الأنبياء والمرسلين، وسمة من سماتهم، وبه يتميز المخلصون وروّاد الإصلاح، وقادة التوجيه. قال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً﴾(٣) وكذلك وصف إسماعيل، وإدريس عليهما السلام. ووصف نبينا بذلك فقال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(٤).

٣- والصدق صفة الأتقياء الأبرار من المؤمنين والمؤمنات. قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(٥).

وقال سبحانه: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾(٦).

٤- إن الله سبحانه وعد الصادقين بالمغفرة والأجر والفوز العظيم في الآخرة. قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ

---

(١) سورة آل عمران ٩٥.

(٢) سورة الحجر ٦٤.

(٣) سورة مريم ٤١ سورة الأحزاب ٢٤.

(٤) سورة الزمر ٣٣.

(٥) سورة الحجرات ١٥.

(٦) سورة المائدة٧٥.

وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ والصَّائِمِينَ والصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

٥- أن الله سبحانه يجزى عباده المؤمنين يوم القيامة على الصدق.

فقال جل وعلا: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾[3].

أما الأحاديث الواردة في فضل الصدق فهي كثيرة متوافرة، أكتفى بإيراد أجمعها لفضله وأهميته.

١- إن الصدق يهدي إلى البر الذي هو الطريق إلى الجنة، عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**عليكم بالصّدْق، فإنَّ الصّدْق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صدّيقا. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذّابا**»[4].

٢- إن الصدق يفتح أبواب البركة والرزق، ويعين على الخروج من كل ضائقة. قال رسول الله ﷺ «**البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا، بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما**»[5]. ومن أجل ذلك لم يأل رسول الله ﷺ جهدا في حث الناس على التحلى بفضيلة الصدق، وتحذيره من رذيلة الكذب، وترغيبه بالكمال النفسي بالالتزام به في كل حال. فلذلك كان

---

(١) سورة الأحزاب ٣٥.

(٢) سورة المائدة ١١٦.

(٣) سورة الأحزاب ٢٤.

(٤) اخرجه مسلم في «البر والصلة» (١٦/ ١٥٩-نووي).

(٥) أخرجه البخاري في البيوع (٣/ ١١).

الاستمساك بالصدق في كل شأن وتحريه في كل الأمور دعامة من دعائم الإيمان في حياة المسلم، وصبغة ثابتة في سلوكه وتصرفاته .

أهمية الصدق (*)

الصدق فضيلة الفضائل وأسُّها، والأصل الذي تتفرع عنه جميع الأخلاق الشريفة، والصفات الكريمة الحميدة التي يتحلى بها الإنسان .

* إنه ما تمسك به متمسك إلا كان النجاح في أعماله ألصق به من ظله، وأعلق به من نفسه، فهو حصن منيع قائم على أساس الرشد، لا تخرقه تهجمات المعتدين. فيه تكتسب المحامد، وتحصل راحة النفس .

* بالصدق يُمَيَّز أهل النفاق من أهل الإيمان . . وسكان الجنان من سكان النيران. . . من نطق به علت على الخصوم كلمته . .

* الصدق أساس الدين . . وعمود فسطاط اليقين . . ودرجته تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين . . ومن مساكنهم في الجنان تجرى العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين .

* الصدق ضَرورة مِنْ ضرورات الحياة الاجتماعية وغيرها، لا تستقيم إلا به، بل يتوقف عليها نظام العالم بأسره . قال الراغب الأصبهاني : «و الصدق أحد أركان بقاء العالم، حتى لو تُوهم مرتفعاً لما صح نظامه وبقاؤه، وهو أصل المحمودات، وركن النبوات، ونتيجة التقوى، ولولاه لبطلت أحكام الشرائع»[1] .

* إن الصدق يزيد الصادق في العالم نباهة ووقاراً، ألا ترى أنه يكون دائماً موضع الثقة، ومحل الأمانة، مبجلاً محترماً مهما كانت درجته ؟ لأن الصادق يطبع على كمال في الخلق، فلا يكون خائناً، ولا مختلساً، ولا مزوراً، ولا

(*) انظر في ذلك: رسائل الاصلاح: للخضر حسين (٢/ ٩٥-١٠٥) وخلق المسلم من(٣٢-٤١) النظرات للمنفلوطي، السمير المهذب، على فكري (٤/ ١٦٤-١٧٢).

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ٢٧١.

نماماً، ولا منافقاً، ولا مخادعاً، ولا غشاشاً، ولا متصفاً .مما يشينه بين الناس، وعليه فالصدق عِزٌّ والباطل ذل.

* إن الصــدق من أهم الأسس، بل هـو الأســاس المتين الـذي تشـاد عليـه المجتمعات، ولولاه ما بقى مجتمع ولا أمة، فـالصدق إنْ ذهب من أمة، ذهبت معه تلك الأمة، وتصدع بناؤها، لذلك قرن اللّه تعالى الأمر بالصدق بالأمر بالتقوى: ﴿يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(١) .

فلقد تحيا الأمة وفيها جبناء رعاديد، ولقد تبقى الأمة وفيها بخلاء أشحاء، ولكن شَمْسُها تنحدر إلى المغيب إذا كان فيها الكذابون المفترون .

عن صفوان بن سليم أنه قال: «قيل للنبي ﷺ : **أيكون المؤمن جباناً؟ قال :«نعم . قيل : أفيكون بخيلا؟ قال : نعم . قيل : أفيكون كذاباً؟ . قال: لا»**.

فنجاح الأمم في أداء رسالتها، يعود إلى جملة ما يقدمه بنوها من أعمال صادقة، فإنْ كانت ثروتها من صدق العمل كبيرة، سبقت سبقاً بعيداً، وإلا سقطت في عرض الطريق، فإن التهريج والخبط، والادعاء والهزل لا يغنى عن أحد فتيلاً»(٢) .

* وأختم بهذا الأثر عن نافع مولى ابن عمر أنه قال: «طاف ابن عمر سبعاً وصلى ركعتين، فقال له رجل من قريش : ما أسرع ما طفت وصليت يا أبا عبد الرحمن ابن عمر : أنتم أكثر منا طوافا وصياما. .، ونحن خير منكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وإنجاز الوعد(٣).

أقوال حكيمة في الصدق

وردت عن الحكماء قديما وحديثا أقوال تنوه بشأن الصدق وترفع من قدره. من ذلك :

(١) سورة التوبة ١١٩.

(٢) الغزالي: خلق المسلم، ص١٤.

(٣) ابن مفلح الأداب والشرعية (١/ ٤٠).

١- قال عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه : لأن يضَعنَى الصدق - وقلما يفعل-أحب إلى من أن يرفعني الكذب - وقلما يفعل .

٢- وقال على بن أبى طالب رضي اللّه عنه : قد يبلغ الرجل الصادق بصدقه مالا

يبلغه الكاذب باحتياله.

٣- وقال الشجى : عليك بالصدق حيث ترى أنه يضرك، فإنه ينفعك . واجتنب الكذب حيث ترى أنه ينفعك فإنه يضرك .

٤- قيل للقمان الحكيم : ما بلغ بك ما ترى؟ قال : صدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك مالا يعنيني .

٥- وقال الخليفة عبد الملك بن مروان لمؤدب أولاده : علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن .

مجالات الصدق

للصدق مجالات كثيرة واسعة، فالصدق كما يكون في الأقوال كذلك يكون في الأعمال التي تعد مظهرا من مظاهر الإرادة الجازمة، فإذا كانت الإرادة صادقة فالعمل التابع لها يوصف بوصفها.

وقد ذكر العلماء مجالات الصدق، فقصرها الغزالي - رحمه الله - على الجانب السلوكي من مجالات الصدق فقال : لفظ الصدق يستعمل في ستة معان : صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها. ثم فصلها عقب ذلك[١]. وقصرها الرازيُ على مجال القول والفعل والنية.

أما الإمام ابن القيم فقد قسمها إلى ثلاثة أقسام فقال : هي الصدق في

(١) إحياء علوم الدين، (٤/ ٢٧٤-٣٨٠).

الأقوال، وفي الأعمال، وفي الأحوال .

فالصدق في الأقوال : استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على سَاقها. والصدق في الأعمال : استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس على الجسد. والصدق في الأقوال : استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص واستفراغ الوسع وبذل الطاقة.

والصدق في القول أعلاه كلمة التوحيد .

الصدق والصراحة

الصراحة هي صورة قوية من صور الصدق لا تعلق به شائبة الكذب، ويفهم بعض الناس من الصراحة أنها الإفضاء إلى محدثك بكل ما تعلم من غير تأثم ولا تحرج في جميع الأحوال، على الرغم مما قد يكون في ذلك من إيذاء - غير ضروري - لشعوره، أو إيقاعه في هوة القنوط، أو دفعه إلى عمل ضار، أو إلحاق ضرر بنفسك أو بغيرك . فهناك أحوال ينبغي أن يكون للصراحة فيها اليد العليا-وأحوال يجمل فيها أن تتقنع قليلاً- كما سيأتي في مبحث الكذب المباح - من أجل ذلك كان من الصدق الممقوت: الغيبة، والنميمة، والسعاية. ولذلك جعل رسول اللّه ﷺ الصدق في هذه المواضع (وهو ذكر الآخرين. مما يكرهون ولو كان صدقاً) غيبة مذمومة شرعاً ذمّاً شديداً. كما في قوله تعالى : ﴿وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[1] .

فعن أبي هريرة رضى اللّه عنه قال: «إنَّ النبي ﷺ قال: **«هل تدرون ما الغيبة؟ قالوا : اللّه ورسوله أعلم. قال : ذكرك أخاك . بما يكره . قيل : أرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : إنْ كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهتّه»**[2] .

(١) سورة الحجرات ١٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٦/ ١٤٢-نووي). أخرجه مسلم في صحيحه (١٦/ ١٥٩-نووي).

قيل لفيلسوف : متى يذم الصدق ؟ قال : إذا كان غيبة .

* وأما النميمة: فقد حذر منها #، ونَفر منها تنفيراً عظيماً، فقال: «**لا يدخل الجنة قتات**»[1] قال الأعمش - أحد رواة الحديث -: والقتات : النمَّام . وأخبر رسول الله # أن من يفعل ذلك يكون من شرار الخلق . فعن أسماء بنت يزيد أنَّ رسول ﷺ قال: «**ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا : بلى. المشاؤُون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبراء العيب**»[2].

وذكر لحذيفة-رضي الله عنه - رجل لا يزال يرفع الحديث إلى السلطان، فقال: قال رسول اللّه ﷺ : «**لا يدخل الجنة قتات**»[3].

وكان يقول : «**ألا أنبئكم بالعضه : هي النميمة، القالة بين الناس**»[4]

* وأما السعاية فإنها من الأخلاق الذميمه التي تدل على ارتكاس في الأخلاق، لما فيها من الدلالة على اللؤم والنذالة التي لا ينفع مع أصحابه صنيعة ولايد. وهى السَّعيْ لدى السلاطين والأمراء بقصد الإيقاع بين الأحبّة والتحريش بينهم .

قال بعض الحكماء : الصدق يزين كل إنسان إلا الساعى، فإنه أخبث ما يكون إذا صدق، فما ظنك بإنسان يشينه الصدق .

وعن المستور بن شداد قال : قال رسول اللّه ﷺ : «**من أكل برجل مسلم أكْلَة، أطعمه اللّه تعالى بما أكله من نار جهنم، ومن كسى ثوباً برجل مسلم كَسَاهُ مثْلَه من نار جهنَّم، ومن قام برجل مقام كعةٍ ورياء أقامه اللّه يوم القيامة مقام ورياء**»[5].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأيمان (١/ ١٠١).

(٢) أخرجه وكيع في الزهد برقم ٤٤٣ .

(٣) أخرجه مسلم(١/ ١٠١).

(٤) اخرجه مسلم في صحيحه (١٦/ ١٥٩ - نووي).

(٥) رواه أبو داود مختصر سن أبي داود ٤٧١٣ ، أحمد ٤/ ٢٢٩.

وقالَ الفضل بن سهل في ساع سعى إليه : نحن نرى قبول السعاية شراً منها، لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة، فاتقوا الساعى فإنه إنْ كان في سعايته صادقاً، كان صِدْقهُ اثماً، إذْ لم يحَفَظ الحرمة، و لم يسْتر العورة[١].

ولذلك قيل : كفى بالسعاية ذماً أنه يقبح فيها الصدق[٢].

هذه المواطن الثلاثة مما تقبح فيها الصراحة والله أعلم .

آفة الصدق

بعد أن تحدثت عن الصراحة والصدق، يحسن الحديث عما يلحق الصادق بسبب صدقه في غير المواطن الثلاثة السابقة . فمن المعلوم أن لكل فضيلة من الفضائل آفة من الآفات توعر طريقها، وتبعد منالها إلا على أيدي الصابرين المخلصين، فكذلك للصدق آفة من مصادقة الكاذبين للصادقين . فكثير من الناس يبغض الصادق، لأنه يصادمه في ميوله وأهوائه، ويحب الكاذب لأنه لا يزال يزين له أمره وما يهواه . وعليه فلا يخلو الصادق من شرور يتعرض لها بسبب صدقه، فحياته - والحالة هذه - معرضة للمتاعب، لأن الناس يهوون المجاملة والمداهنة، وما المداهنة إلا مظهر لطيف للكذب والرياء. فالصدق في الناس كاسد السوق، لأن الكذب عند الكثيرين أقصر الطرق إلى الغايات والمرامى! .

ومهما يكن من آفات الصدق فهي آفات عارضة، وفضائل الصدق أوفر وأبقى، وأما التذرع بالكذب للتملص من شر ما فليس من المبدأ الأخلاقي في شيء، ومع ذلك فإنه إن أنجى من شر مرة، لكنه يوقع في شر أدهى وأعظم كما قيل :

تزود من الدنيا فإنك شاخص   إلى المشتهى واجعل منيتك الصدقا

---

(١) منهاج اليقين شرح كتاب أدب الدنيا والدين ص٢٤٤، واليازجي الاضداد الخلقية ص ٧٣. المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

فكل الفضائل زاد للآخرة، أما الصدق فهو الراحلة، والزاد قد يقل ويكثر، أو يسوء ويحسن، وأما المطية فلا غنى عن أن تكون في أحسن وإلا قصرت بالمسلم دون الغاية [١].

مصدر الصدق ومبعثه

١- المعرفة

أصل الصدق ومبعثه المعرفة، لأنك لا تصدق إلا من تعلم أنه يراك ويسمعك، وهو قادر على عقوبتك، وعلمك أنه لا ينجيك منه إلا الصدق له. فالمعرفة أصل الصدق، والصدق أصل لسائر أعمال البر، وعلى قدر قوة الصدق يزداد العبد في أعمال البر.

والذي قطع الخلق عن مطالبة الصدق، قلة معرفتهم بقدر الصدق ومنافعه وما يورثه، وضعف إيمانهم ويقينهم. فإذا ضعف اليقين وهن الصدق وقلت الرغبة، فلم يحتمل مؤن الصدق لما غاب عن صاحبه عذوبته، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾. فضمن لهم الخير سبحانه إذا صدقوا، ومن الخير: ما يحصل للصادقين من الطمأنينة والراحة، وطهارة القلب من كل دنس، وصفائه من الأكدار[٢].

٢ - الديانة

فالصدق عنوان الإسلام، وميزان الايمان، وأس الدين، وهو صريح الإخلاص فالمخلص قد استوى ظاهره وباطنه والصادق كذلك. قال سبحانه: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

فالدين هو الذي يبعث على الصدق وينميه ولا يجعله نفعيا. قال الحسن

---

(١) انظر مكارم الأخلاق، كمال يازجي، ص ١٤٧-١٥١.

(٢) انظر، ابن القيم تهذيب مدارج السالكين، ص ٢٥٥.

البصري: «لا تستقيم أمانة رجل حتى يستقيم لسانه، ولا يستقيم لسانه حتى يستقيم قلبه»[1].

والمروءة دالة على كرم الأعراق، باعثة على مكارم الأخلاق، وأعلاها الصدق، قال الشاعر:

كمال المروءة صدق الحديث وستر القبيح عن الشّامتينا

قيل للأحنف بن قيس : ما المروءةُ؟ قال: صدق اللسَان، ومواساة الإخوان[2]. وقال : ا ثنان لا يجتمعان أبدا، الكذب، والمروءة [2].

ولا ينقاد للمروءة إلا من سهلت عليه المشاق رغبة في الحمد، والداعي إلى استسهال المشاق: علو الهمة، وشرف النفس [3].

وأصل المروءة: «اجتناب المرء ما يشينه، واختياره ما يزينه» [4].

٤- العقل

فالعقل يدعو إلى نبذ القبيح، وفعل الحسن، وكل عاقل يدرك حسن الصدق،وقبح القبيح، قال الأحنف : ما خان شريف، ولا كذب عاقل، ولا اغتاب مؤمن[5].

٥- الفطرة السليمة

فالنفس مفطورة على حب الصدق، وبغض الكذب، فالإنسان يميل بفطرته إلى قول الحقيقة وتقريرها، ولا يعدل عن ذلك إلا لعوامل أخرى تؤثر فيه، وبخاصة في الأطفال كما يقرر ذلك علماء النفس .

---

(١) الآداب الشرعية لإبن مفلح ١/ ٤٠ .

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، (٢/ ٢٦).

(٣) ابن رسول ،عين الادب، ص ١٣٠ .

(٤) المصدر السابق، ص ٧٢

(٥) عيون الأخبار،(٢/ ٢٦).

وأخيرا فالصدق ينشأ عن العفة والشجاعة وهو من الأدلة عليهما وعدمه دليل على عدمهما [1].

رذيلة الكذب

الكذب خلاف الصدق، فهو إخبار عن المخبر به على خلاف ما هو عليه مع العلم بأنه كذلك. ويأتي الكذب بمعنى الخطأ في الكلام أو السماع كقول ذي الرمة: «بنبأة الصوت ما في سمعه كذب». أيْ ما أخطأ سمعه [2].

الكذب في الاصطلاح :

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي كثيرا، فهو : الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه مع العلم به وقصد الحقيقة. فخرج بالأول : الجهل. وبالثاني : المجاز. وهو يعم ما يعلم المخبر عدم مطابقته، وما لا يعلم. بدليل تقييد: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾، بقوله : ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، (آل عمران : ٧٨) . ويستعمل غالبا في الأقوال، وفي المعتقدات أيضا [3].

* الفرق بين الكذب والافتراء

إذا علم معنى الكذب، فالافتراء أخص منه، لأنه كل خبر لا يكون عن بصيرة بالمخبر عنه [4].

هذا ولا يشترط التعمد في الإخبار، لكنه شرط في التأثيم .

ذم الكذب والتحذير منه

أجمعت الشرائع، على النهي عن الكذب، والتنفير منه واعتباره شراً

---

(١) تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها، ص٩١.

(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة. مادة (ك. ذ. ب).

(٣) الكفوي، الكليات، ص٧٦٨ .

(٤) المصدر السابق، ص٥٥٦.

ورذيلة. فقد اشتد القران الكريم في لعن الكاذبين، وتقبيح الكذب، وجعل الكاذب أظلم الناس .

١- قال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[١] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ علَى اللَّه وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾[٢]. وقال سبحانه : ﴿انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُّبِيناً﴾[٣].

٢- بَيَّنَ القرانُ الكريمُ أن الكذب يمنع صاحبه الهدى، ويجوز به عن القصد. قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[٤]. وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[٥] فيهدى اللّه من أخلص له قوله وفعله، وتحرى الحق لا من عدل عن الرشد فطمس الحق .

٣- بالغ القران الكريم في بيان عقاب بعض الكذبة، فجعل كلامهم مظنة الكذب دائماً وأهدر شهادتهم، وفسَّقهم . قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٦].

أما السنة فقد جاء الوعيد الشديد على الكذب موافقاً لما جاء في القران وزاد عليه . وسيأتي بعض ذلك عند الكلام عن صور الكذب لئلا يحصل تكرار في الكلام .

---

(١) سورة الأنعام ٢١.

(٢) سورة الزمر ٣٢.

(٣) سورة النساد ٥٠.

(٤) سورة الزمر ٣.

(٥) سورة المؤمن ٢٨.

(٦) سورة النور ٤.

أقسام الكذب وصوره

ينقسم الكذب بحسب صدوره عن الإنسان إلى أقسام ثلاثة :

١- الكذب الاعتقادي، «كذب القلب».

٢- الكذب القولي، «كذب اللسان».

٣- الكذب العملي، «كذب الجوارح».

أما صوره فهي كثيرة يمكن إرجاع معظم صوره إلى الرذائل الآتية :

١- المبالغة في النَّقْل، وزخرفة القول، . مما يُلقى في روع السامع خلاف الحقيقة. قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[١]. وفسر ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢]. أي لا تخلطوا الصدق بالكذب . وقال عباس بن عبد الله الفِهْري: «إنَّ الرجل ليطغى في كلامه، كما يطغى في ماله»[٣].

٢- الاقتصار على بعض الحقيقة. وما أشبه هذا الصِنْف من الكذابين . ممن يستشهدون من القران ببتر بعض الآيات بحيث يُفسد البترُ معناها. كأن يقولوا قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ أو قوله: ﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ﴾ . أو ﴿إن اللّه فقير﴾ تعالى اللّه وتقدس عن قولهم . فحذف كلمة واحدة من الخبر، أو إضافة كلمة إليه يكفي لفقدان الخبر أهميته، بل قد يقلبه إلى عكس معناه .

٣- النفاق، وهو أنْ يظهر المرء خلاف ما يبطن: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾[٤] وقال ﷺ: «تجدون شرَّ الناس ذا

---

(١) سورة غافر ٢٨.

(٢) سورة البقرة ٤٢ .

(٣) ابن أبي الدنيا، كتاب الصمت، ص ٢٦٣, ٢٩٩.

(٤) سورة النساء ١٤٥.

الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»[1].

وقال الحسن البصرى: «يُعدُّ من النفاق اختلاف القول والعمل، واختلاف السر والعلانية، والمدخل والمخرج، وأصل النفاق والذي يأتي عليه النفاق: الكذب»[2].

٤- المَلَق، وهو التزلف إلى الآخرين بكيل المدح لهم من غير استحقاقهم إياه، وهو ضرب من ضروب النفاق والكذب.

٥- خُلْفُ الوعد، وهو من الكذب العملي، قال سبحانه: **﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ. فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ. فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾**[3].

٦- الافتخار والادعاء، فهو منبع كثير من الشرور الأخلاقية قال سبحانه: **﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾**[4].

٧- الافتراء، وهو اختراع قصة ما لا أصل لها قال سبحانه: **﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾**[5]. ومنه قذف المحصنات.

٨- الكذب على اللّه تعالى، بتحليل الحرام، أو تحريم الحلال، وهو من أشنع صور الكذب قال سبحانه: **﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ**

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد، صحيح الجامع برقم٢١٩١٣ وانظر شرح النووي على مسلم (١٥٦١٥٧/١٦)

(٢) ابن ابي الدنيا، الصمت ،ص ٢٤٠.

(٣)سورة التوبة ٧٥-٧٧.

(٤) سورة لقمان ٨.

(٥) سورة النحل ١٠٥.

يُفْلِحُونَ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2].

٩- الكذب على رسول اللّه ﷺ، وهو كسابقه في الشناعة، فقد حذر رسول اللّه ﷺ من ذلك أشد التحذير، ونبه إلى عاقبة من يفعله فقال: «إنَّ كَذَباً عليَّ ليس ككذب على أحد، مَنْ كذب عليَّ فليتبوأ مقعده من النار»[3].

١٠- الكذب على العلماء والأئمة الذين يُقبل قولهم سواء كان في باب الفتوى أم لمجان الحلال والحرام، أم كان في باب الجرح والتعديل فمن يُقبل قوله في الرواة، فهو في قوة الكذب على رسول اللّه ﷺ، فنقل خلاف ما قالوا، أو الوضع عليهم صورة شنيعة من صور الكذب.

١١ - شهادة الزور. قال سبحانه: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[4]. وقال ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر! قلنا: بلى يا رسول الله، قال الإشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقال ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور. فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»[5].

١٢ - الكذب في اليمين، المسماة باليمين الغموس. وهي التي يحلف بها صاحبها عالماً بكذبه، وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار. قال ﷺ «الكبائر: الإشراك باللّه، وعقوق الوالدين، أو قال: اليمين الغموس...»[6].

وإذا كان فيها اقتطاع مال إمرئ مسلم فالأمر أشد، فقد قال رسول اللّه

(١) سورة النحل ١١٦.

(٢) سورة آل عمران ٧٥.

(٣) هذا الحديث متواتر له روايات كثيرة انظر: قطف الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة.

(٤) سورة الحج ٣٠.

(٥) أخرجه البخاري ومسلم برقم ص ٤٨/٨.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه(٧/٢٢٨) (٨/٣٦) من حديث عبد الله بن عمرو.

ﷺ: «من حلف على يمين صَبرْ يقتطع بها مال إمرئ مسلم لقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان».

وفي لفظ عند البخاري- : من حلف على يمين كاذبة فأنزل الله تعالى تصديق ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَخَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنْظُرِ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِم وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم﴾.

وفي رواية لمسلم من حديث أبي أمامة رضي الله عنه: «قالوا : وإن كان شيئا يسيراً؟ يا رسول الله قال : وإن كان قضيباً من أراك قالها ثلاث مرات»[(١)].

قال العلماء : ولا كفارة بالغموس، لأن الحِنْثَ يقارنها، فمنع انعقادها وتقع منحلة، وإنما المعقودة هي التي يترقب فيها البر، أو الحِنْث .

١٣- الكذب في البيع والشراء، كما هو حال كثير من التجار اليوم إلا من رحم الله. فقد قال ﷺ «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم . . . ورجلٌ حلف على يمين كاذبة بعد العصر، أنه أعطي بسلعته أكثر مما أعطي وهو كاذب»[(٢)] .

١٤ - الكذب في الرؤيا، كأن يقول رأيت كذا وكذا في المنام وهو كاذب، فقد قال ﷺ : «من تحَلَّم كاذباً كُلِّف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين ولن يعقد بينهما». ولفظ البخاري: «من تحلم بحلم لم يَرَه»[(٣)].

١٥- الكذب على الأطفال، وهو نوع خطير من أنواع الكذب بسبب

---

(١) اخرجه البخاري في الايمان والنذر (٧/ ٢٢٨)ومسلم(١/ ١٣٣/ ١٢٣) من حديث ابن مسعود. ومسلم (١/ ١٢٢ برقم ١٣٧) رواية أبي أمامة .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد ٨/ ٨٥١. ومسلم في الإيمان (١/ ٣٠١ برقم ٨٠١) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه احمد في المسند (١/ ٦١٢/ ٦٤٢) والبخاري في التعبير (٨/ ٢٨) من حديث ابن عباس.

مخالفته لما فُطروا عليه من الصدق، فإنه يحدث لهم هزة نفسية عنيفة في مستقبل حياتهم .

١٦ - الكذب لإضحاك الناس، وهو خلق فاش في كثير من الناس . فقد قال رسول الله ﷺ «**ويل لمن يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له**»[١] .

الأسباب الباعثة على الكذب

إن الأسباب الباعثة على الكذب كثيرة جداً. وقد سبق بيان الأسباب الباعثة على الصدق وهي: المعرفة، والديانة، والمروءة، والعقل . . . الخ . وفي الكذب تكون عكس ذلك .

والبواعث على الكذب تختلف باختلاف ما يكذب فيه، فهناك الحديث، والأخبار، والشهادة . . . الخ . إلا أنها ترجع إلى الجهل، وقلة الديانة وخسة النفس . . . فمثلاً: الكذب على الله ورسوله وقد جاء التحذير الشديد منه فله أسباب منها :

١- الزندقة والإلحاد في دين الله عز وجل، كما قال الله سبحانه: ﴿**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[٢] .

وقد وضع الزنادقة جملة من الأحاديث الموضوعة التي بين العلماء زيفها وكذبها .

٢- نصرة المذاهب والأهواء وهو كثير من المتعصبة في باب الفروع أو الأصول ووسائطها وسببه التعصب المقيت الذي ذمه الله تعالى ورسوله .

٣-الترغيب والترهيب لمن يظن جواز ذلك وهو فاشٍ ني الجهلة في الوُعَّاظ

---

(١) اخرجه الامام احمد وابو داود والترمذي والحاكم عن معاوية بن حيدة، انظر الصحيح الجامع (برقم ٧٠١٣) .

(٢) سورة التوبة ٣٢ وهناك آية أخرى قريبة منها في سورة الصف ٨.

والعُبَّاد. وبين العلماء ذلك كله .

٤-الأغراض الدنيوية لجمع حطام الدنيا والتقرب إلى الملوك والأمراء والحكام .

٥-حب الرياسة والتفرد على الأقران، ليُرى لنفسه مقاماً أعلى من غيره .

٦-حب التزيد والتشبع. مما لم يُعط وهو مرض نفسي ينم عن نقص في النفس وصغر في صاحبها، فما أكثر قتلى المظاهر، الذين ينسبون لأنفسهم ما ليس فيهم ولهم . قال خالد بن صفوان: إني لأسمع الحديث فلا أحدث به حتى أثوّب له وأفلفله، وأسعتره»[1] .

ومن هذا الضرب من الناس مَنْ يسرق كتب غيره ويَدَّعيها لنفسه، أو يستبطنها في كتبه وقد قال النبي ﷺ: «المتَشَبع. بما لم يُعْط كلابس ثوبي زور»[2] .

أما عن الكذب في شهادة الزور - وغيرها فالأسباب فيها كثيرة جداً يمكن إجمالها وإرجاعها إلى عاملين رئيسين :-

١- عوامل ذاتية أو شخصية.

٢- عوامل اجتماعية .

أما العوامل الذاتية أو الشخصية فهي كثيرة جداً، وبخاصة في مسألة الكذب في الشهادة وفي الكلام أيضاً، منها :

١- نقص التربية، فمن كان ناقص التربية، فاقد الضمير، عديم الكسب لا يَتَورَّع عن الكذب، بل يكون من السهل أنْ يشترى الفرد ذمته بثمن بخس، كالشهادة بالزور، أو تزوير الحقائق لمكسب مادي كما يفعل بعض الصحفيين، أو المساحين، أو الأطباء، . . . إلخ من طبقات المجتمع . وإن داء الكذب إنما يتفشى في أفراد مجتمع فاسد ذليل مستعبد، أو فيمن كانت تربيتهم تربية ذلة

(١) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، (١/ ١٢٣).

(٢) أخرجه البخاري ومسلم، وأحمد وابو داود، صحيح الجامع الصغير برقم ٦٥٥١.

ومهانة .

٢- قد يحمل على الكذب قول الزور، تهديدا، أو من خصوم المتهم أو المجني عليه، لا سيما إذا كانوا من ذوى الجاه، والغالب أن الشهود يخشون من الشهادة ضد المجرمين المشهورين بارتكاب جرائم السطو والتعدي على النفس والمال والعرض تجنباً لبطشهم وأذاهم فيدفعهم الخوف إلى الإنكار أو الإحجام عن الإدلاء بالحقيقة.

٣- سوء الظن بالمتهم، أو قصد الإضرار به أو العداوة أو أسباب شخصية لا يمكن حصرها تدعوه إلى الانتقام منه بالكذب عليه .

٤ - صلة القرابة، أو الصداقة، قد تدعو إلى قول الزور والكذب لمصلحة قريب أو صديق بدافع نفسي لا يستطيع أكثر الناس التغلب عليه ولذا لا يقبل في الشرع شهادة الوالد لولده أو العكس لوجود التهمة .

٥- حب الفخر والكبرياء، والتظاهر مما ليس فيه .

٦- دفع المسؤولية المدنية عن النفس كسيدٍ يشهد زوراً لمصلحة خادمه أو تابعه في تهمة مسؤول عنها مدنياً أو أدبياً. كمن يشهد لتلميذه بالزور حتى لا يرمى بالتقصير في تعليمه أو دفع سوء الشهرة عن مدرسة أو معهد أو شركة.. إلخ.

٧- قد يعمد إلى الإنكار والكذب خشية الاتهام بالاشتراك فيما شهد به لئلا يسيء إليه أو إلى سمعته أو شرفه أو فيما يخدش فيهما أيضاً.

أما العوامل الاجتماعية

فمن المعلوم أن الفرد يتعامل مع مجتمعه فهو يأخذ منه ويعطى جل عناصر التقدم أو التخلف الخلقي والحضاري . . ويمكن رد العوامل الاجتماعية المسؤولة عن كذب الإنسان إلى عاملين أساسيين هما :

١- فساد التربية .

٢- ضعف القِيَمْ والمبادئ الدينية والأخلاقية لدى الأفراد .

٣- أما عن فساد التربية، فالفرد يخرج إلى المجتمع عن طريق الأسرة، في المجتمع الصغير الذي يسلم الفرد إلى المجتمع الكبير، والأسرة هي الوعاء الذي تنضج فيه الروح الاجتماعية أو تحترق . فهي التي تتولى نقل الثقافة إلى الصغير وهي التي تساعد على ارتقاء القيم والاتجاهات لديه[1].

٢ - ضعف القِيَم، إنَّ القيم والمثل، والمبادئ الدينية، والأخلاقية السائدة في المجتمع هي أهم العوامل في نمو الشخصية الإنسانية ورسم الكمالات الخلقية، فهي أساس بناء المجتمعات، وسعادة البشرية، إذا اتبعت على حقيقتها، فالدين مصدر القيم، والمثل السائدة في المجتمع، ومصدر المبادئ الأخلاقية، والدين أهم العوامل المؤثرة في حياة الأفراد وسلوكهم ونظرهم إلى كل ما حولهم . وحينما يضعف الدين أو يفقد في المجتمعات تضعف القيم أو تفقد منه القيم.

الكذب المباح

الأصل في إباحة الكذب أنه يحقق عملاً طيباً يفوت بالتزام الصراحة والصدق ولما كان الإسلام شديد الرعاية لمصالح العباد لم يكتف بالسكوت عن هذه الأحوال التي يجوز فيها الكذب، بل نصَّ عليها حتى لا يترك لنا شبهة في جوازها وحتى لا يترك مجال التأويل فسيحاً. وفيما يلي تلخيص كلام العلماء في هذا المجال :

١- إن الكلام وسيلة إلى مقصد من المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعاً فالكذب فيه حرام، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق، فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحاً، وواجب إن كان واجباً. فإذا كان حقن دم محرم يتوقف على الكذب على ظالم يتعقبه فذلك الكذب واجب، وإذا كان مقصود الحرب لا يتم أو إصلاح ذات

(١) انظر شهادة الزور. د.نبيل البرشاوي / ٢٣٠-٢٤٣.

البين، إلا بكذب فالكذب مباح .

٢- وينبغي للمرء أن يتحرز من ذلك الكذب ويتأثم فيه جهد استطاعته ؟ لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه خيف عليه أن يستطرد إلى ما يستغني عنه وإلى مالا يقتضي على حد الضرورة فيكون الكذب حراماً في الأصل إلا لضرورة(١) .

واستدل على ذلك بحديث أم كلثوم بنت عقبة حينما سمعت النبيﷺ يقول: «**ليس الكذاب بالذي يصلح بين الناس، فينمي خيراً، ويقول خيراً**»(٢) . وقال أيضا: «ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث: الرجل يقول القول يريد به الإصلاح، والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يحدث امرأته، والمرأة تحدث زوجها»(٣) .

٣- ويحمل أن يكون الكذب المباح تعريضاً لا تصريحاً، صيانة للسان عن الكذب، كقول إبراهيم عليه السلام: «إني سقيم» عندما أراد التخلف عن قومه ليحطم أصنامهم». وقول النبي ﷺعندما سأله رجل في طريق الهجرة «من أين أنتم ؟ قال : «من ماء». ولذلك قال العلماء : مهما أمكن المعاريض حرم الكذب لعدم الحاجة، ولذلك قال ابن سيرين : الكلام أوسع من أن يكذب فيه ظريف .

وقال إبراهيم النخعي : إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب مع أن المعاريض ضرب من التغرير والخداع إلا أنها دون الكذب الصراح .

قال النووي: «التعريض ضرب من التغرير والخداع، فإن دعت إليه مصلحة شرعية راجحة على خداع المخاطب، أو حاجة لا محيص عنها إلا به فلا بأس، وإلا كره، فإن توصل به إلى أخذ باطل، أو دفع حق حرم عليه».

---

(١) الآداب الشرعية (١/ ١١-١٧) .

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٦٦) وانظر صحيح الجامع ٥٢٥٥ .

(٣) أخرجه المسلم في صحيحه (١٦/ ١٥٧-١٥٨) ندي.

ولذلك تكون المعاريض في الكلام ليدفع عن نفسه، و لا تكون في البيع والشّراء واليمين، والحقوق [1].

الكذب مشكلة معقدة، وعلاجها يحتاج إلى دقة وأناة في اختيار أبرع الأساليب ومن تلك الأساليب:-

١- علاج المشاكل الأسرية، وهو خطوة ضرورية ولازمة لإعادة التوازن المعقد في الأسرة لتؤدى وظيفتها بكفاءة.

٢- التربية العائلية السليمة، فالقواعد التي يتبعها الوالدان للسلوك والمعايير التي يستخدمانها سوف تنعكس على الأطفال في سلوكهم فتعويد الطفل على الصدق، وتشجيعه عليه، وغرس حبه وتعظيمه في نفسه، وعدم معاقبته على الخطأ إذا صدق واعترف بخطئه له أثر بالغ في بناء الشخصية للطفل وكرهه للكذب إلا أنه يجب التنبه إلى أمر نبه إليه الفيلسوف رُسُّو فقال: «إذا شئت أن يكون طفلك أميناً على مواثيقه فلتكن معتدلاً في طلباتك إليه»[2]. فالتربية بالقدرة لها الأثر البالغ على الآخرين.

٣- الاهتمام بالتعليم والتربية الدينية والخلقية.

٤-توجيه وسائل الإعلام لعلاج المشكلة، فهي جزء هام من حياتنا اليومية، وتشمل الصحف والمجلات، والإذاعة، والتلفزيون، والمسرح . . إلخ، فأكثر السلوك المنحرف يتعلمه الصغار من الوسائل الإعلامية، إذ أنها تفرد جزءاً كبيراً لنشر أنباء الجريمة والمجرمين، وتوغل في إبراز التفاصيل الدقيقة مما يظهر هؤلاء بأنهم أبطال أو عباقرة في كيفية تخلصهم من جرائمهم بالكذب والاحتيال فتسهم في تعميق المشكلة لا في حلها ومعالجتها[3].

---

(١) انظر الآداب الشرعية، لإبن مفلح (١/ ١٤/ ١٤-١٧).

(٢) انظر فلسفة الكذب ص ١٠٣.

(٣) انظر شهادة الزور (٢٤٣-٢٥٨).

المبحث الثاني
الإخلاص والرياء(*)

الإخلاص من أعظم الأخلاق التي يتخلق بها المسلم في الحياة لتتحقق له السعادة

في الدارين، فما هو الإخلاص، وما فضله، ومظاهره وآثاره .

الإخلاص لغة:

تدور معاني "الإخلاص " على تنقية الشيء من الشوائب، وتصفيته مما يخالطه ويشاركه .

قال ابن فارس: «الخاء واللام والصاد" أصل واحد مطَّرد، وهو تنقية الشيء وتهذيبه[1]. وهذا المعنى هو الذي جاء في القران الكريم .

الإخلاص اصطلاحا:

اختلفت عبارات العلماء في تعريف الإخلاص، وبيان معناه، وهذا الاختلاف راجع إلى تنويع العبارة وهى في معظمها تدور على أن الإخلاص : إفراد اللّه تعالى بالقصد في العبادة، وتنقية الأقوال والأعمال عن الأغراض والمصالح المؤقتة والتوجه بها جميعاً إلى اللّه عز وجل مع الصدق في النية.

(*) عبد الرزاق أبو البصل.

(١) معجم مقاييس اللغة (١/ ٣٥٩-٣٦٠).

فالخالص من العمل هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى ورضوانه[1].

فضل الإخلاص وأهميته

جاءت النصوص المتضافرة في الكتاب والسنة لتبين فضل الإخلاص وأهميته والحض عليه، ووردت عن علماء الأمة من السَّلَف والخَلَف نصوص قيمة تبين أهميته وضرورته في حياة الإنسان لتحقيق السعادة له وللأمم والمجتمعات من ذلك :

١ - أن الإخلاص شرط لقبول الأعمال عند اللّه تعالى . قال سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا﴾[2].

وقال رسول اللّه ﷺ : **قال اللّه تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه»**[3]. ولذلك قيل: «إذا لم تخلص فلا تتعب»[4].

٢- أن الإخلاص مراد الله من الخلق، فالدين الخالص له، قال تعالى : ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[5]. وأمر نبيه به فقال: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ﴾[6]. قال السوسى: مراد اللّه من عمل الخلائق الإخلاص فقط[7].

---

(١) انظر احياء علوم الدين، (٤/ ٣٦٩) سورة الكهف ١١٠.

(٢) سورة الكهف ١١٠.

(٣) أخرجه مسلم، و البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣٢٩) واللفظ له.

(٤) بدائع الفوائد ٣/ ٢٣٥.

(٥) سورة الزمر ٣.

(٦) سور الزمر ١١.

(٧) احياء علوم الدين(٤/ ٣٦٧).

وقال الجيلاني: «إنما مراده منك قلب صاف من الأغيار»[1]. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَـكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾[2].

٣- أن الإخلاص والنية الصالحة سبب سلامة القلب وصفائه . قال أبو الخير الأقطع: «لن يصفو قلبك إلا بتصحيح النية للّه تعالى» وقال عبد اللّه بن الشخير: «صلاح العمل بصلاح القلب، وصلاح القلب بصلاح النية، ومن صفا صفى له، ومن خلط خلط عليه»[3].

ولذلك قال ابن الجوزى : «إنما يتعثر مَن لم يخلص»[4].

٤- أن الإخلاص سبب كفاية الله لعبده في الدنيا والآخرة . قال عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه: «من خلصت نيته، كفاه اللّه ما بينه وبين الناس»[5].فقد كان الإخلاص سببا لصرف السوء والفحشاء عن نجى اللّه الكريم يوسف عليه السلام قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[6]. فالمخلِص -بالكسر- من أراد اللّه بعمله؛ والمخلَص -بالفتح- من أراده الله لإخلاصه وثباته عليه و لا يغيَبنَّ عن البال حديث الثلاثة أصحاب الغار كيف نجوا بخالص أعمالهم .

٥- أنه سبب العطاء وفتح أبواب الخير والبر. قال سبحانه: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[7]. قال الجيلاني: إن اللّه يعطيك على قدر همتك وصدقك وإخلاصك[8]. . وقال الجنيد: «إن لله عباداً عقلوا،

---

(١) الفتح الرباني: ٢٩٢.

(٢) سورة الحج ٣٧.

(٣) انظر طبقات الصوفية ترجمته صيد الخاطر ص ٣٥٥.

(٤) صيد الخاطر ص ٣٥٥.

(٥) الإحياء (٢/٢٦٦).

(٦) سورة يوسف ٢٤

(٧) سورة الروم ٣٩.

(٨) الفتح الرباني ص١٣١.

فلما عقلوا عملوا، فلما عملوا أخلصوا، فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع»[١].

٥- أنه سبب سلامة العاقبة والمال . والعاقبة مهمة جداً في حياة الإنسان، فالأعمال بالخواتيم وكثير من الناس تنتكس عواقبهم لفساد نياتهم كما قال ﷺ: «**وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب**»[٢]. ولذلك قال علي بن سهل الأصبهاني: «من لم يصحح مبادئ إرادته لا يسلم في منتهى عواقبه»[٣]. جعل الله عاقبتنا إلى خير.

فالإخلاص هو الذي يرفع شأن الأعمال حتى تكون مراقب للفلاح، وهو الذي يحمل الإنسان على مواصلة عمل الخير، ويجعل في عزمه متانة، ويربط على قلبه فيمضى في عمله إلى الغاية، فالعقبات لا يذللها إلا الإخلاص، ولولا الإخلاص يضعه الله في نفوس زاكيات، لحرم الناس من خيرات كثيرة تقف دونها عقبات .

والإخلاص يرفع صاحبه إلى أقصى درجات الفضل والمجد، فيكون مبدأ راسخاً في النفس تصدر عنه الأعمال بانتظام، وهو الذي يجد صاحبه حلاوة فيسهل عليه أن يكون أحد السبعة المشار إليهم بقوله ﷺ: «. . . ، **ورجلٌ تصدَّق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينُه**»[٤].

وهو : يشرح صدر صاحبه للإنفاق في وجوه الخير والبر كلها، ويعلم صاحبه الزهد في عرض الدنيا فلا يخشى منه أن يناوئ الحق أو يلبسه بشيء من الباطل، ولو أمطر عليه أشياع الباطل فضة وذهباً. ويحمل القاضي على تحقيق النظر في القضايا بعدل وحق .

---

(١) انظر طبقات الصوفية، ترجمة.

(٢) اخرجه مسلم في صحيحه في كتاب القدر (١٦/ ٩٠ نووي)

(٣) طبقات صوفية ص ٢٣٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويوحى إلى الأستاذ أن لا يبخل على طلابه . مما تسعه أفهامهم من المباحث المفيدة. ويصون التاجر عن الخيانة والاحتكار.

ويحمل الصانع على الإتقان حسب الطاقة. ويردع قلم الكاتب عن قلب الحقائق وتغييرها إرضاء لشخص، أو طائفة، أو نظام أو مؤسسة. فالإخلاص اكسير الحياة العظيم، وسر من أسرار الأعمال والحياة، وهبة اللّه لعباده المؤمنين ليرفعهم به إلى أعلى عليين .

وإذا كان للإخلاص هذه المآثر العظيمة فحقيق بنا أن نربي الناشئين على أن يكونوا مخلصين في كل ما يقولون أو يفعلون، ونلقنهم ماذا يناله المخلص من حمد وكرامة وحسن عاقبة[1].

مظاهر الإخلاص وعلاماته

للإخلاص مظاهر وعلامات تظهر على المخلصين مهما أخفوا أعمالهم، فإنه يفوح عبير إخلاصهم، قال ابن الجوزى: «فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه، فاللّه اللّه في السرائر، فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر»[2]. فمن مظاهر الإخلاص :

١- ارتفاع رؤية العبد لعمله، وعدم محبته إطلاع الخلق على ما بينه وبين اللّه تعالى، فمن أحب ذلك فهو غافل .

٢- ألا يقصد التفات القلوب إليه بسبب عمله الصالح قال ابن الجوزي: «إن اللّه تعالى إذا رضى عمل عبد ورآه خالصاً لفت القلوب إليه، وإن لم يره خالصاً أعرض بها عنه، ومتى نظر العامل إلى التفات القلوب إليه فقد زاحم الشرك نيته، لأنه ينبغي ن يقنع بنظر من يعمل له، ومن ضرورة الإخلاص ألا يقصد التفات القلوب إليه فذاك يحصل لا بقصده بل بكراهته»[3].

(٢) محمد الخضر حسين، رسائل الإصلاح(١/ ١٠-١٢) بتصرف

(٢) ابن الجوزي، صيد الخاطر ، ص ٢١٦.

(٣) المصدر السابق ص ٣٦٩.

٣- انتفاء العجب من العمل عند عامله، فمن إخلاص العابد، خجله من عمله، وهو شدة حيائه من اللّه تعالى إذ لم ير ذلك العمل صالحاً له مع بذل مجهوده فيه. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[١]. فالمؤمن المخلص: جمع إحساناً في نظافة، وسوء ظن بنفسه، والمغرور: حسن الظن بنفسه، مع إساءته عمله[٢].

٤- إتباع السنة مع المجاهدة والاستقامة. قال الحارث المحاسبي: من صحح باطنه بالمراقبة والاخلاص، زين ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة» [٣]. وقال حاتم الأصم: "يعرف الإخلاص بالاستقامة» [٤]. ولذلك قال إبراهيم بن المولد: الفترة بعد المجاهدة من فساد الابتداء»[٥].

٥- عدم التفات الإنسان إلى مدح الخلق، ولا الطمع فيما في أيديهم. قال الكيلاني: «علامة إخلاصك، أنك لا تلتفت إلى حمد الخلق ولا إلى ذمهم، ولا تطمع فيما في أيديهم». وقيل: ثلاث من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية الأعمال، ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة»[٦]. قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾[٧].

آثار الإخلاص

إن آثار الإخلاص على العمل وعامله كثيرة عظيمة، ومن هذه الآثار:

١- قبول الأعمال عند الله سبحانه وتعالى. فمن شرط قبول العمل

---

(١) سورة المؤمنون الآية ص٦٠.

(٢) انظر، تهذيب مدارج السالكين، ص٣٢٤.

(٣) السلمي، طبقات الصوفية ص٦٠.

(٤) المصدر السابق ص٤٥.

(٥) المصدر السابق ص٤١٣.

(٦) المحاسبي، الرسالة القشيرية ص ١٠٤.

(٧) سورة الانسان الآية ٩.

الإخلاص والمتابعة، فإذا تحقق الإخلاص كان قبوله محققاً إذا لم يكن هناك مانع من وجود فساد في ركن أو شرط أو أكل حرام . . . إلخ الموانع .

٢- انتشار الذّكر الحسن للمخلصين، كما هو شأن كثير من العلماء والصلحاء الأتقياء الأخفياء، فتحظى أقوالهم وكتبهم بالقبول عند الكافة لإخلاصهم والله أعلم .

٣- راحة البال والضمير، وصلاح القلب وطهارته ونقاؤه: «إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء»[١] . وما ذلك إلا لأن من يعمل لواحد يستطيع أن يرضيه، ومن يعمل لكثيرين لا يستطيع ذلك فتتناوشه الوساوس. قال رسول الله ﷺ «**ثلاثٌ لا يَغُلّ عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**»[٢] .

٤- ومن آثاره البركة وإنماء الأعمال، كما قال التابعي الجليل الربيع بن خثيم: «كل ما لا يراد به وجه الله يضمحل»[٣] .

٥- فصاحة العلانية كما قال الكيلاني: "كن صحيحاً في السر، تكن فصيحاً في العلانية[٤] .

وأختم بكلام للإمام ابن الجوزي رحمه الله حيث يقول :« . . . إن قلوب الناس لتعرف حال الشخص وتحبه، أو تأباه وتذمه، أو تمدحه وفق ما يتحقق بينه وبين الله عز وجل، فإنه يكفيه كل هم ويدفع عنه كل شرّ»[٥] .

وقال أيضا : «إن للخلوة تأثيرات تبين في الجلوة، كم من مؤمن بالله عز وجل . يحترمه عند الخلوات فيترك ما يشتهى حذراً من عقابه، أو رجاء لثوابه،

---

(١) المحاسبي، الرسالة القشيرية ص١٠٥ .

(٢) أخرجه الترمذي برقم ٢٦٥٨ والشافعي في الرسالة ص ١٠٤ .

(٣) طبقات ابن سعد (١٨٦/٦).

(٤) الفتح الرباني ص٦٤ .

(٥) ابن الجوزي، صيد الخاطر ص ٦٠ .

أو إجلالاً له فيكون بذلك الفعل كأنه طرح عوداً هندياً على مجمر فيفوح طيبه فيستنشقه الخلق ولا يدرون أين هو . . . فترى عيون الخلق تعظم هذا الشخَص، وألسنتهم تمدحه ولا يعرفونه وعلى عكس هذا من صاحب الخلق و لم يحترم خلوته بالحق يفوح منه ريح الكراهة فتمقته القلوب، فإن الأعمال بالنية، والجزاء على مقدار الإخلاص»[١].

رذيلة الرياء

بعد أن تحدثنا عن الإخلاص، يحسن بنا الحديث عن ضده، وهو الرياء، فالرياء أعظم شوائب الإخلاص، وهو خلق دنيء يدل على ضعف النفس وخورها.

الرياء لغة:

الرياء لغة مشتق من الرؤية، قال ابن فارس : الراء والهمزة والياء أصلٌ يدل على نظرٍ وإبصار بعين أو بصيرة . فهو أن يفعل الإنسان شيئاً ليراه الناس[٢].

الرياء اصطلاحاً :

لا يختلف المعنى الإصطلاحي عن المعنى اللغوي كثيراً في هذا المقام . قال المحاسبي: «الرياء: حب المحمدة من الناس على الفعل الحسن»[٣]. وقال أيضاً: «الرياء : إراءة العبد العباد بطاعة ربه»[٤].

قبح الرياء وذمه

الرياء داء وعلة من أفتك العلل بالأعمال، فإنه إذا استكمل أطواره، وأتم

(١) المصدر السابق ص ١٧٩.

(٢) معجم مقاييس اللغة، (٢/ ٤٧٢/ ٤٧٣).

(٣) المحاسبي، الوصايا، ص ٢٦٢.

(٤) المحاسبي، الرعاية لحقوق الله تعالى ص ١٦٠.

دورته في النفس أصبح ضرباً من الوثنية، ومن هنا حمل الإسلام على الرياء حملة شعواء، لأنه فساد معقَّد، وطريقة ملتوية في التنفيس عن الشهوات المكبوتة في النفس .

ذلك أن مصائب المجتمعات من الفضلاء المنافقين ! أنكى من مصائبه التي ينزلها به معتادوا الإجرام من الصعاليك . وما اختلت الأمم ومجتمعاتها، ورجعت القهقرى إلا بضعف إخلاص الكثيرين من ذوي المواهب وريائهم . وهل تلوثت الفضيلة، وسقطت في بعض الأوساط إلا بأقذار الهوى والرياء [١] .

فالمرائى يتحبب إلى العباد بالتبغض إلى الله عز وجل، ويتزيّن لهم بالشين عند الله عز وجل، ويتقرب إليهم بالتباعد من الله عز وجل، ويطلب رضاهم بسخط الله تعالى، ويطلب ولا يتهم بالتعرض لعداوة خالقه، فيحبط عمله، ويحرم أجره في يوم حاجته وفقره .

هذا وقد وردت نصوص كثيرة تبين قبح الرياء وذمه :

١- قال سبحانه وتعال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾[٢] . فهذا وعيد للمرائين في أعمالهم .

٢- هبوط الأعمال في الآخرة، وبطلانها عند الله، والعقاب عليها .

قال سبحانه : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ . أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (هود : ٥١ -٦١).

وقال عن أعمال المرائين: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾(الفرقان : ٣٢).

٣- أن المرائين أول من تسعر بهم النار يوم القيامة . كما في حديث أبي

(١) انظر الغزالي، خلق المسلم ص، ٦٩.

(٢) سورة الماعون، : ٤-٦.

هريرة رضي الله عنه مرفوعاً إلى النبي ﷺ في الثلاثة، عالم، وشهيد وكريم، أصحاب أمثل ثلاثة أعمال بسبب ريائهم وعدم إخلاصهم في عملهم[1]. فكيف يكون حال غيرهم

٤-إن اللّه يفضحهم في الدنيا والآخرة.

قال رسول اللّه ﷺ: «من يُسَمّعْ يُسَمِّعْ اللّه به، ومن يرائي يرائى اللّه به»[2]. وجاء في الأثر أن ابن عمرو حدث عبد اللّه بن عمر فقال: مَن يسمع الناس بعمله، سمع اللّه به سامع خلقه، وحقره، وصغره. قيل: فبكى ابن عمر»[3].

٥- أن الرياء سبب تشعب الهموم في الدنيا.

قال يونس بن عبد الأعلى، قال لي الشافعى رحمه اللّه: يا أبا موسى، لو جهدت كل الجهد على أن ترضي الناس كلهم فلا سبيل له، فإذا كان كذلك فأخلص عملك ونيتك للّه عز[4].

أنواع الرياء وصوره

يتنوع الرياء بحسب ما يضاف إليه إلى عدة أنواع:

فمن حيث جلائه وخفائه ينقسم إلى قسمين:

١- الرياء الجلي، وهو الذي يبعث على العمل، ويحمل عليه. وهو شرك.

٢- الرياء الخفي، وهو الذى لا يبعث على العمل. بمجرده، لكن يخفف العمل الذي أريد به وجه اللّه تعالى، وهو على مراتب عدة.

(١) أخرجه البخاري ومسلم من قائل الرياء والسمعة استحق النار برقم ١٩٠٥ (٣/ ١٥١٤).

(٢) أخرجه البخاري ومسلم من حديث جندب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه وكيع في الزهد(٢/ ٥٨٣-٥٨٤).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٣٥٥).

وعلى كل حال فلم يزل المخلصون من العباد خائفين من الرياء الخفي، فيجتهدون في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة، ويحرصون على إخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجزيهم اللّه تعالى في القيامة بإخلاصهم .

وينقسم من حيث قوته وضعفه إلى أقسام بعضها أشد من بعض على درجات .

١- فأشدها وأغلظها : أن لا يكون مراده بالعبادة الثواب أصلاً، كالذي يصلى بين الناس، ولو انفرد لم يصل .

٢- الثانية : أن يقصد الثواب مع الرياء، بحيث لو كان خالياً لم يفعله، فهو قريب من القسم الأول في كونهما ممقوتين عند اللّه تعالى .

٣- الثالثة : أن يكون قصد الرياء، وقصد الثواب متساويين، بحيث لو انفرد كل واحد منهما عن الآخر لم يبعثه على العمل، فهذا قد أفسد مثل ما أصلح، ولا يسلم من الاثم.

٤- أن يكون اطلاع الناس عليه مقوياً لنشاطه، ولو لم يطلع عليه أحد لم يترك العبادة فهذا يثاب على قصده الصحيح، ويعاقب على قصده الفاسد.

وقريب من ذلك: الرياء بأوصاف العبادة لا بأصلها، كالذي يصلى وغرضه تخفيف الركوع والسجود فإذا رآه الناس أحسن وزاد فيها فهو من الرياء المحظور، لأنه يتضمن تعظيم الخلق، لكنه دون الرياء بأصول العبادات[1].

مباعث الرياء

مبعث الرياء في النفس الإرادة، وهى على قسمين :

١- إرادة العبدِ العبادَ بطاعة اللّه عزل وجل، لا يريد وجه الله بذلك، وهذا أشده وأعظمه، لأنه يقلب الطاعة شِركاً.

(١) أنظر مختصر منهاج القاصدين: ٢٧١-٢٨٣.

٢- إرادة العبدِ العبادَ بطاعة اللّه عزل وجل، وإرادة ثواب اللّه عزل وجل، يجتمعان في القلب، فالإراداتان : إرادة المخلوقين، وإرادة ثواب اللّه، أدنى درجة من السابقة، لأنه شِرك بالإرادة في العمل . أما الأول فهو بالقصد والعمل.

والذي يهيج هذه الارادة بنوعيها «ثلاثة أمور في النفس» :

١- حب المحمدة .

٢- خوف المذمة والضّعة في الدنيا.

٣- الطمع فيما في أيدى الناس .

فيجد العبد من نفسه أن يحب أن يعلم الناس بطاعته لربه عز وجل فيوصل ويُكرم ويُعر، ويحب أن يحُمد عليه ويُعَظَّم، ويكره أن يُذَم فيفعل الطاعة لئلا يُذم بقلة الرغبة فيها. وفي الحديث عن أبي موسى الأشعرى رضي اللّه عنه : أن أعرابياً أتى إلى النبي # فقال : يا رسول اللّه ! الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله؟ فقال رسول اللّه ﷺ **«من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا فهو في سبيل اللّه»**[1] .

وفي رواية أخرى للحديث: «يقاتل حمية" أي يحمى فيأنف أنْ يقهر، أو يذم بأنه غلب، أو غلب قومه، فيقاتل لذلك .

وقوله : «ليرُى مكانه». وهذا طلب الحمد بالقلب، ومعرفة القدْر. وقوله: «يقاتل للذكر». وهذا طلب الحمد بالألسن . وعلى هذا يقاس باقي الأعمال التي يعملها العبد من طاعة اللّه عز وجل .

وأصل هذه الثلاث خلال التي تشعبت منه هو معرفة النفس بلذة ما تنال من الحمد والبر، وما يدخل عليها من ضرر الذم وغمه، فلما عظمت بذلك انبعث العبد على اعتقاده هذه الخلال الثلاث .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (١٥١٢-١٥١٣) برقم (١٩٠٤).

وعليه : «فكل من داخله في عمله إعجاب، أو رياء، أو حب محمدة، أو كراهية مذمة في إسقاط المنزلة فليس بمخلص في عمله»(١).

علامات الرياء

للرياء علامات مهما أخفاها الإنسان عن الآخرين وأظهر نفسه بمظهر المخلصين، فإن ما انطوى عليه باطنه لا محالة سيظهر وقتاً ما. كما قال الله تعالى لنبيه ﷺ عن المنافقين: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾(٢).

هذا وقد ذكر بعض العلماء علامات يعرف بها المرائي من غيره منها :

١- ما روى عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «للمرائى ثلاث علامات : يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان مع الناس، ويزيد في العمل إذا أثنى عليه، وينقص إذا ذم».

٢- وصف اللّه المنافقين وهم ضرب من المرائين بقوله سبحانه : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(٣).

٣- وقريباً من قول الإمام على رضى اللّه عنه قول المحاسبي لما سئل عن علامة المرائى؟ فقال : ثلاث خصال : أن ينشط في الملأ، ويكسف في الخلاء، ويحب أن يحمد على جميع أموره " .

وقد وصف الله اليهود بهذه الصفة فقال: ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٤).

---

(١) انظر :الوصايا للمحاسبي، ص٢٦٠.

(٢) سورة محمد، ٣٠.

(٣) سورة النساء ١٤٢.

(٤) سورة آل عمران (١٨٨) وانظر تفسير البغوي (٢/ ١٤٩-١٥٠).

علاج الرياء

من المعلوم أنه لا يطلب الدواء إلا من أحسَّ بالداء وعلمه، فالطريق إلى السلامة منه معرفته، قال يونس بن عبيد : «لا يزال العبد بخير ما علم الذي يفسد عليه عمله[1]. ومن هنا فأول علاج في طريق الرياء إتهام النفس، والشعور بالنقص . أما مَن استولى عليه الشيطان، وزين له عمله فشأن إصلاحه أشد كما قال تعالى : ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[2] . فما هو السبيل إلى علاج الرياء كله :

١- معرفة قبح الرياء وسوء عاقبته . ولذلك قيل : لا يعرف الإخلاص إلا المراؤون، كانوا فيه ثم تخلصوا منه .

٢- الحرص على كتمان العمل. كما قيل : اكتم حسناتك أشد مما تكتم سيئاتك[3] .

٤- طلب الوحدة عن الناس لمن تفقه-حتى لا يتلاعب به الشيطان - قال ذو النون: «لم أرَ شيئاً أبعث لطلب الإخلاص من الوحدة؟ لأنه إذا خلا لم ير غير اللّه - يعني يراقبه- وإذا لم ير غير الله،إلا يحركه حكم الدين، ومن أحب الخلوة فقد تعلق بعمود الإخلاص، واستمسك بركن كبير من أركان الصدق[4] .

٥- العمل في السر مثلما عمل في العلانية فإنه يقطع الطريق على النفس والشيطان في الرياء. كما قال عقبة بن عبد الغافر : إذا عمل العبد عملاً في السر، عمل حسناً، ثم عمل في العلانية مثله قال اللّه تعالى: «هذا عبدي حقاً»[5] .

---

(١) شعب الإيمان (٥/٣٤٩).

(٢) سورة فاطر ٨.

(٣) شعب الإيمان (٥/٣٥١) .

(٤) المصدر السابق (٥/٣٥٣).

(٥) المصدر نفسه (٥/٣٦١).

ولذلك قال بلال بن سعد : "لا تكن لله ولياً في العلانية، وعدواً في السر» [1].

وقال الثوري عن زيد: «إذا كانت سريرة الرجل أفضل من علانيته، فذلك الفضلُ، وإذا كانت سريرة الرجل وعلانيته سواء، فذلك النَّصَفُ . وإذا كانت علانيته أفضلَ من سريرته فذلك الجَوْرُ» [2].

ولذلك مدح الله المخلصين لعبادتهم إياه على كل الأحوال فقال: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِراً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [3].

ومع ذلك فلا ينبغي للإنسان أن يترك العمل خوف الرياء، فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه. إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص ومهما ترك العمل فقد صنع العمل والإخلاص جميعا [4].

قال الفضيل بن عياض: «ترك العمل بسبب الخلق رياء، وفعله لأجل الخلق شرك».

---

(١) شعب الإيمان (٥/ ٣٦٠).

(٢) المصدر السابق (٥/ ٣٦٧).

(٣) سورة البقرة الاية: ٢٧٤.

(٤) انظر: إحياء علوم الدين (٤/ ٣٧٤).

المبحث الثالث

الوفاء بالعهد والوعود والإخلاف بهما(*)

مبنى الشريعة الإسلامية كلها قائم على الوفاء بالعهد والوعد إذ إن العقيدة والشريعة كلتيهما نشأتا عن التزام بالعهد الذي أخذه اللّه تعالى على بني آدم، وهم في صلب أبيهم آدم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا﴾(1).

فقد أقام اللّه تعالى عليهم الحُجَّة وألزمهم المحجَّة ثم إنه تعالى أنزل الكتب السماوية وأرسل الرسُل ليذكروا بني آدم بالعهد ويطالبوهم أن يلتزموا بالعهد، والوعد على حَدٍّ سواء.

تعريف العهد والوعد:

قبل أن نشرع في موضوع الوفاء بالعهد والوعد نبينٌ ما جاء في معنييهما :

جاء في المعجم الوسيط: عَهِدَ فلانٌ إلى فلان عَهْداً: ألقى إليه العَهْد وأوصاه بحِفْظة ويقال: عهد إليه بالأمر، وفيه: أوصاه به، ويقال: الأمر كما عهد أي: كما عرفت. ومن معاني العهد العلم يقال: هو قريب العهد بكذا، أى: قريب العلم .

وفي التنزيل: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ أي وصاياه وتكاليفه. والعهد: الميثاق

(*) د. محمد الشلبي

(1) سورة الأعراف١٧٢.

الذي يكتب للولاة. واليمين التي يستوثق بها - ممّن عاهدك بقوله: عليَّ عهد اللّه لأفعلنَّ كذا. وقيل: إنَّ وفى وأوْفى كلاهما لغتان في القران [١].

الوعد: يقال: وعده الأمر وبه وعْداً، وعِدَةً، ومَوْعِداً، وموعدةً أي: مَنّاه.

الوفاء: يقال: وفى الشيءَ يفيَ وَفَاءً ووفْياً: تمَّ. ووفىَ فلانٌ نَذْرَه: وفاه. وَوَفىَ بعَهْده: عمل به. وقيل وَفى في معنى أوْفى [٢].

ومن معاني العهد: الوصية كما سلف حيث يقال: عهد إليه بكذا أي أوصاه. ومن معانيه أيضا: الأمانة ومنها قوله تعالى: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالمِينَ﴾[٣].

وقد فرق أهل اللغة بين (الوَعْد)، و(الوَعيد) فقالوا: إن الوعدَ في الخير والإيعاد في الشر.

ويرى ابن عباس أن العهد والعقد يستويان في المعنى ففى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[٤]. كما يرى جماعه من العلماء أن العقد هنا يستوي مع العهد في المعنى ويرى ابن جرير الإجماع على ذلك[٥].

أما من الناحية الاصطلاحيه: فالعهد كل ما عوهد عليه الله تعالى، وكل ما بَيْن العباد من المواثيق والعهود.

الوفاء بالعهود:

الوفاء بالعهد من صفات المؤمنين الصادقين إذ إن الوفاء بالعهد والوعد هو أن يصدق المسلم .مما وعد به غيره، بحيث يأتي ذلك مطابقاً له مطابقةً تامة،

---

(١) المعجم الوسيط ٢(٦٣٣/٦,٤) وأبو بكر محمد بن العربي أحكام القرآن ٢/ ٥٢٤.

(٢) المعجم الوسيط ٢(١٠٤٧).

(٣) البقرة الآية ١٢٤.

(٤) المائدة آية ١.

(٥) العماد بن كثير تفسير ابن كثير ٢/ ٣.

وزماناً، ومكاناً، وإن لم يأت الموعود به مطابقاً لأوصافه دون زيادة أو نقصان، كان الواعد أو المعاهد كاذباً، أوْ محرّفاً للكلم عن مواضعه.

والصدق بالوعد، والعهد من الفضائل الخُلُقيَّة، والكذب فيهما من الرذائل الخلقيَّة.

ويشترك الوعد والعهد بأن كلاً منهما إخبارٌ بأمْر جزم المخبر بأن يفعله ونقض العهد والوعد رذيلةٌ خلقية أساسها عدم تأدية الحق الذي يجب بالإلتزام ما لم يكن عدم الالتزام خيراً منه .

والمسلم صادق في نيته وأقواله وأفعاله، فإذا توفر لديه الصِّدْق في النية والقول والفعل سلك سبيله بسعادة في الدنيا التي توصله إلى الآخرة، وحيث إن الناس في حياتهم محتاجون إلى بعضهم بعْضاً، ولا يمكنهم الاستغناء عن الصلات الحميدة التي تقوم عليها حياتهم وتتحقق بها مصالحهم، وأنهم من أصل ذلك يعقدون صفقات مع غيرهم، ويعطون أو يأخذون عهوداً ومواعيد لاستكمال تلك المصالح، ويضعون تصورات وخططاً بناءً على تلك الوعود، فإن إخلاف المواعيد والعهود يترتب عليه عرقلة تلك الخطط وإحباط التصورات وهذا يؤدى إلى خيبة الأمل والإضرار العام لمصالح الناس.

هذا وليعلم أن العقود والعهود في معناها الواسع تشمل الديانات، والشعائر والعبادات، والمعاملات، والمعاهدات، لذلك فإن الأمر بالوفاء بالعقود أمر بإقامة ضوابط الحياة، ما تعلق منها بالضمير، وما تعلق منها بالسلوك ما كان يبين المرء وربه، وما كان بينه، وبينْ غيره .

وقد ربط الإسلام هذه العقود كلها بالله تعالى وجعل الوفاء بها فريضة ونظراً لأن جميع التزامات المرء في الحياة - كما ذكرنا آنفاً - إنما تنظمها عقود وعهود، فقد أبرز الإسلام أهميتها وأوجب الوفاء بها، ونظراً لأهمية العهود فقد وردت كلمة (عهد) في القران الكريم ما يقارب الخمسين مرة بصيغ مختلفة ترغيباً

وترهيباً، وأما كلمة (وَعَد) ومشتقاتها فقد وردت في القران الكريم حوالي (١٥٠) مَرَّة متناولة فضيلة إنْفَاذ الوعد ورذيلة إخلافها وما يترتب على الأولى من الثواب وما يقع على فاعل الثانية من العذاب.

رأي العلماء في الوفاء بالوعد:

قال النووي: وقد أجمع العلماء على أن من وعد إنساناً شيئاً ليس بمنهي عنه فيبغي أن يفي بوعده، وهل ذلك واجبٌ أمْ مستحبٌ فيه خلاف العلماء: فذهب الشافعي، وأبو حنيفة والجمهور إلى أنه مستحبٌ، فإن تركه فاتَهُ الفضْلُ وارتكب المكروه كراهة تنزيه شديدة، ولكن لا يأثم، وذهب جماعة إلى أنه واجب قال الإمام أبو بكر العربي المالكي: أجل من ذهب هذا المذهب عمر بن عبد العزيز.

قال: وذهبت المالكية مذهباً ثالثاً: أنه إن ارتبط الوعْدُ بسبب كقوله: تزوجْ ولك كذا، أو احْلفْ أنك لا تشتمني ولك كذا، أو تزوج ولك كذا، وجب الوفاء وإن كان وعْداً مطلقاً لم يجب، واستَدلَّ من لم يوجبْه، بأنه في معنى الهبة، والهبة لا تلزم إلا بالقبض عند الجمهور. وعند المالكية تلزم قبل القبض[(١)].

أدلة الوفاء بالعهد

والوفاء بالعهد والوعد دينٌ ودَيْنٌ لا مناص من تنفيذه فقد تضافرت الآيات والأحاديث حاثة على الوفاء بهما، من ذلك :

أ- إن الله تعالى وهو يبين البر الحقيقي الذي هو الجامع لأعمال الخير ذكر من ضمن مواصفات البر، الوفاء بالعهد فقال سبحانه: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ

(١) محي الدين ابو زكريا النووي كتاب الأذكار المنتجة من كلام سيد الابرار ط ٣ ص ٤٢٨ مؤسسة المناهل العرفان بيروت.

وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[1] .

ب - وبين جل وعلا أن الوفاء بالعهد متى صدر عن تقوى كان مجلبة لمحبة الله تعالى فقال سبحانه: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[2] .

جـ- وأمر سبحانه بالوفاء بالعهد وعده التزاما أمامه سبحانه وأن نقضه كنقض اليمين فقال: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[3] .

د- وذكر سبحانه أن الوفاء بالعهد مكافأته الأجر العظيم فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾[4] .

هـ- ولقد استهل سبحانه سورة (المؤمنون) بجملة من القربات التي تكون سببا للفوز والفلاح دنيا وأخرى فقال عز شأنه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[5] .

أما الأحاديث في الوفاء بالعهد والوعد. فإنها تفيد أن الرسول ﷺ كان

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٧.

(٢) سورة آل عمران آية ٧٦.

(٣) النحل آية ٩١.

(٤) سورة الفتح آية ١٠.

(٥) المؤمنون آية ٨ كما ذكرت في آية العهد في المعارج آية ٣٢.

سَيِّد الأوفياء فهو كما دعا إلى الوفاء بالعهد والوعد طبق ذلك على أعلى وأطهر درجات التطبيق :

أ- عن عبد الله بن أبي الحمساء قال: «بايَعْتُ النَبي ﷺ ببيْع قبل أن يُبْعَثَ، وبقِيَت له بَقِيَّة فوعدته أن آتيَه بها في مكان، فنسيتُ، ثم تذكرتُ بَعْدَ ثلاث فجئْت، فإذا هُوَ في مكانه، فقال: يا فَتَى لقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ أنا هُنَا مُنْذُ ثلاث أنتظرك»(1).

ب- ولما كانت الزوجة في الإسلام لباساً، وسكنا للرجل فقد كان رسول الله ﷺ أوفى الناس لزوجاته تقديراً لهنَّ وإبرازاً لمكانتهن. فعن أنس رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا أتيَ بهديّة قال: اذْهَبوا بِها إِلَى بَيْتِ فُلانَة، فإنها كانتْ صديقَةً لخديجة إنها كانتْ تُحبُّ خديجة»(2).

جـ- وحيثُ إن النبي ﷺ لا تأخذه في الله تعالى لومَةُ لائِمٍ فلا تؤثر فيه العواطف فيحجم عن قول الحق والصَّدْع بالحقيقة فقد روت عائشة رضى الله تعالى عنها فقالت: «ما غِرْتُ من امرأة ما غِرْتُ من خَديجةَ لما كنْتُ أسْمَعُهُ يَذْكُرُها، وإنْ كان ليذبَحُ الشاةَ فَيُهْديها إلى خَلائلها، ودَخلَتْ عليه امرأة فَهَشَّ لها، وأحْسَنَ السؤال عنها فلماً خرجَتْ، قال: إنَّها كانت تأتينا أيام خديجة»(3).

وقد جاء في رواية الشفا زيادة: «وإن حُسْنَ العَهْدِ منَ الإيمان».

د- وقد بين الرسول ﷺ أن الوعد دَيْن فقال عليه صلوات الله تعالى وسلامه: «العدَة دَين»(4).

---

(1) مختصر سنن ابي داود ج ٧ ص ٢٨٤: وقد ذكره ابو بكر الجزائري في كتاب الحبيب يا محب ص ٥٥٦-٥٥ وكذلك انظر الشفا بأحوال المصطفى ١/ ١٢٦.

(2) أورده ابو بكر جابر الجزائري في كتابه (هذا الحبيب يا محب ص ٥٥٧ وعزاه إلى البخاري في الادب المقرر.

(3) القاضي عياض الشفا ١/ ١٢٧- وكتاب هذا الحبيب يا محب ص ٧٥٥ لأبي بكر جابر الجزائري.

(4) عبد الرحمن بن علي الشيباني كتاب تمييز الطيب فيما يدور على السنة الناس من الحديث ص ١٠٥.

والوفاء بالوعد كالوفاء بالعهد سَواء بِسَواء إذ إن الوفاء به صفة من صفات الله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللَّه حَقٌّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(سورة يونس٥٥). وقال سبحانه: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ المِيعَادْ﴾(سورة الزمر اية ٢٠) .

الوفاء صِفَةُ الأنبياء:

هو كذلك صفة الأنبياء الكرام عليهم صلوات اللّه تعالى وسلامه فقد جاء في وصف إبراهيمَ عليه السلام في القران الكريم: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾(سورة التوبة آية ١١٤).

وفي إبراهيم ووفائه أيضاً يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً﴾(سورة مريم ٤١).

وفي ولده إسماعيل عليه السلام يقول تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً﴾(سورة مريم آية ٥٤).

إخلاف الواعد صفات الأشرار والشيطان:

وأما إخلاف الوعد فهو إخلاف العهد ولا يكون إلا من صفات الأشرار فهو أولاً: من صفات الشيطان قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾(سورة إبراهيم اية ٢٢) .

وهو من وساوس الشيطان وتخييلاته قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(سورة البقرة الآية ٦٨).

ولأهمية الوفاء بالوعد، فقد وردت كلمة وَعَدَ ومشتقاتها في القرآن الكريم ما يقرب من مائة وخمسين مَرَّة .

رذيلة نقض العهود والوعود

بعد أن رأينا علو المكانة التي ينالها الموفون بعهودهم وما يختصهم اللّه تعالى به من المكارم، والبركات تتحدث الان عن نقض العهود والوعود، ومضار عدم الوفاء بهما .

لا ريب أن عدم الوفاء بالعهود رذيلة من أقبح الرذائل وذلك لمنافاته للأمانة، والصدق، ولما ينجم عنه من اختلال في ميادين الحياة كلها.

يقول الأستاذ سيد قطب في (ظلال القرآن): إن الإسلام يشنع على الذين ينقضون العهود، ويسلبهم صفة الإنسانية التي أعلى اللّه شأنها وكرمها، ويسقط عليهم صفة البهيمية التي لا ترعى ذمة ولا تحفظ عهدا، وفي هذا يقول الحق عز وجل: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدْتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ . فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[(١)] .

والمعروف أن الدواب - غالبا - تكون شريرة وهى لا ريب على درجات من التفاوت، فقد يتفاقم شرها حتى يصل إلى درجة لا تطاق ولا يمكن احتمالها، وعندئذ على الإنسان أن يسعى قصارى جهده ليتفادى شرها، وقد عد اللّه تعالى شر الدواب طُرًّا الكفار الذين لا يؤمنون،

فهم لا يرعون لعهودهم، ومواثيقهم أدنى حرمة، فهم كلما عاهدوا الرسول ﷺ عهدا نبذوه وهم يكررون ذلك الفعل النذل في كل مرة، فمثل هؤلاء ليسوا جديرين بأدنى احترام بل الأليق بهم التأديب، والقتل، والتشريد كلما ظفر بهم[(٢)] .

---

(١) الأنفال آية ٥٥-٥٧.

(٢) سيد قطب «في ظلال القرآن الكريم».

ذم الإخلاف بالوعد والعهد:

وكما جاءت الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة تشيد بفضائل الوفاء بالعهد، والوعد، جاءت آيات وأحاديث تحذر من عدم الوفاء بها وتذم فاعل ذلك، وتذكر ألوانا من مخازي الدنيا، وعذاب الآخرة التي يمنى بما مخلف العهد والوعد فمن ذلك:-

١- عدم الوفاء بالعهود والوعود صفة الكفار كما أسلفنا بوجه عام وهو صفة يهود بوجه خاص وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[١].

٢- بين الله تعالى أن من يخلف العهود، ولا يلتزم بالمواثيق هو إنسان أعمى البصيرة غير مهتد إلى سبيل الرشاد فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ . الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾[٢].

٣- النفاق أخو الكفر والمنافقون في الدرك الأسفل من النار، وإخلاف العهد يولد في القلب النفاق الذي يصاحب الإنسان إلى أن يلقى ربه عز وجل وفي هذا يقول الحق عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾[٣].

أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم عن أمامة الباهلى قال: جاء ثعلبة ابن حاطب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٠.

(٢) سورة الحج ١٩/ ٢٠.

(٣) سورة التوبة ٥٥, ٧٧.

قال: يا ثعلبة! قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه. قال: يا رسول اللّه ادع اللّه أن يرزقني مالا. قال: ويحك يا ثعلبة أما تحب أن تكون مثلي، فلو شئت لسيّر ربي هذه الجبال معي ذهبا. قال: يا رسول الله ادع اللّه أن يرزقني مالا. والذي بعثك بالحق إن آتاني اللّه مالا، لأعطين كل ذي حق حقه. قال: ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه. قال: يا رسول اللّه ادع اللّه تعالى.

فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارزقه مالاً قال: فاتخذ مالاً غَنَماً فَنَمَتْ كما ينمو الدود حتى ضَاقت بها المدينة فتنحى بها، فكان يشهد الصلاة مع رسول اللّه ﷺ بالنهار، ويشهدها بالليل، ثم نمت كما ينمو الدود فتنحى بها فكل ذلك لم يشهد الصلاة بالليل ولا بالنهار إلا من جمعة إلى جمعة مع رسول اللّه ﷺ يتلقى الركبان يسألُهُم عن الأخبار، ثم آل الأمْرُ به أن امتنع عن أداء الزكاة. وقال عنها: ما هذه إلا جزية، فأنزل اللّه هذه الآيات. ثم إن الرسول ﷺ أبى أن يأخذ منه الصدقة ولم يقبلها منه أبو بكر، كما لم يقبلها منه عمر رض اللّه عنهما ثم إن ثعلبة مات في عهد عثمان رضي اللّه عنه، ولم يقبلها عثمان منه (١).

٤- والقتال من المكاره التي لا تتلاءم مع رغائب الإنسان، وأهوائه حيث تنتزعه من أوطانه، وأهله، وماله، وأصدقائه، وربمّا كلفته نفسه، غير أن له موجبات تفرض على المسلم أن يتغلب على رغائبه وأهوائه فيخف للجهاد وينشرح صدره له من هذه الموجبات نقض العهود، فإن ناقض العهد تجب محاربته لإرغامه على الوفاء بالعهد، وفي هذا يقول جل وعلا: ﴿وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾(٢).

---

(١) محمد بن علي المشهور بالشوكاني «فتح القدير» ص ٣٨٥/٣٨٦ وانظر محمد بن عبد الله المعروف بابن الغزالبي في كتابه «أحكام القرآن» ٢/٩٨، ٩٩، وقد جاء في حاشيته تعليق مفاده أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري، وقد كتب عذاب الحمش بحثاً اثبت فيه انه ليس ثعلبة الانصاري بدليل ان الرسول ﷺ قال: «إن الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اصنعوا ما شئتم قد غفرت فاني قد غفرت لكم».

(٢) سورة التوبة آية ١٢.

وقد جاءت أحاديث شريفة كثيرة تنفِّر أشد التنفير من عدم الوفاء بالعهد حتى ولو كان عَدَمُ الوفاء مع غير المسلمين .

فعن حذيفة بن اليمان رضي اللّه عنه قال: «ما مَنَعني أنْ أشْهَد بدْراً إلاَّ أنى خرجْتُ أنا وأبي "حُسَيْلٌ" «قال: فأخَذَنَا كفَّارُ قريشٍ قالوا: إنكم تريدون محمَّداً، فقُلْنا: ما نريدُه، ما نريدُ إلاَّ المدينَة، فأخذوا علينا عَهْد اللّه وميثاقَهُ لنَنْصرفَنَّ إلى المدينة، ولا نقاتلُ مَعَه. فأتينَا رسول اللّه ﷺ فأخبرناهُ الخَبَر فقال: انْصَرِفا، نَفِي لهم بِعَهْدِهم ونستعين الله عليهم»[١] .

فأنظر كيف إنه ﷺ رَد حُذيفة وأباه إلى المشركين ورفض أن يَنْضَمَّا إليه وفاءً لعهدهما مع المشركين .

وعَن عمرو بن الحمو قال: سمعت رَسُول الله ﷺ يقول: أيمَّا رَجُلٍ أمَّن رجُلاً على دَمه، ثُمَّ قَتَلَهُ، فأنا منَ القاتلِ بريء، وإنْ كانَ المقتولُ كافراً»[٢] . وعنه ﷺ أنه قال: «لِكُلِّ غادرٍ لِواءٌ يَوْمَ القيامةِ يُعْرَف بِهِ بقَدْر غدْرته»[٣] .

الإخلاف بالعهد والوعد صفة المنافقين :

وعن أبي هُريرة رضي اللّه تعالى عنه أنَّ رسول اللّه ﷺ قال: «آية المنافقِ ثلاثٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا أؤْتُمن خَان»[٤] .

زاد في رواية لمسلم، وإنْ صَامَ وصلى وزَعَمَ أنهُ مُسْلِمٌ .

---

(١) رواه مسلم ، أنظر منهاج الصالحين من أحاديث خاتم الانبياء والمرسلين ط١، ص ٢١٥ لمؤلفة عز الدين بليق.

(٢) عز الدين بليق كتابه منهاج الصاحلين ط١، ص ٢١٥.س

(٣) متفق عليه، أنظر كذلك سنن البيهقي ٩/ ٣٣٠، وجامع الترمذي، ونيل الأوطار ١/ ٢٧.

(٤) متفق عليه، انظر رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ص ٣٦٨ للامام محي الدين يحيى النوري، وانظر كذلك السيد عبد الرحيم الطهطاوي هداية الباري إلى ترتيب أحاديث البخاري ط ٣ ج ص ٧ مطبعة الاستقامة، مصر.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: «أربعٌ مَنْ كنَّ فيه كان مُنَافقاً خَالصاً، ومَنْ كانَتْ فيه خَصْلَةٌ منهنَّ، كانَتْ فيه خَصْلَةٌ من النفاق، حَتى يَدَعَها: إذا أؤْتُمِنَ خَانَ، وإذا عَاهَد غَدَرَ، وإذا خاصَمَ فَجرَ»(١).

وقد ورد عنه ﷺ نَفْيُ الإيمان عن مخْلفي العهود لما يترتب على تصرُّفاتهم من خلل في الحياة العامة وفي هذا يقول ﷺ: «لا إيمان لِمَنْ لا أمَانَةَ لَهُ، ولا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ له»(٢).

وعن أنس مرفوعا: قال قال ﷺ: «إذاَ وَعَدَ أحَدُكُم، فَلا يُخلِفُ»(٣).

حالات يبدو من خلالها إخلاف العهد والوعد أو الوفاء بهما:

وبعد هذا العرض لإخلاف الوعد وبيان مضارِّه من خلال الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة نقول: إنَّ إخلال الوَعْد والعهد يبدو من خلال حالاتٍ أربع هي:

١- التعبير العملي عند حلول أجل العهد أو الوعْد، وفاعل ذلك جمَعَ إلى رذيلة الإخلاف، رذيلة الكذب، بتسويفه، وعدم إنجاز عهده، أو وعده عند حلول أجله.

٢- النكث والنقْض لما أبرم، والتزم به من عهدٍ، أو وعد، وهذا يعبِّر عن عدم احترامه شرف الكلمة، ويقضي على ثقة الآخرين بها. وهاتان الحالتان مذمومتان لا تليقان بمؤمن يحترم إيمانه.

٣- التحوُّل إلى ما هُوَ أفضل، وخيرٌ عند الله تعالى، والانتقال إلى ما هو

(١) متفق عليه، وانظر رياض الصالحين من المرجع السابق ص٦٨١.

(٢) عبد الرحمن بن علي الشيباني، تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على السنة الناس من الحديث، وعزاه أي احمد وابي بعلي في مسنديهما، والبيهقي في الشعب عن أنس مرفوعاً.

(٣) تمييز الطيب من الخبيث ص ١٩ وعزاه الى مسند أبي يعلي والى مستدرك الحاكم.

أكثر طاعة عند الله تعالى، ويكون غالباً في غير العهود العامَّة. ألا ترى أنَّ موسى عليه السلام وفي للرجل الصالح، بأبعد الأجلين ؟! فعمل عنده راعياً عشر سنين، ولم يعمل ثمانيا.

٤- العجز عن الوفاء لسبب من الأسباب. فمن عجز عن الوفاء مَعَ صدق رَغبته، وحرصه، فهو مَعْذورٌ لعَدم الاستطاعة، فعن زيد بن أرقم رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا وَعَدَ الرَّجُلُ أخاهُ، ومن نيَّته أن يَفِي، فلم يَفِ، ولَم يَجيءْ للميعاد، فَلا إِثْمَ عَلَيْه»[1].

أنواع العهود والوعود

الالتزام بالعهود والوعود يكون تارة مع اللّه تعالى، ويكون تارةً مع الآدمى، وتارة يكون بالقول، وتارةً بالفعل. فمن قال: «للّه عليَّ صَوْمُ يومٍ»، فقد عقده بالقول مع ربه، ومن قام إلى الصلاة، فنوى وكَبَّر، فقد عقدها لِرَبه بالفِعْل، فيلزم الأوَّل بتداءَ الصوم. ويلزم الثاني تمام الصلاة.

والعقد بالفعل أقوى منه بالقول، وقد قيل: «القَوْل عَقْدٌ، والفِعْلُ نَقْدٌ»[2].

١-العهد مع اللّه تعالى

لقد أخذ الله تعالى عُهوداً جَمَّة على ابن آدم حيث حمله الأمانة التي عجزت عن حملها السمواتُ والأرض والجبال، وارتجفت من هولها أسبوعاً وكان أول هذه العهود ذلك الميثاق الذي أخذه اللّه تعالى على بنى آدم وهم في صُلْب أبيهم آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ

(١) ابو داود مختصر السنن ابي داود ج ٧ ص ٢٤٨.

(٢) أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، أحكام القرآن ٢/ ٥٢٦.

﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ . وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1] .

قال الشوكاني في فتح القدير: «المعنى أن الله سبحانه لما خلق آدم عليه السلام مسح ظهره، فاستخرج منه ذريته، وأخذ عليهم العهد، وهؤلاء أمثال الذَّرِّ، وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه ولا المصير إلى غيره لثبوته "

وقد جاءت أحاديث في الموطأ، ومسند أحمد، والبخاري في تاريخه، والترمذي وأبي داود، كلها تدلُّ على أخذ العهد، وكذلك جاء الحديث بأخذ العهد في الصحيحين مَرْوِيًا عن أنس رضي الله عنه .

وقال الشوكاني أيضا: "إن اللّه تعالى جمع الخلق جميعاً فجعلهم أرواحاً في صورهم ثم استنطقهم فتكلَّمُوا، ثم أخذ عليهم العَهْد، والميثاق ثم أشهدهم على أنفسهم»[2] .

ومن الآيات الدالة على العهود مع اللّه تعالى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[3] .

فنعمة اللّه تعالى هي الإيمان، والإسلام، والإحسان، مضافاً إليها سائر نعمه التي لا تُحْصى وميثاقه الذي أخذه عليهم، هو أن يعبدوا اللّه ولا يشركوا به شيئاً، فكل من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول اللّه، فقد قطع للّه تعالى على نفسه عهداً وميثاقاً بأن يعبد اللّه تعالى وحده، وأن يعمل. مما جاء به محمد ﷺ من الشرائع والأحكام.

والنذر عهد مع اللّه تعالى:

وكل من نذر للّه نذراً فقد قطع على نفسه عَهْداً فليوف به، إنْ كان صياماً،

---

(١) سورة الاعراف آية ١٧٣-١٧٤

(١) محمد بن علي الشوكاني فتح القدير ٢/ ٤٦٢.

(٣) سورة المائدة آية ٧.

صَام، وإن كان قياماً، قام، وإن كان رباطاً، رابط، وإنْ كان صدقةً تَصَدَّق، وإنْ عجز كفَّر كفارة اليمين، واستغفر اللّه تعالى وتَابَ إليه[1].

قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾[2]. وقال: ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾[3]. والحلف باللّه تعالى أو بأحد أسمائه، أو صفاته يعتبر عَهْداً من أعظم العُهود، فمن حلف يميناً وجب عليه الوفاء لأنه عقد عهداً مع اللّه تعالى واجب الوفاء، ولا مندوحة عن الوفاء إلا أنْ يكون هناك مُسَوِّغ لعدم الوفاء كأن يجد الحالف أنَّ عدم إنفاذ المحلوف عليه أوجب من إنفاذه. ففي الصحيح عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني والله إنْ شَاءَ اللّه لا أحْلِفُ عَلى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، إلاَّ كَفَّرْتُ عنْ يَمِينِي، وَأَتَيْتُ الذِي هُوَ خَيْر**»[4].

وقد أمر الرسول ﷺ أمته أن يفعلوا كفعله إذا صدرتْ عنهم يمين فرأوا غيرها أفْضَلَ. فعن أبي هريرة رضي اللّه عنه أنَّ رسول اللّه ﷺ قال: «**مَنْ حلَفَ عَلى يَمِين فَرأى غيرَهَا خيْراً منها، فَلْيَكفِّرْ عن يمينه، وليَفْعَل ما هُوَ خَيْرٌ**»[5].

وقد قال تعالى: «﴿واحْفَظُوا أَيْمَانكُم﴾[6]. ومن الوفاء بالعهود إنفاذ الاتفاقات بين المسلمين وغيرهم:

والآيات بوفاء العهود والمواثيق مع اللّه تعالى كثيرة:

١- الاتفاقات بين المسلمين وبين الدول والجماعات: لقد أَمَرَ الإسلام بالوفاء بهذه العهود والمواثيق والنهوض مما يترتب عليها من الالتزامات، سواء أكان الذين أبرمت معهم هذه العقود مستأمنين، أم ذميين. أم مجوساً أم غير ذلك،

---

(١) الشيخ ابو بكر الجزائري، نداءات الرحمن لأهل الايمان ط ١ ص ٧٦ مكتبة لينة، مصر، ومشهور.

(٢) سورة الانسان٧.

(٣) سورة الحج ٢٩.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه مسلم.

(٦) سورة المائدة آية ٨٩.

حتى ولو كان الذين أبْرَمُوا هذه العقود أفراداً لأن المؤمنين يدٌ واحدة يسعى بذمتهم أدناهم. ولا يجوز نقض العهد معهم إلا إذا جاء النقض من جهتهم، أو انتهى العهد إلى أجله قال تعالى: ﴿وإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُم إِلى مُدَّتِهِم﴾ ولشدة احترام الإسلام للمعاهدات الدولية فإنه أوجب علينا إذا أحسسنا من المعاهدين سوء نيته لنقض العهد أن ننذرهم بالحرب. قال تعالى: ﴿وإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾(٢).

العهود والوعود مع الناس، حَتى وإنْ كان الوَعْدُ بأمر يراه الناسُ بسيطاً كالوعد بزيارة، أو لقاء، أو سفر لأن الإخلاف به يسبب متاعب للطّرف الآخر أدناه الانتظار، لأن الانتظار عذابٌ غير منظور، وقد مَرَّ معنا فيما سبق كيف أن الرسول ﷺ انتظر الرجل الذي واعده في مكان ثلاثة أيام ولماَّ جاءه لم تسمح له مكارم أخلاقه أنْ يزيد على قوله له: «يَا هَذا لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ أنا هُنا مُنْذُ ثَلاَثة أيامٍ «ومن المؤسف أن أمتنا الآن قليلة الاكتراث بوعودها وعهودها فهي تسقط من حسَابِها عنصر الزمن رغم أن الإنسان، والزمن والأرض، عناصر ثلاثة لا تكتمل الحياة بدونها ولا يوجد في تاريخ أمَّة تنويه بأهمية الزمن كما هو في الإسلام فقد أقسم اللّه تعالى بكل أجزاء الزمن: أقسم: بالليل. وبالنهار، وبالضحى، وبالشمس. وأقسم بالعصر في صدر سورة العصر التي قال الشافعي عنها: «لَوْ عَقَلَ النَّاسُ هَذِه السَّورةَ لَوَ سِعَتْهُم».

والوفاء بالعهود والمواثيق وتحريم الغدر والخيانة في الظاهر والخفاء من أحكام الاسلام القطعية النافذة، وليسَ مجرَّد قصَاصة ورق كما هو الحاصل في

(١) سورة التوبة آية ١٢.

(٢) سورة الأنفال آية ٥٨.

العرف الحاضر، وآيُ الذكر الحكيم أكثر من أن تحصر في هذا المجال [١] .

والمسلمون يلتزمون جانب الوفاء بالعهد حتى في حال استنصار فئة مسلمة بالجماعة الإسلامية الكبرى، قال تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ﴾[٢]. فلا تنصر تلك الفئة على المعاهدين من الكفار، مما يبين أن اللّه عز وجل جعل حقَّ الميثاق فوق حق الأخوَّة الإسلاميَّة فأوجب نصرة المعاهد غير المسلم، و لم يوجب نصرة المسلم الذي ليس بينه وبيْن المسلمين ميثاق[٣].

ولقد كان شرف الوفاء بالعهد من الدعائم الأولى التي حافظت على كيان المسلمين وهيبتهم، وأدام لهم عِزَّتهم، وهل هناك قانون في الدنيا يجعل احترام العهد نابعاً من حرمة الإيمان، وتقديس العقيدة مثل الإسلام [٤] .

وخير ما نختم به موضوعنا في الوفاء بالعهود والوعود ما جاء في كتاب آثار الحرب في الفقه الاسلامى، حيث يقول الدكتور وهبة الزحيلي: «ولقد كان شرف لوفاء بالعهود من الدعائم الأولى التي حافظت على كيان المسلمين، وهيبتهم، وأدامت لهم عزهم، وهل هناك قانون في الدنيا، يجعل احترام العَهْد نابعاً من حرمة الإيمان وتقديس العقيدة، مثل الإسلام؟!.

ولا ريب أنَّ الوعد نوع من العهود، ولا يكون إلا في الخير، والايعاد يكون في الشَّرِّ والفِعْل الماضي للوعْد "وَعَدَ« وما الفعل الماضي للإيعاد فهو "أوْعَدَ «ومن المحزن أن أكثر الناس لا يفرقون بينهما في الاستعْمال، فيضعون أوْعَدَ، غالباً مكان وعد، والعكس، وذلك إماً عن جهل باستعمالات الألفاظ، وإما عن

---

(١) الدكتور وهبة الزحيلي آثار الحرب في الفقه الاسلامي ص مطبعة دار الفكر بدمشق

(٢) أنظر الرازي ص ٣٩٠ ج ٤.

(٣) الدكتور وهبة الزحيلي المرجع السابق ص١٢٦.

(٤) د. وهبة الزحيلي نفس المرجع السابق.

عَدَم اكتراث بما يقولون مع أن هذا يعتبر عند أهل اللغة من أفحش الأخطاء وكما قال الشاعر :

وَوَضْعُ النَدَى فِي مَوضعِ السَّيْفِ بالعُلا يُضِرُّ كَوَضْعِ السَّيْفِ في مَوْضِعِ النَّدَى

ويقول أبو بكر جابر الجزائري أخذا عن الحسن البصري: المقصود بالعقود "عقود الدين «وهى تشمل كل ما عقده المرء على نفسه، من بيع، وشراء، وإجارة، وكراء، ومناكحة وطلاق، وقرا ر عنه ومصالحة، وتمليك، وتخيير، وعنق، وتدبير، فقد شملت كلمة الوفاء بالعقود سائر أنواع العقود، والعهود، فلنذكر هذا ولا ننسه[1]. بهذه النظرة الشمولية للعقود، والعهود، والوعود فهم المسلمون المقصود من الوفاء فأدوها على أكمل وجه وأتمه :

أُولئِكَ آبائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهم إِذَا جَمَّعَتْنَا يَا جَرِيرُ المَجَامِعُ
وَأُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْكَمُوا إِلَيْنَا وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفُوا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا

(١) ابو بكر الجزائري، نداءات الرحمن لأهل الايمان ص ٧٧.

المبحث الرابع

الأمانة(*)

الأمانة خلق من أخلاق المسلم الأصيلة التي تنبع من عقيدته، وتدل على صدق اتجاهه، وشرف غايته، وهى صفة جامعة للفضائل بكاملها، بل الإسلام باعتقاداته وأصوله وفروعه .

والمرء مأمور أن يؤديها على وجهها الصحيح سواء أكانت من حقوق الله تعالى، أم من حقوق العباد، كالودائع، وغيرها مما يؤتمنون عليه من غير قيام بينة على ذلك .

ولهذا كانت الأمانة من لوازم الإيمان، وكانت الخيانة من علامات الجحود والكفران كما يقول الرسول ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له»[1] .

الأمانة لغة واصطلاحاً:

الأمانة لغة: مصدر أمنه يأمنه أمانة، أي وثق به واطمأن إليه، والأمن ضد الخوف، والأمانة ضد الخيانة[2]. والأمين هو الثقة المؤتمن .

وقد ذكر ابن الفارس أن مادة «الأمانة» لها أصلان متقاربان :

(*) د. خالد القضاة.

(1) رواه أحمد في مسنده، والطبراني.

(2) لسان العرب ط ١٠٧، معجم مقاييس اللغة مجلد ٣ ص ١٣٣،

أولهما: الأمانة ضد الخيانة، ومعناها سكون القلب .

وثانيهما: التصديق، والمعنيان متدانيان، وأصل الأمن هو طمأنينة النفس وزوال الخوف[١].

الأمانة اصطلاحاً:

هي رعاية حقوق الله تعالى بتأدية ما على المرء من الفرائض والواجبات، وكذلك حفظ حقوق العباد فلا يطمع في وديعة أؤتمن عليها أو ينكر مالاً وكل إليه أوحراسته[٢].

وقيل: هي خلق ثابت في النفس يعف به الإنسان عما ليس له به حق وإن تهيأت له ظروف العدوان عليه ويؤدى ما عليه أو لديه من حق لغيره وإن استطاع أن يهضمه دون أن يكون عرضةً للإدانة عند الناس[٣].

وهى على هذا الأساس تشتمل على ثلاثة عناصر :

أ- عفة الأمين عما ليس له به حق .

ب- تأدية الأمين ما يجب عليه من حق لغيره .

جـ- اهتمام الأمين بحفظ ما استؤمن عليه من حقوق غيره وعدم التفريط بها[٤].

فضل الأمانة وأهميتها

لقدتحدث القران الكريم عن فضيلة الأمانة في أكثر من موطن، منوهاً بشأنها، حاثاً على رعايتها وصيانتها، وتبدو أهميتها من خلال الأمور التالية :

١- تكرار لفظ الأمانة ومشتقاتها في القرآن الكريم أكثر من (٤٠) أربعين

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة مجلد ٣ ص١٣٣-١٣٤.

(٢) أحمد الشرباصي، موسوعة أخلاق القرآن جـ ٢ ص ٧١.

(٣) حسن حبنكة الاخلاق الاسلامية وأسسها جـ٥ ص ٦٤.

(٤) محمد سعيد مبيض، أخلاق المسلم وكيف نربي أبناءنا عليها ص ٣٥.

مرة منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[1] .

٢- وصف القرآن الكريم لجبريل عليه السلام بالأمانة فقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾[2]. وقال أيضا: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[3] .

٣- إشارة القرآن الكريم أكثر من مرة إلى أن رسل الله عليهم الصلاة والسلام يتصفون بهذه الصفة العظيمة. قال الله تعالى عن نوح: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[4].

وكذلك قال عن كل من هودٍ وصالح، ولوط وشعيب، وأشار القران العظيم إلى أمانة موسى عليه السلام منذ شبابه فقال تعالى على لسان ابنة الرجل الصالح: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[5]. وأشار كذلك إلى أمانة يوسف عليه السلام حيث جاء فيه على لسان الوزير ليوسف: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[6].

ولقد كان سيدنا محمد ﷺ مثلاً أعلى في فضيلة الأمانة حتى لقبه الناس منذ فتوته وقبل بعثته "بالصادق الأمين». فكان خلق الأمانة من الأخلاق الظاهرة البارزة فيه صلوات الله عليه، حتى كان الناس يختارونه لحفظ ودائعهم عنده، ولما هاجر صلوات اللّه وسلامه عليه وكل على بن أبي طالب برد الودائع إلى أصحابها.

(١) سورة الأحزاب الآية ٧٢.
(٢) سورة الشعراء الآية ١٩٣٠
(٣) سورة التكوير الآية ١٩-٢١.
(٤) سورة الشعراء ١٠٧, ٥٢١, ١٤٣, ١٦٢, ١٧٨.
(٥) سورة القصص/٢٦.
(٦) سورة يوسف / ٥٤.

٤- الأمانة وصف بها خيار الصحابة قال ﷺ: «لكل أمة أمينٌ وأمينُ هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح» [١] .

٥- الأمانة مظهر من مظاهر الايمان، وهى من لوازمه، والخيانة من علامات الجحود والكفران، قال ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دينَ لمن لا عهد له» [٢] .

٦- وصف الله تعالى بها المؤمنين فقال في وصفهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [٣] . أي إذا أؤتمنوا لم يخونوا الأمانة بل أدوْها إلى أهلها مهما كانت الأمانة أحد عناصر تكوين الشخصية المؤمنة، فعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنَّة، اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا أؤتمنتم، وغضوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم، وكفوا أيديكم» [٤] .

٧- تعوذ الرسول ﷺ من الخيانة: وهى ضد الأمانة: قال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة» [٥] . ويقول اللّه تعالى: ﴿إن اللهّ لا يحب الخائنين﴾ [٦] .

٨-الخيانة من صفات المنافقين، قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» [٧] .

٩- وصف اللّه تعالى اليهود إلا قليلا منهم بأنهم أهل خيانة، فقال اللّه تعالى لرسوله: ﴿وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ [٨] . فهذه الآية

---

(١) رواه احمد.

(٢) رواه احمد(٥٣٩١١).

(٣) سورة المؤمنون / ٨.

(٤) رواه احمد وابن حبان والحاكم.

(٥) رواه ابو داود والنسائي وابن ماجه.

(٦) سورة الانفال / ٨٥.

(٧) متفق عليه.

(٨) سورة المائدة/ ٣١.

تدل على أن الخيانة من الصفات التي تبرز في اليهود بين حين وآخر، فالخيانة شأنهم وديدنهم، وطريقتهم في معاملة الناس، فمن خيانتهم محاولتهم اغتيال الرسول ﷺ وقد كان بينه وبينهم عهد وأمان، ومن خيانتهم كذلك تواطؤهم مع الأحزاب، وقد كان بينهم وبين الرسول ﷺ كذلك عهد وأمان. والتاريخ الحاضر أكبر شاهد على خيانتهم ونقضهم للعهود والمواثيق.

١١-ومن أهميتها أخيرا أنها الوصية التي يتواصى برعايتها المسلمون ويستعينون بالله على حفظها حتى حينما يكون الإنسان على أهبة السفر يقول له أخوه المودع: «**استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك**»(١) .

مجالات الأمانة

الأمانة في الاسلام ذات مجالات واسعة تتناول جميع العلاقات، ولكن بعض الناس يقصرها في أضيق معانيها، وهو حفظ الودائع، مع أن حقيقتها في دين الله أوسع وأثقل ويمكن إجمال مجالاتها في الأمور التالية :

١- إخلاص العبادة لله تعالى، وأداء الفرائض على وجهها المشروع

يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾(٢). وتفسير الأمانة. بمعنى الفرائض هو ما ذهب إليه الجمهور، فعلى المسلم أن يخلص عبادته لله تعالى. يقول الله تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾(٣).

وعليه أن يقوم بتأدية الفرائض التي فرضها الله تعالى خير قيام من غير تقصير أو تفريط .

٢- إسناد الحكم إلى أهله، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب،

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(٢) سورة الأحزاب / ٧٢.

(٣) سورة البينة/ ٥.

واختيار القادة والأمراء على اختلاف مستوياتهم. روي عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**من استعمل رجلا عل عصابة من المسلمين وفيهم من هو أرضى للّه منه فقد خان اللّه ورسوله والمؤمنين**»(١). وعن أبي ذر رضي اللّه عنه قال: «قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟ فضرب بيده على منكبي ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»(٢). فإذا قدم من يستحق التأخير أو أخر من يستحق التقديم كان ذلك خيانة للأمانة والحكم، ففي هذا المعنى يقول الرسول ﷺ: «من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحدا محاباة فعليه لعنة الله، لا يقبل اللّه منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم»(٣).

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: بينما كان النبي ﷺ يحدث إذ جاء أعرابي فقال متى الساعة؟ قال ﷺ: «**إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة؟ قال كيف إضاعتها؟ فقال** ﷺ: «**إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»(٤).

وفي هذا تحذير وتخويف من ضياع الأمانة، وإشعار بأنها حين تضيع تختل الأمور ويفسد العالم، ومن الأمانة هنا أن لا يطلب الولاية من ليس كفؤا لها، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ فيما يرويه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إنكم تحرصون على الامارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة**»(٥). أي أنها آسرة محبوبة، شأنها كشأن المرضعة للرضيع، ولكن عاقبتها بعد الفطام والانفصال عنها عاقبة وخيمة، ما لم يكن الذي تولاها أمينا فيها، مؤدياً حقوقها.

---

(١) رواه الحاكم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الحاكم.

(٤) رواه البخاري.

(٥) رواه البخاري.

وكان من سياسة الرسول ﷺ أن لا يوسد الأمر ولا يعطيه لمن يطمع به طمعاً يدفعه إلى طلبه ولا من يحرص عليه لأن أمر الولاية مسؤولية عظيمة لا يتهالك عليها إلا من هو طامع بأن يبلغ فيها ويجر لنفسه وذويه منافعها فإن التشبع من المال العام جريمة وفي ذلك يقول ﷺ: **«إنّا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله أو أحداً حرص عليه»**. وفي رواية أخرى أن الرسول ﷺ قال: **«لا نستعمل على عملنا من أراده»**(١) .

وأما طلب يوسف عليه السلام الامارة لنفسه من عزيز مصر، فله عدة مسوغات، منها أن المجتمع غير إسلامي، وأنه رأى في نفسه القدرة والأمانة على الولاية فقال له: **﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾**(٢). ومنها أنه أراد أن يستفيد من سلطانه في الحكم إقامة حكم الله ونشر دينه (٣).

وهذه السياسة النبوية الحكيمة هى التي تضمن الأمن والاستقرار واستقامة الأمور، وإن اختيار الأكفاء للإدارة والحكم أمر عسير وليس يسيراً، فمن ألهمه الله حسن الاختيار فقد أعطاه الله نعمة عظيمة، وأرشده إلى خير جسيم .

وبناء على ذلك يجوز لمن أنس في نفسه كفاية تفوق ما عند غيره أن يقدم نفسه لخدمة المسلمين لا لمصلحة نفسه.

٣- حفظ أموال الدولة، وأداء الواجب كاملاً

فأموال الدولة أمانة في يد المسؤول، والواجب عليه أن يضعها في مواضعها، وأن ينفقها فيما ينفع الجماعة والفرد، ويعود عليهم بالرفاهية والإسعاد، وعلى الانسان أن يخلص لعمله، وأن يسهر على حقوق الناس التي وضعت بين يديه ولذا يقول الرسول ﷺ: **«لكل غادرٍ لواءٌ عند استه يرفع له بقدر غدرته، ألا**

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) سورة يوسف/ ٥٥.

(٣) الأخلاق الاسلامية واسسها ج١ ص ٦٦٠.

ولا غادر أعظم من أمير عامة»[1] .

٤- حفظ الحواس والجوارح

وتكون الأمانة فيها بكفها عن العدوان على أصحاب الحقوق، وبحفظها عن معصية الله فيها، وبتوجيهها للقيام بما يجب فيها من أعمال، فاستراق السمع خيانة، واستراق النظر إلى مالا يحل النظر إليه خيانة، والاعتداء على الأموال والأعراض والأنفس خيانة .

فعلى الانسان أن ينظر إلى ما أنعم الله به عليه من سمع وبصر وغير ذلك، فيدرك أنها ودائع الله الغالية، وأن عليه تسخيرها في طاعة الله، واستخدامها في مرضاته قال تعالى: ﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2] .

٥- حفظ الودائع

وهي ما يودع عند الناس من نقود وحُلي وأمتعة وما شابه ذلك، وهذا المدلول هو المتبادر إلى أذهان الناس من مفهوم الأمانة، ويقصرونه عليه، فعلى المودع أن يحافظ على ما أؤتمن عليه وأن يضعه في مكان آمن، كما يحافظ على ماله الخاص، يقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾[3]. ويقول أيضا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[4]. ويقول الرسول ﷺ: «أَدِّ الأَمَانَةَ إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»[5].

٦- رعاية أفراد الأسرة: فالزوجة والأولاد والبنات أمانة في عنق رب

(١) رواه البخاري، رقم ٦٤٥١.

(٢) سورة الأنفال/ ٢٧.

(٣) سورة البقرة/ ٢٨٣.

(٤) سورة النساء/ ٥٨.

(٥) رواه الترمذي/ ١١٨٥.

الأسـرة، وإنه المسؤول عـن الانفـاق عليـهم، وعـن تـعليـمـهـم، وتربيـتـهـم التربيـة الاسـلاميـة الحسنة، وهـو مـسؤول عـن استـقـامـتـهم وإدخـال السعـادة إلى قلوبهم، مسؤول عن سلامة عـقيدتهم والتزامهم أوامر اللّه تعالى، واجتناب نواهيه، خوفاً عليهم من الشقاء في الدنيا وعذاب اللّه في الآخرة يقول اللّه تعالى: ﴿يأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُواْ قُواْ أَنفُسَكُمْ وأَهْليكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئكَةٌ غلاَظٌ شدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1]. ويقول أيضا: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[2]. ويقول الرسول ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع»[3].

ويقول عليه السلام: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالرجل راع في بيته وهو مسؤول عن رعيته»[4].

ومن المؤسف أن نرى الناس يفرطون في هذا الجانب فهم يهتمون بصحة أبنائهم ولا يهتمون بأخلاقهم وتربيتهم، يهتمون بتقويتهم في العلوم الدنيوية ولا يهتمون بتقويتهم في العلوم الدينية، نرى الرجل يهتم بتجارته أكثر من اهتمامه بأولاده، لا يعرف شيئاً عن أخلاقهم ولا عن رفاقهم ولا عن دينهم.

٧- حفظ أسرار المجالس، كتمان السر

لقد حث الاسلام على حفظ ما يجري في المجلس من أحاديث أو أسرار وهو أمانة على من سمعه أو رآه، وإذا تهاون الانسان وأفشى سر غيره كان إفشاؤه حراماً إن كان فيه إضرار، ولؤما إن لم يكن فيه إضرار، يقول الرسول ﷺ: «إذا

---

(١) سورة التحريم /٦.

(٢) سورة طه/ ١٣١.

(٣) رواه أحمد.

(٤) رواه احمد والترمذي البر والصلة / ١١٨٢.

حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة»[1].

ويقول ﷺ: «المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس: سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مال بغير حق»[2].

المجالس بالأمانة: أي المجالس تعقد بالأمانة على ما يجري فيها، أو المجالس ملزمة للمشتركين فيها بالأمانة أو نحو ذلك .

وإذ يقرر الرسول ﷺ أن المجالس بالأمانة يستثنى منها ثلاثة مجالس :

المجلس الأول: مجلس سفك فيه دم حرام، فهذا يجب الشهادة به، ولا يجوز كتمه، بل كتمه خيانة عامة، وخيانة لأولياء القتيل، وخيانة لحق الله .

ومجلس من هذا النوع لا حرمة له، لا أمانة له، لأن أصحابه قد خانوا الله فيما استأمنهم عليه، وخانوا أخاهم فاعتدوا على حياته، و لم يكونوا أمناء عليها، فكيف يكون لهم حق في حفظ سر مجلسهم .

المجلس الثاني: مجلس كان فيه اعتداء على عرض حرام، ومجلس من هذا النوع لاحرمة له، ولا أمانة له، بشرط أن يتوافر للشاهد فيه نصاب الشهود الأربعة، لئلا يدان بالقذف فحق الله هو الأحق بالأمانة وأداؤه أولى كما أمر الله

المجلس الثالث: مجلس اعتدي فيه على مال بغير حق، فهذا مجلس لا حرمة له أيضا ولا أمانة له[3].

ونستطيع أن نقيس على هذه المجالس ما كان شبيها بها، فمن ذلك المجالس التي تدبر فيها المؤامرات ضد المسلمين، فهذه مجالس لا حرمة لها، بل التستر عليها خيانة عظمى للأمانة التي استؤمن عليها كل فرد من أفراد المسلمين، وهى أن

(١) رواه البخاري الجمعة ٨٤٤.

(٢) رواه ابو داوود.

(٣) الأخلاق الاسلامة وأسسها ج١ ص٦٦٤.

يكون حافظا راعيا لجماعة المسلمين، أمينا على مصالحهم، وعينا يقظة ساهرة تراقب مكايد أعدائهم ومؤامرات الذين يتآمرون ضدهم، ضد دينهم، أو ضد مجتمعهم .

ويدخل في هذا الباب حفظ الأسرار الزوجية التي تكون بين الرجل وزوجه، فإنا نجد السفهاء يثرثرون بما يقع بينهم وبين أهليهم من أمور وفي ذلك يحذر الرسول ﷺ بقوله: «**إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها**»[١]. وعن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه ﷺ: «**إن من أشر الناس عند اللّه منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه ثم ينشر سرها**»[٢] .

فلذا نجد أصحاب الخلق الكريم، والطبع السليم، والشعور القويم، هم الذين يحزنون حينما يحسون أنهم قد قصروا في شيء من حقوق الأمانة، ولو عن غير قصد، ومن جميل ما ذكر في هذا الباب قصة أبي لبابة أثناء غزوة بني قريظة بعد أن غدر يهود بني قريظة بالرسول ﷺ وبالمسلمين ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين النبي ﷺ - وهذا هو ديدنهم وهذه هى صفاتهم وأخلاقهم القذرة على مر العصور والدهور - فطلب هؤلاء اليهود بعد أن حاصرهم الرسول ﷺ أن يبعث إليهم بالصحابي أبي لبابة. وكان حليفا لهم في الجاهلية، ولما وصلهم أبو لبابة أخذوا يسألونه: أيسلمون وينزلون على حكم النبي ﷺ فقال لهم: نعم ! ثم بدرت منه بادرة غير مقصودة فأشار بيده إلى حلقه إشارة يفهم منها أن مصيرهم هو القتل أي «الذبح» إن نزلوا.

وما كاد أبو لبابة رضي اللّه عنه يأتي بهذه الإشارة حتى تنبه لنفسه في خوف وجزع، وأحس وكأنه خان أمانة اللّه ورسوله بهذه الإشارة لأنه كشف شيئا كان

---

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه مسلم رياض الصالحين ص ١٩٩ .

يجب عليه أن يخفيه، فعصره الألم والحزن، وقال: فو اللّه ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني خنت الله ورسوله، ثم عاد رضي اللّه عنه إلى المدينة مسرعا والدموع تسيل من عينيه حتى دخل المسجد وربط نفسه في أحد أعمدته وقال: واللّه لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت، أو يتوب الله علي مما صنعت وأخذ على نفسه العهد الوثيق ألا يدخل أرض بني قريظة ما دام حيا.

وظل أبو لبابة مربوطا في عمود المسجد قرابة عشرين يوما حتى نزلت توبة اللّه عليه حيث قال الله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)] .

وخرج بهذه التوبة وبقي على قيده حتى جاء رسول اللّه ﷺ وفك قيده.

هذه أهم مجالات الأمانة. وهناك الأمانة في النواحي العلمية بنقلها دون تحريف أو تبديل وكذلك الأمانة في الشهادة والقضاء والكتابة والحكم وفي تبليغ الرسالة وغير ذلك، مما يضيق المقام لذكره إذ أن الأمانة تنتظم الحياة كلها.

فالأمانة بمعناها الواسع تخلق لدى الإنسان رقابة ذاتية وضميرا حيا لا يحتاج معهما إلى رقيب ولله در القائل:

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوماً فلا تقل خلوتَ ولكن قل علي رقيب

(١) موسوعة الأخلاق الاسلامية ج ٢/ ٢٤ والآية من سورة التوبة/ ١٠٢.

المبحث الخامس

الصبر[*]

الصبر فضيلة من أمهات الفضائل، وهو من أبرز الأخلاق التي عنى بها القرآن العظيم، وتكرر ذكرها في آياته، وهو من دلائل صدق الإيمان، ووسيلة ضرورية يستعان بها في هذه الدنيا، وهو الدواء الشافي لنفس المصاب حيث يخفف حزنها وآلامها وليس أوفى لبيان قيمة الصبر من أنه لا يعرف حد لثوابه حيث قال اللّه تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1] .

معنى الصبر لغة واصطلاحاً

الصبر لغة: نقيض الجزع، صبر يصبر صبرا، فهو صابر وصبار، ومعناه حبس النفس عن الجزع قال الله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[2] ويقال : «صبّرت نفسي على ذلك الأمر أى حبستها»[3]. وقيل : أصل الكلمة من الشدة والقوة، وقيل مأخوذ من الجمع، والضم، فالصابر يجمع نفسه ويقويها ضد الهلع والجزع.

والتحقيق أن في الصبر المعاني الثلاثة : المنع والشدة والضم [4] .

(*) د. خالد القضاة.

(١) سورة الزمر١٠.

(٢) سورة الكهف ٢٨.

(٣) لسان العرب مجلد ٣ ص ٤٠٤، معجم مقاييس اللغة م٣/ ٣٣٠.

(٤) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ص ٨٢ ابن قيم الجوزية.

الصبر اصطلاحا :

هو قوة خلقية من قوى الارادة، تمكن الانسان من ضبط نفسه لتحمل المتاعب والمشقات والآلام، وضبطها عن الإندفاع بعوامل الضجر والجزع والسأم أو الملل، والغضب والطيش، والخوف والطمع، والأهواء والشهوات والغرائز» [1].

وقيل : هو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه [2] .

والصبر ضربان : إما أن يكون بدنيا وإما نفسيا.

فأما البدني : كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها، وكتعاطى الأعمال الشاقة.

وأما النفسي : فيكون عن مشتهيات الطبع، ومقتضيات الهوى، وقد يسمى بأسماء كثيرة لكثرة مواطنه ومظاهره .

فإن كان صبرا عن شهوة البطن والفرج سمي عفة .

وإن كان على احتمال مكروه، اختلفت أساميه باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر. فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر، وتضاده حالة تسمى «الجزع والهلع».

وإن كان في حرب ومقاتلة سمي «شجاعة» ويضاده الجبن. وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي «حلما» ويضاده التذمر.

وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي«سعة الصدر» ويضاده «الضجر وضيق الصدر».

وإن كان في اخفاء كلام سمي «كتمان السر» وسمي صاحبه « كتوما».

وإن كان عن فضول العيش سمي «زهدا« ويضاده «الحرص» .

---

(١) الأخلاق الاسلامية وأسسها ط٢/ ٣٠٥، عبد الرحمن حبنكة.

(٢) موسوعة أخلاق القرآن جـ ١/ ١٩١ د. أحمد الشرباصي.

وإن كان صبرا عن قدر يسير من الحظوظ سمي «قناعة»، ويضاده «الشر».

فأكثر أخلاق الايمان داخل في الصبر، ولذلك لما سئل الرسول ﷺ ذات مرة عن الإيمان قال: «هو الصبر» . لأنه اكثر اعمالها وأعزها كما قال في الحج «الحج عرفة» [1] .

ضرورة الصبر

الصبر ضرورة للإنسان لما له من قيمة كبيرة دينية وخلقية، فهو ضرورة لازمة له ليرقى مادياً ومعنوياً، ويسعد فردياً واجتماعياً، فلا ينتصر دين، ولا تنهض أمة إلا بالصبر. فالصبر ضرورة دنيوية كما هو ضرورة دينية، فلا نجاح في الدنيا ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر، والقرآن الكريم يشير إلى ضرورة الصبر وأهميته حين يحدثنا عن خلق الانسان وما حف به من ابتلاء ومكابدة ومعاناة. يقول تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾[2]. ويقول أيضا : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[3] أي في شدة ومشقة لما يعانيه منذ مولده من شدائد الحياة الممزوجة باللذات والالام.

والصبر ضرورة لازمة لأهل الايمان لأنهم أشد تعرضاً للأذى والمحن والابتلاء في أموالهم وأنفسهم، وفي كل عزيز لديهم.

وقد كان أولو العزم من الرسل أشد المرسلين ابتلاء فكان صبرهم محل القدوة والأسوة كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[4]. لأنهم أئمة أهل الايمان فهم أشد بلاء.

وهو أعظم خلق نفسي وضع موضع الابتلاء في ظروف هذه الحياة ولذلك قال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ

(١) إحياء علوم الدين ج ٤ / ٦٦-٦٧، مختصر منهاج القاصدين ص٢٩٢.

(٢) سورة الانسان ٢.

(٣) سورة البلد ٤.

(٤) سورة الاحقاف٣٥.

الصَّابِرِينَ﴾[1]. وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «أشدّ الناس بلاءَ الأنبياءُ ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يبتلى الرجل على حسب دينه، فان كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وان كان في دينه رِقّة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الارض ما عليه خطيئة»[2] [3].

فضل الصبر وأهميته

الصبر من أهم الفضائل الخلقية كما رأينا وتبرز أهميته من خلال الأمور التالية:

١- الصبر صفة من صفات اللّه الحسنى. فاللّه جل جلاله هو الصبور أي الذي لا يعامل العصاة بالانتقام والعقاب. وقد ورد في حديث رواه الشيخان عن أبي موسى الاشعري قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله عز وجل، إنه ليشرك به ويجعل له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم»**[4].

٢- الصبر صفة من صفات المجاهدين عند لقاء العدو قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[5].

٣- الصبر صفة الأنبياء والمرسلين، فقد اشتهر به أيوب عليه السلام قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[6]. وكذلك اسماعيل وغيره قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾[7].

٤- الصبر خلق أهل العزيمة القوية وأصحاب الإرادة الماضية، ومن هنا نجد

---

(١) سورة آل عمران ١٤٢.

(٢) رواه الترمذي ٨/٩٣٣.

(٣) انظر الصبر في القرآن يوسف القرضاوي ٢١-٣٢.

(٤) رواه البخاري في الأدب، باب الصبر على الأذى، ورواه مسلم في صفات المنافقين.

(٥) سورة آل عمران ٢٠٠.

(٦) سورة ص ٤٤.

(٧) سورة الشورى ٣٤.

أن القرآن الكريم جعل الصبر من عزم الأمور، والعزم هو عقد القلب على امضاء الأمر، وهو أيضاً المحافظة على ما يؤمر الانسان به، يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾(1).

ويقول أيضاً: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾(2).

٥- الصبر من دلائل صدق الايمان، فانه لا يصبر لحكم الله وأوامره إلا مؤمن به مقدر لحكمه، مبتغ لثوابه في الدنيا والآخرة، حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ امَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾. وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ سأل جماعة: **«أمؤمنون أنتم؟ فقال عمر: نعم يا رسول الله، فقال فما علامة إيمانكم؟ فقال: نشكر على الرخاء، ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء، فقال: مؤمنون ورب الكعبة»**(3).

ويقول عمر رضي الله عنه: «الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد». وقال أيضاً: «ألا انه لا ايمان لمن لا صبر له».

٦- لقد جعل الله تعالى جزاء الصبر عظيماً: فأهل الصبر أولاً يستحقون البشرى قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾(4). وقال أيضاً: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ﴾(5). وكذلك يبين الله تعالى أنه يحب أهل الصبر قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرينَ﴾(6). وأخبر سبحانه أنه مع الصابرين قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(7). ووعد الله الصابرين

---

(١) سورة الأنبياء ٨٥.

(٢) سورة لقمان ١٧.

(٣) انظر الصبر والثواب عليه ٢٤ ابن ابي الدنيا.

(٤) سورة البقرة ١٥٥.

(٥) سورة النحل ١٢٦.

(٦) سورة آل عمران ١٤٦.

(٧) سورة البقرة ١٥٣.

بمضاعفة الأجر فقال: ﴿أُوْلَـئِكَ يُؤْتَونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1]. ثم بين القرآن الكريم أن ثواب الصابرين غير محدود بل هو موكول لفضل الله تعالى الذي لا حدود له ولا قيود: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

٨- الصبر هو السبيل إلى الرئاسة في الدنيا والإمامة في الدين: فأحق الناس بالتحلي بخلق الصبر من يتصدى للقيادة العامة والإمامة الدينية وذلك لكثرة ما يعرض له من أمور تتطلب منه صبراً، فإذا لم يصبر، فشل وسقط عن مرتبة القيادة أو الإمامة قال الله تعالى في حق بني إسرائيل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[3].

فهذا النص القرآني يدل على أن الصبر قد أهل أربابه لمرتبة الامامة الدينية اذا كانوا مهتدين بهدى الله ولذلك جعل منهم أئمة يهدون بأمره.

وكذلك نجد نبي الله يوسف عليه السلام قد بلغ مرتبة القيادة العامة بصبره حيث قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[4]. فقد كافأه الله تعالى على ما كان منه من تقوى وصبر، إذ أهله خلق الصبر لبلوغ هذه المرتبة)[5].

٩- الصبر مفتاح الفرج، وضمان النصر والمدد من الله تعالى قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ

(١) سورة القصص ٥٤.

(٢) سورة الزمر ١٠.

(٣) سورة السجدة ٢٤.

(٤) سورة يوسف ٩٠.

(٥) الأخلاق الاسلامة وأسسها جـ٢/ ٨٣٣-٩٣٣.

آلاف مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[1]. ويقول الرسول ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر»[2].

أنواع الصبر

الصبر كما ذكرنا فضيلة تتعدد مجالاتها، وتختلف تصنيفاتها بين الباحثين والدراسين، وهذه المجالات هي:-

أ- الصبر عن شهوات النفس ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[4]. فالمؤمن محتاج إلى الصبر على ملاذ الدنيا وشهوات النفس.

ب- الصبر على طاعة الله ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[5].

ج- الصبر في الدعوة الى الله: والدعوة إلى الله سبيلها طويل، تحف به المتاعب والآلام وأكثر الناس يتخذون من هذه الدعوة عدواً يحاربونه بكل سلاح، فلا بد للدعاة هنا من الاعتصام بالحق والصبر قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾[6].

د-الصبر حين البأس أو عند لقاء العدو: فاذا لقى المسلمون أعداءهم زحفاً فان الفرار حينئذ يكون كبيرة موبقة ويصبح الصبر فريضة لازمة، فالصبر هنا شرط أساسي للنصر وعنصر ضروري لقهر العدو، ومن هنا جاء قول الله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ

---

(١) سورة آل عمران ١٢٥.

(٢) أخرجه احمد في مسنده ج١/٣٠٧.

(٣) سورة البقرة ١٥٥.

(٤) سورة الأنبياء ٣٥.

(٥) سورة طه ١٣٣.

(٦) سورة العصر.

﴿الْمُتَّقُونَ﴾[1]. وقال عليه السلام: «النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وان مع العسر يسرا»[2].

هـ- صبر الأزواج بعضهم على بعض وعلى الأولاد: النساء والبنون محببة للنفس الإنسانية، بل هي زينة الحياة الدنيا، لذلك فهما فتنة لقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[3].

فهذا مجمل لمجالات الصبر استعرضناها سريعاً ويمكن دمجها في ثلاثة أنواع «الصبر على الطاعة» والصبر عل المعصية والصبر على المصيبة» [4].

الصبر على الطاعات

الطاعات في الإسلام كثيرة ومتعددة وبحاجة إلى الصبر عليها تؤدى كما هي، وهذا ما أرشدنا إليه القرآن الكريم والرسول ﷺ ومن هذه الطاعات:

أ- الصبر على العبادات: وأول العبادات الصلاة، إذ أن الصلاة فريضة متكررة امرنا الله تعالى بالصبر على أدائها قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[5]. وقال أيضاً: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[6].

وقال كذلك: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[7].

فالصلاة إذا ليست بالأمر السهل لما تتطلب من تجرد لله وانصراف عن الدنيا

---

(١) سورة البقرة ١٧٧.

(٢) أخرجه احمد ١/ ٣٠٧، والحاكم ٣/ ٥٤٢.

(٣) سورة الانفال ٢٨.

(٤) انظر الصبر الجميل في ضوء القرآن والسنة من ص ٣٣-٤٩ وانظر الصبر والثواب عليه ص ٣١.

(٥) سورة طه ١٣٢.

(٦) سورة البقرة ٤٥.

(٧) سورة الكهف ٢٨.

ومشاغلها، أو ترك العمل خمس مرات في اليوم والليلة، يتفرغ فيها المصلي للترويح عن النفس وإسعادها بمناجاة الله تعالى، والصلاة تتطلب الصبر ريثما تؤثر في المصلي فتبعده عن المعاصي وتدفعه على منهج الله القويم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾(١). إذ لا فائدة من صلاة لا تؤثر في سلوك صاحبها.

ومن العبادات كذلك الحج فهو بحاجة إلى صبر من حر ومتاعب ومشاق وازدحام، وكذلك الصيام وجميع العبادات الأخرى كلها بحاجة إلى صبر على أدائها.

ب- الصبر على الجهاد: الجهاد في سبيل الله يحتاج إلى صبر عظيم لما فيه من تعرض للتضحية بالنفس والمال والجود بهما ابتغاء مرضاة الله:

يجود بالنفس إن ضَنَّ البخيلُ بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

يأمرنا الله تعالى بالجهاد والصبر فيه فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٢).

ويقول أيضاً: ﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ . وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٣).

ففي الآية الأولى أمر للمؤمنين بالثبات والصبر عند لقاء العدو في المعركة وفي الآية الثانية أمر بالثبات والذكر عند لقاء العدو، وأمر بعدم التنازع المفضي إلى إضعاف الشوكة، وتبديد القوة.

جـ- الصبر على الدراسة والبحث العلمي، في الظواهر الكونية والاجتهاد

(١) سورة العنكبوت ٤٥.

(٢) سورة آل عمران ٢٠٠.

(٣) سورة الأنفال ٤٥-٤٦.

لاستنباط آيات الله فيها، وكذلك الاجتهاد لاستخراج أحكام الشريعة من مصادرها وهذه وغيرها أمور تحتاج إلى دأب طويل وصبر جميل فلا يقوم بها إلا كل صبار مثابر يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[1].

فدل هذا على أن البحث في الظواهر الكونية لا بد أن يوصل إلى الإيمان العميق بأن الله هو الحق، ولكن البحث العلمي إنما يقوم به كل صبار على البحث والمتابعة وينتفع بنتائج البحث فيؤمن بالله ويطمئن لعبادته كل شكور لأنعم الله عليه [2].

ثانياً: الصبر عن المعصية أو الشهوات

والمقصود به الصبر عن المتع والشهوات والمغريات التي تؤدي إلى المعاصي، كما يقصد به الصبر على مقاومة الشهوات، وهو عنصر المقاومة للمغريات التي بثت في طريق الناس، وزينت لهم اقتراف المآثم المحظورة والرسول ﷺ يقول: «**حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات**»[3].

والشهوات إما أن تقع في دائرة المباح أو دائرة المحظور، وكل من هذين الصنفين بحاجة إلى معالجة وصبر يناسبه.

أما الشهوات المتعلقة بالمباحات فقد ورد فيها قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[4].

والصبر عن المعاصي جهاد متصل يعيش فيه المسلم ليله ونهاره، وسره وعلانيته إنه صراع بين العقل والهوى، وبين داعي الدين وبين النفس الامارة

(١) سورة لقمان ٤٥.

(٢) الاخلاق الاسلامية واسسها ج ٢/ ٣٢١-٣٢٣.

(٣) نفس المرجع ج ٢/ ٣٢١-٢٣٢ والحديث رواه مسلم.

(٤) سورة آل عمران ١٤.

بالسوء، وفي ذلك يقول بعضهم : «ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة، وركب البهائم من شهوة بلا عقل، وركب بني آدم من كليهما، فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم». ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1].

والمسلم محتاج إلى الصبر عن ملاذ الدنيا، فلا يطلق لنفسه العنان للجري وراء شهواتها من النساء والبنين والمال والحرث فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال معها والركون إليها والانهماك فيها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان[2].

ولذلك نجد الإسلام قد أمر الإنسان بهجر المعاصي ومجاهدة النفس في تركها مما يسمو بها ويقربها الى خالقها، ويمنعها من الاسترسال في الهوى والشهوة فيضع لكل حاسة أدبا، ويجعل الانسان مسؤولا عن كل تصرف يصدر عنه: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[3].

يقول ابن الجوزي: «قرأت سورة يوسف عليه السلام فتعجبت من مدحه عليه السلام على صبره، وشرح قصته للناس ورفع قدره بترك ما ترك فتأملت خبيئة الأمرفإذا هي مخالفته للهوى المكروه، فقلت واعجباً لو وافق هواه من كان يكون ؟ ولما خالفه لقد أصبح أمراً عظيماً تضرب الأمثال بصبره ويفتخر الناس باجتهاده، وكل ذلك قد كان بصبر ساعة، فيا له عزاً وفخراً أن تملك نفسك ساعة الصبر عن المحبوب وهو قريب وبالعكس منه حالة آدم في موافقته هواه، لقد عادت نقيصة في حقه أبداً لولا التدارك فتاب عليه»[4].

إن النفس الإنسانية تواقة لتحصيل كل ممنوع، وكل ممنوع مرغوب كما

---

(١) سورة الفرقان ٤٤.

(٢) الصبر في القرآن الكريم ص٢٤.

(٣) سورة الاسراء ٣٦.

(٤) ابن الجوزي صيد الخاطر ص ٢١.

يقولون فإذا كان هذا الممنوع مما ألفته النفس حتى أصبحت ممارسته عادة كما الحال في عادة التدخين والسكر وتعاطي المخدرات، فإن الصبر على مجاهدة النفس يحتاج إلى جهد استثنائي وفي هذا يقول أبو حامد الغزالي : «وأشد انواع الصبر الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة، فان العادة طبيعة خاصة، فإذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى، فلا يقوى باعث الدين على قمعها، ثم إن كان ذلك الفعل مما يشير فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً، وأنواع المزح المؤذي للقلوب، وضروب الكلمات التي يقصد بها الازدراء والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم فان في ظاهره غيبه وفي باطنه ثناء على الناس»[(١)] .

إن نفراً من الناس يتعللون بعدم قدرتهم على الاقلاع عن المعاصي وهم لا ينفكون عن مقارفتها وفعلها بأسباب يوهمون أنفسهم بأنها مقنعة، وهي في الحقيقة ليست أكثر من تعلة يتلهون بها تبريراً لسلوكياتهم الخاطئة، أعاليل بأباطيل ولو أن هؤلاء قاموا بمراجعة أنفسهم ما كانوا ليستمروا على ضلالهم المبين قال تعالى: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾[(٢)] .

وفي هذا السياق ورد في السنة. عن أبي أمامة أن فتى من الأنصار أتى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله،ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه فقال : أدن فدنا منه قريباً قال: فجلس، قال أتحبه لامك، قال : لا والله جعلني الله فداك، قال ولا الناس يحبونه لأمهاتهم،، قال :أفتحبه لابنتك؟ قال : لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال :لا والله جعلني الله فداك، قال :ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك؟ قال :لا والله جعلني الله فداك، قال :ولا

(١) احياء علوم الدين ٤/ ٨٩.
(٢) سورة القيامة ١٤-١٥.

الناس يحبونه لعماتهم، قال: أفتحبه لخالتك قال: لا والله جعلني الله فداك قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم قال: فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره، وقال اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه، فلم يكن بعد ذلك يلتفت إلى شيء[1].

وجاء رجل إلى ابراهيم بن أدهم رحمه الله مستنصحاً فقال له : إنه يريد أن يتوب ويقلع عن المعاصي ولكنه لا يستطيع وهو يريد النصيحة فقال له ابراهيم: أوصيك بخمس فإن استطعت العمل بها فلا عليك ما فعلت من بعد. فقال له هات، قال ابراهيم، إذا أردت المعصية فانظر مكاناً لا يراك فيه مولاك، فقال له الرجل : ويحك؟ وهل يخفى على الله شيء في الأرض أو في السماء، قال له ابراهيم: فإن لم تستطع هذه فافعل الثانية، قال هات، قال له : انظر مكاناً تعصي الله فيه في غير ملكه، قال له وأين أذهب وله ملك السموات والأرض، قال فإن أصررت فلا تاكل من خيره ونعمه قال: ومن أين آكل إذن وكل ما بأيدينا من فضله ورزقه، قال هات الرابعة: قال: إذا جاءك ملَك الموت يقبض روحك فاطلب منه مهلة وأجلاً لعلك تعمل صالحاً؟ قال : وأنّى له أن يقبل بذاك، والآجال مكتوبة ولا يستأذن أحداً في أجله، قال فإن لم يكن ذاك فلا تمكنه يقبل بذاك، والآجال مكتوبة ولا يستأذن أحداً في اجله، قال فإن لم يكن ذاك فلا تمكنه من قبض روحك قال لا حول ولا قوة تجاهه. قال هات الخامسة، قال: إذا جاءتك ملائكة الله يوم الحساب ليسحبونك إلى النار فلا تذهب معهم، قال لا حول ولا قوة حينها: قال ابراهيم: إذاً فماذا تنتظر وأنت هدف لملك الموت في كل لحظة، فسارع إلى التوبة يرحمك الله[2].

إن مثل هذا المحاكمة العقلية في قصة الفتى الأنصاري وقصة صاحب ابراهيم بن أدهم، والحوار الهادئ البعيد عن التشنج والانفعال يؤتي أكله طيباً بإذن

(١) الساعاتي الفتح الرباني ج ١٦ / ٧٠-٧١.

(٢) إحياء علوم الدين جـ ٤/ ٩٠-٩١.

الله، وفيه تفتيح للبصر والبصيرة على جوانب ما كانت بادية أول الأمر، فإذا بهذا الذي كان يجدف بنفسه في بحار الباطل يعود حميداً إلى طريق الهدى والرشاد والسداد.

الصبر على المصائب او على البلاء

إذا ما ذكر الصبر ابتداء انصرف الذهن مباشرة إلى الصبر على المصائب والبلايا، والمصائب هذه تقع عقوبة وجزاء، وقد تقع امتحاناً وابتلاء ولا بد في الحالين من الاستعانة بالصبر، ولقد أرشد الإسلام إلى التحلي بالصبر عند نزول هذه المصائب وعند كل ما يجلب الآلام ويورث المتاعب والأكدار، وقد وعد الله الصابرين بالأجر العظيم، والثواب الجزيل إذا صبروا رضى بقضاء الله وطاعة له وابتغاء مرضاته قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلَّه وَإِنَّـا إِلَيْـهِ رَاجِعُونَ . أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[١].

فدل هذا النص على أن المصائب المؤلمة في الأنفس، أو في الأجسام أو في الأموال أو في الثمرات قد تكون نوعاً من الامتحان في الحياة الدنيا، وقد أرشد هذا النص إلى التحلي بفضيلة الصبر في مجال الاصابة بالمصائب المختلفة والتي منها مصائب الخوف، ومصائب الجوع، ومصائب النقص في الأموال، والأنفس والثمرات[٢].

وقال ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط**»[٣].

---

(١) سورة البقرة ١٥٥-١٥٧.

(٢) الاخلاق الاسلامية واسسها ج٢ / ٣٠٨.

(٣) رواه ابن ماجه والترمذي.

والصبر على المصائب امارة من امارات الايمان الصادق والتسليم والرضا بالقدر خيره وشره، غير أنه ينبغي أن نميز هنا بين الرضا بالقضاء والرضا بالمقضي أو الرضا بالقدر والرضا بالمقدور.

يقول القرافي: «إن كثيراً من الناس يلتبس عليه الأمر فلا يفرق بين السخط بالقضاء وعدم الرضا والسخط بالمقضي وعدم الرضا به.

إعلم أن السخط بالقضاء حرام إجماعاً والرضا بالقضاء واجب اجماعاً بخلاف المقضي. والفرق بين القضاء والمقضي والقدر والمقدور أن الطبيب إذا وصف للعليل دواء مراً أو قطع يده المتآكلة فإن قال: بئس ترتيب الطبيب ومعالجته، وكان غير هذا يقوم مقامه مما هو أيسر منه فهو تسخط بقضاء الطبيب وأذية له وجناية عليه، بحيث لو سمعه الطبيب كره ذلك وشق عليه.

وإن قال هذا دواء مر قاسيت منه شدائد، وقطع اليد حصل لي منها آلام عظيمة مبرحة فهذا تسخط بالمقضي الذي هو الدواء والقطع، لا بالقضاء الذي هو ترتيب الطبيب ومعالجته فهذا ليس قدحاً في الطبيب ولا يؤلمه إذا سمع ذلك بل يقول له صدقت الأمر.

كذلك فعلى هذا إذا ابتلى الانسان بمرض فتألم من المرض بطبعه فهذا ليس عدم رضا بالقضاء بل عدم رضى بالمقضي، وإن قال: أي شيء عملت حتى أصابني مثل هذا وما ذنبي فهذا عدم رضا بالقضاء. فنحن مأمورون بالرضا بالقضاء ولا نتعرض لجهة ربنا الا بالاجلال والتعظيم، ولا نعترض عليه في ملكه، وأما أنّا أمرنا بأن تطيب لنا البلايا والرزايا ومؤلمات الحوادث فليس كذلك، ولم ترد الشريعة بتكليف أحد بما ليس في طبعه [1].

ويكون الصبر عند الصدمة الاولى، كما جاء في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى على امرأة تبكي عل صبي

(١) القرافي- الفروق ج ٤/٢٢٨-٣٣٠.

لها على قبر فقال لها: اتقي الله واصبري: فقالت: وما تبالي بمصيبتي، فلما ذهب قيل لها: إنه رسول الله فأخذها مثل الموت، فأتت بابه فلم تجد على بابه بوابين، فقالت يا رسول الله: لم أعرفك ؟ فقال: «**إنما الصبر عند أول صدمة**» وفي لفظ آخر «عند الصدمة الأولى»(١).

والابتلاء بالمصائب سنة إلهية ماضية في الخلق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فقد روي عن رسول الله ﷺ قوله: «**من يرد الله به خيراً يصب منه**»(٢).

ويقول عليه السلام: «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في ولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئه**»(٣).

وقانون الصبر على المصائب والآلام التي تنزل بالمسلم يرجع إلى أمرين اثنين، الأول: تكفير الخطايا والذنوب، وهذا من تعجيل العقوبة على الذنوب. الثاني : منح الأجر عليها، وهذا من فضل الله تعالى ورحمته بعباده المؤمنين»(٤).

والمؤمن أمره كله خير في الحياة الدنيا سواء أصابته ضراء أم سراء وفي ذلك يقول الرسول ﷺ : «**عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له**»(٥).

وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن، ولا غم حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه**»(٦).

---

(١) اخرجه الشيخان صحيح البخاري ٢/ ٧٩، وصحيح مسلم ٣/ ٤٠-٤١.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) الأخلاق الإسلامية واسسها ج٢ص/ ٣١٤.

(٥) رواه مسلم.

(٦) رواه البخاري ومسلم.

وروي عن الرميصاء -أم سليم- رحمها الله أنها قالت « توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقمت فسجيته في ناحية البيت، فقدم أبو طلحة فقمت فهيأت له إفطاره فجعل يأكل، فقال: كيف الصبي : قلت بأحسن حال، بحمد الله ومنه، فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة، ثم تصنعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب مني حاجته، ثم قلت ألا تعجب من جيراننا؟ قال: ما لهم ؟ قلت أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا فقال: بئسما صنعوا فقلت: هذا ابنك كان عارية من الله تعالى؟ إن الله قد قبضه إليه، فحمد الله واسترجع ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «اللهم بارك لهما في ليلتهما»[1].

قال الراوي : فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرأ القرآن.

وهذا عروة بن الزبير رضي الله عنه يحتسب عند الله ولده، ثم لا يلبث أن أصابت إحدى قدميه« الأكلة« فتورمت ساقه وجعل الورم يشتد ويمتد حتى قرر الأطباء بتر ساقه، وعرضوا عليه شرب مسكر أو مخدر قبل عملية البترفأبى قائلاً: ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائي دون أن اشعر بألمه وأحتسب ذلك عند الله وعندما تقدم نحوه طائفة من الرجال ليمسكوه في أثناء العملية قال: لا حاجة لي بهم، وإني لأرجو أن أكفيكم ذلك بالذكر والتسبيح، وفي رواية في الصلاة، ثم أقبل الطبيب وأخد ينشر العظم وعروة يقول: لا إله الا الله والله اكبر، ومازال حتى قطعت ساقه، ثم أغلي الزيت وغمست به ساق عروة لإيقاف النزيف فأغمى عليه قليلاً، حتى إذا صحا من إغمائه ناولوه ساقه فجعل يقبلها ويقول : أما والذي حملني عليك في عتمات الليل إلى المساجد إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام قط» ثم تمثل بأبيات لمعن به أوس يقول فيها:

---

(١) القصة في الصحيحين مع اختلاف. انظر الفتح الرباني للساعاتي ج ٥-١٤٦.

لعمرك ما أهويت كفي لريبة ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادتني سمعي ولا بصري لها ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي
وأعلم أني لم تصبني مصيبة من الدهر إلا وقد أصابت فتى قبلي

ولقد نهى الشارع عن تمني الموت تخلصاً من المصائب، والمؤمن لا يتمنى الموت ليتخلص من مصائبه وآلامه وأوجاعه، فطول أجله فرصة له ليزيد من حسناته إن كان من المحسنين ويتوب ويصلح من حاله إن كان من المسيئين.

روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «**لا يتمنى أحكم الموت، إما محسناً فلعله يزداد، وإما مسيئاً فلعله يستعتب**». ويستعتب أي يرجع عن الاساءة، ويطلب الرضى بالتوبة والندم والاستغفار والعمل الصالح.

وروى البخاري ومسلم كذلك عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه، فان كان لا بد فاعلاً فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي**» (1).

ولا يتنافى حزن القلب ولا دمع العين مع الصبر، ولربما يكون دمع العين مظهراً من مظاهر الرحمة ولما قبض إبراهيم ولدُ رسول الله ﷺ- دمعت عيناه فقال له أسامة بن زيد رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله: فقال ﷺ: «**إنها رحمة ثم قال: إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع ولا نقول ما يغضب الرب، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون**»(2).

ولكن كيف يتسنى لنا الصبر على المصائب وتخفيف آثارها؟

هناك وسائل وسبل كثيرة لتحقيق ذلك منها: -

١- العلم بأن داوم الحال من المحال وأن الابتلاء بالمصائب سنة إلهية قال

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) أخرجه البخاري ج ٣/ ١٣٢، ومسلم حديث/ ٢٣١٥.

تعـالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[1] .

وقال الشاعر:

إنما الدنيا هبات وعوارٍ مستردة

شدة بعد رخاء ورخاء بعد شد

٢- العلم بأن ما وقى من الرزايا وكفى من الحوادث ما هو أعظم من رزيته وأشد من حادثته، ولذا نرى أحدنا يعزي من ابتلي بحادث ما بالقول : دفع الله ما كان أعظم.

٣- العلم بأن حلول المصائب إنما يكون إلى أمد وليس إلى الأبد، وما عليه إلا الصبر. وقد قال تعالى ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾[2] .

ويروى عن أبى محجن الثقفي قوله:

عسى فرج يأتي من الله إنه له كل يوم في خليقته أمر

إذا اشتد عسر فارج يسرا فانه قضى الله أن العسر يتبعه اليسر

وقال آخر :

ألا أيها المرء الذي الهمُّ به برح إذا ضاق بك الصدر تفكر في «ألم نشرح»

العلم بأن ما يطرق الإنسان من البلايا من دلائل فضله، ومحنة من شواهد نبله قال ﷺ: «**إن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»[3] .

وقال سفيان الثوري: ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة، وقال الدميري، قد يجهل بعض الناس فيظن أن شدة البلاء وكثرته إنما تترك على

(١) سورة البقرة الآية ١٥٥.

(٢) سورة الانشراح الآية ٥/٦.

(٣) رواه ابن ماجه والترمذي.

العبد لهوانه، وهذا لا يقوله إلا من أعمى الله قلبه، بل العبد يبتلي على حسب دينه»[1].

٥- العلم بأن ما أصابه قد سبق به القدر، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلاَ تَأْسَوْاْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَا آتَاكُمْ﴾[2].

٦- العلم بما أعده الله من ثواب عظيم للصابرين قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾[3]. وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[4].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «ما أصابتني مصيبة إلا حمدت الله في ثلاث: أنها كانت في دنياي ولم تكن في ديني، وأنها لم تكن أكبر مما كانت، وأن لي أجراً بما صبرت عليها».

٧- العلم بأن هذه المصيبة دواء نافع ساقه إليه الطبيب الرحيم فليصبر على تجرعه، ولا يتقيؤه بكثرة الشكوى فيذهب مفعول الدواء.

٨- العلم بأن في عقبي هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة ما لا يحصل بدونه، قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[5].

وفي هذا السياق لنا أن نذكر أن صبر سيدنا إبراهيم عليه السلام صيّره

---

(١) احمد المنثور، الفواكه العديدة في المسائل المفيدة، ١/١٤٧.

(٢) سورة الحديد الآية ٢٢/ ٢٣.

(٣) سورة البقرة الآية ٢١٦.

(٤) الزمر: ١٠.

(٥) البقرة: ٢١٦.

خليلاً للرحمن، فقد ابتلى بالالقاء في النار والهجرة من الوطن وبذبح ولده، وثبت في كل هذا وصبر فكانت عاقبة أمره نصراً، وقل مثل ذلك في سيدنا يوسف عليه السلام فما كان يبلغ ملك مصر لو لم يتعرض لتلك السلسلة من المصائب من إلقائه في الجب إلى بيعه في سوق العبيد في مصر إلى سجنه سنوات عدة وهكذا.

٩- العلم بأن الله يربي عبده على السراء والضراء والنعمة والبلاء، فلا يكون ممن عنتهم الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾(١). فالابتلاء الصادق محك الايمان الصادق.

١٠- التأسي بمن هم أكثر منه بلاء، والمؤمنون أشد بلوى، والتسلي بأولي الصبر، فهم الاكثرون عدداً والأسرعون مدداً (٢).

---

(١) ورة الحج الآية ١١.

(٢) الماوردي أدب الدنيا والدين ١٨٢-٦٨٢، احمد بن منثور النجدي الفواكه العديدة في المسائل المفيدة ١/١٤٥١٤٧.

المبحث السادس

الحلم والأناة (*)

تعريفه

الحلم لغة:

الحلم بالكسر: الأناة والعقل، وجمعه أحلام وحلوم وحَلُم بالضم: صار حليماً وَتحَلَّم: تكلف الحلم: وليس له بطبع[1] والحلم: نقيض السفه وتحالم: أرى من نفسه ذلك وليس به (أي تظاهر بالحلم).

والحلم هو الأناة وضبط النفس: والعقل، وفي التنزيل العزيز ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهم بهذا﴾ [2].

ويقال لمن يتعظ إذا وعظ ، وينتبه إذا نبه، «إن العصا قرعت لذي الحلم»[3].

الحلم اصطلاحاً:

هو: ضبط النفس عند هيجان الغضب[4]، أو هو ضبط النفس عند ثورة الغضب حال وجود ما يدعو إليه وتملك عنانها حذار الاسترسال في هيجانها،

(*) د. محمد الشلبي.

(١) محمد بن مكرم الانصاري المعروف (ابن منظور) لسان العرب المحيط (١/ ٧٠٧، ومحمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح ١/ ٦٤ مكتبة لبنان.

(٢) سورة الطور الآية ٣٢.

(٣) د ابراهيم انس وصحبه ،المعجم الوسيط ١/ ٥

(٤) الماوردي أدب الدنيا والدين ص ٢٤٨ ادارة احياء التراث الاسلامي قطر.

فيحدث ما لا تحمد عقباه[١].

والحلم سيد الأخلاق، وهو يكمل صاحبه بجميل الخصال وقد عد الله تعالى الصبر على تحمل الأذى والمغفرة للمسيء من الأمور التي يندر فاعلها إذ هي من خصال الرسل الكرام، قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[٢].

وقد أمر الله تعالى رسوله محمدا ﷺ أن يجعل العفو له منهجاً وشعاراً فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[٣].

والجزع وعدم تحمل الأذى من صفات الحمقى، وأهل الطيش، ودليل عدم الرزانة وفقدان الاتزان، وصفةُ الحلم علامة مميزة بين إنسان ذي عقيدة راسخة، وإيمان قويم، وآخر تنقصه هذه المزايا والخلال بل إن هناك ارتباطاً وثيقاً بين المرء بنفسه، وبين حلمه وأناته مع الآخرين، وتجاوزه عن خطئهم. فالرجل العظيم حقاً كلما حلق في آفاق الكمال اتسع صدره وازداد حلمه، وعذر الناس، والتمس الأعذار لأغلاطهم فإذا عدا عليه غر يريد تجريمه نظر إليه من قمته، كما ينظر الفيلسوف إلى صبيان يلعبون ويعيشون في الطريق ، وقد يرمونه بالحجارة[٤].

وفي هذا الحال يقول الشاعر:

وَلَقَد أمرُّ على اللئيم يَسبُّني فأجوز ثم أقول لا يعنيني

مشروعية الحلم ومكانته

لقد وردت نصوص كثيرة في القرآن الكريم تشيد بمحامد الحلم، وتبين أنه

---

(١) احمد سعيد الجدوي فتح الخلاق في مكارم الاخلاق ص ١٥ تحقيق عبد الرحمن مارديني مكتبة دار المحبة

(٢)سورة الشورى آية ٤٣.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٩٩.

(٤) الثقافة الإسلامية، المستوى الأدل لطلاب جامعة أم القرى ص ٢٤٢ الشيخ عبد الرحمن حبنكه وآخرون.

منْ صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى، وذكر القرآن الكريم أيضا أن الحلم من صفات الأنبياء الكرام، ذلك لأن رسالات الأنبياء، وما يتعرضون له من الصد، والقسوة، والأذى من قبل المدعوين يستدعي التسلح بالحلم، والأناة، والصفح والإعراض عن الجاهلين ولذا ورد ذكر الحلم،ومشتقاته في القرآن الكريم حوالي ست عشرة مرة مضافاً إلى ذلك ما ورد في القرآن الكريم من أمر بكظم الغيظ، والعفو عن الناس والإعراض عن الجاهلين، ومدح الذين إذا غضبوا هم يغفرون.

١- الحلم من أسماء الله تعالى وصفاته

أ- في معرض بيانه سبحانه وتعالى أنه لا يؤاخذ عباده على الأيمان العفويَّة يقول سبحانه: ﴿لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(١).

ب- وفي بيان أن المتصدق لا يجوز له أن يؤذي المتصدق عليه بأدنى أنواع الأذى فيجرح شعوره ويمتهن كرامته يقول الباري جل وعلا: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾(٢).

جـ- وفي شأن إنفاذ الوصية في بيان الميراث، يقول تعالى: ﴿فَإِن كَانُواْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾(٣).

د- وفي بيان وجوب الإنفاق على الفقراء والمعوزين وأن ذلك يعتبر تعاملاً مباشراً مع الله تعالى يقول سبحانه ﴿إِن تُقْرِضُواْ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾(٤). وغير ذلك من الآيات الكريمة.

(١) سورة البقرة آية ٢٢٥.

(٢) سورة البقرة آية ٢٦٣.

(٣) سورة النساء آية ١٢٠.

(٤) سورة التغابن آية ١٧.

٢- والحلم كذلك صفة الأنبياء الكرام وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

أ- في وصف إبراهيم عليه السلام وبيان أنه رجاع إلى الله تعالى ومنيب إليه في كل شؤونه وفي جميع أحيانه: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾(١).

ب- وكذلك جاء في شأن ابراهيم عليه السلام وهو يدافع عن قوم ابن أخيه لوط عليه السلام إشفاقاً عليهم ورحمة بهم جاء قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾(٢).

جـ- وفي ذكر حال شعيب عليه السلام مع اهل مدين وانكارهم عليه ان ينهاهم عن تطفيف الكيل والميزان، وزعمهم أن هذا النهي لا يتناسب مع حلمه ورشده يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾(٣).

٣- وقد أمر الله سبحانه وتعالى جميع عباده بالحلم والصفح كما أمر نبيه محمداً ﷺ بذلك. فقال عز شأنه:

أ- ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾(٤).

ب- وقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾(٥).

جـ- ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾(٦).

---

(١) سورة التوبة آية ١١٤.

(٢) سورة هود عليه السلام الآية ٧٤، ٧٥.

(٣) سورة هود عليه السلام آية ٨٧.

(٤) سورة الحجر آية ٨٥.

(٥) سورة آل عمران آية ١٥٩.

(٦) سورة آل عمران الآية ١٨١.

د- وفي مجال ذكره سبحانه بعض سمات المؤمنين المتزنين يقول سبحانه: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً﴾[1].

هـ- وقد بين الباري سبحانه أن الجنة وما فيها من نعم لا تخطر على قلب بشر أعدت للمتقين حيث قال فيها عز وجل: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

فها أنت ترى أن المتقين المؤهلين للظفر بغفران الله وجناته هم المؤمنون المتصفون بالإنفاق وكظم الغيظ والعفو عن الناس، وكظم الغيظ هو الطريق لاكتساب الحلم.

وأما أدلة الحلم من قوله ﷺ وفعله فحدث عنها ولا حرج فمن الأحاديث الدالة على حلمه ﷺ:-

أ- عن أنس رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه بردائه جذبة شديدة، فنظرت إلى صفحة عنق النبي ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جذبته ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت فضحك، ثم أمر له بعطاء»[3].

وجاء في بعض رواياته أن الرسول ﷺ قال للأعرابي بعد قول الأعرابي- فانك لا تحمل من مالك ولا من مال أبيك-: لا، وأستغفرُ الله، لا، وأستغفر الله، لا، وأستغفر الله، لا أحمل لك حتى تقيدني من جذبتك التي جذبتني، فكل ذلك يقول له الأعرابي: والله لا أقيدكها فدعا الرسول ﷺ رجلا فقال له: احمل له على بعيريه هذين، على بعير شعيراً، وعلى الآخر تمراً.

(١) سورة الفرقان آية ٦٧.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٣٤.

(٣) متفق عليه وانظر الترغيب والترهيب المنذري ٣/ ٤١٩.

قال أبو هريرة «راوي الحديث»: ثم التفت الينا الرسول الله ﷺ فقال انصرفوا على بركة الله[1].

وجاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال للأعرابي: المال مال الله وأنا عبده، ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي. فقال الأعرابي: لا: فقال الرسول ﷺ: ولم؟ فقال الأعرابي: لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة ولكن تكافئ بالسيئة الحسنة. فقال ﷺ صدقت..[2].

ب- وعن عائشة ام المؤمنين- رضي الله عنها قالت: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً، ولا متفحشاً ولا صَخَّاباً في الاسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو، ويصفح»[3].

جـ - وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العُنْف**»[4].

د- وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما كان الرفق في شيء قط إلا زانه، ولا كان الفحش في شيء قط، إلا شانه»[5].

هـ- وجاء في كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى: «...كان مجلس رسول الله ﷺ مجلس حلم وخير وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤْبن فيه الحرم»[6].

(١) الحافظ المنذري، مختصر سنن ابي داود ٧/١٦٢. ١٢٨

(٢) متفق عليه وانظر كذلك رياض الصالحين ص ٣٤٤ لمحي الدين يحيى النووي.

(٣) أبو عيسى الترمذي الشمائل المحمدية ص ٢٧٤.

(٤) الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، موارد الظمآن الى زوائد ابن حبان ص ٤٧٢ تحقيق عبد الرحمن حمزة، دار الكتب العلمية.

(٥) صحيح مسلم وانظر رياض الصالحين ص ٣٤١، موارد الظمآن ص ٤٧٢.

(٦) القاضي أبو الفضل عباس البحيصي، كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/١٢٨.

وجاء في الشفا أيضاً: كان سلوكه ﷺ على أربع، على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكير»[1].

صور من حلمهﷺ:

١- حلمه مع الخدم، عن أنس رضي الله عنه قال: «والله لقد خدمت رسول لله ﷺ سبع سنين، أو تسع سنين ما علمت قال لشيء صنعت، لم فعلت كذا وكذا؟ ولا لشيء تركت هلا فعلت كذا وكذا»[2].

٢- وعن ثابت البناني عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين بالمدينة، وأنا غُلام ليس أمري كما يشتهي صاحبي أن أكون عليه، ما قال لي، أف قط، وما قال لي: لم فعلت هذا؟ أم ألا فعلت هذا؟[3].

٣- لما أراد الله تعالى هدى زيد بن سعنة قال زيد: لم يبق شيءٌ من علامات النبوة إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ إلا اثنتين، يسبق حلمه غضبه، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حِلما قال زيد: فقلت: يا محمد هل لك أن تبيعني ثمرا-معلوما لي- فباعني فاعطيته ثمانين مثقالاً من ذهب، فلما حل الأجل آتيته فأخذت بمجامع قميصه، وردائه، وهو في جنازة مع أصحابه، ونظرت إليه بوجه غليظ، وقلت له: يا محمد ألا تقضيني حقي؟ فو الله ما أعلم بني عبد المطلب إلاّ مطلا. ونظرت إلى عمر وعيناه تجولان في وجهه ثم رماني ببصره فقال: يا عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع؟ وتصنع به ما أرى؟ فلولا ما أحاذر لومه، لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون، وتؤده وقال: أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر! أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة اذهب به يا عمر واقضه حقه ، وزده عشرين صاعاً من تمر

(١) نفس المرجع السابق اعلاه ١/ ١٢٩.

(٢) الحافظ المنذري مختصر سنن أبي داود ٧/ ١٥٩ تحقيق محمد حامد الفقي قال ابن القيم وقد اخرجاه في الصحيحين من حدث انس.

(٣) مختصر سنن ابي داود ٧/ ١٦٠ والشمائل المحمدية لمحمد بن سورة الترمذي ط١، ص٢٧٣.

مكان ما روعته، فذهب بي عمر فأعطاني حقي، وزادني عشرين صاعاً، وقال لي: ما دعاك أن فعلت ما فعلت وقلت ما قلت؟ قلت: يا عمر! لم يكن من علامات النبوة شيء إلا عرفته في وجه النبي ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم اخبرهما منه، يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، وقد خبرتهما فأشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً، وأشهد أن شطر مالي صدقة على أمة محمد، ثم توفي في غزوة تبوك مقبلاً غير مدبر(١).

٤- والحلم الحقيقي يتجلى في العفو عند المقدرة، أما من يعتدي عليه، أو على عرضه، أو أرضه أو ماله، ووقف عاجزاً عن دفع العدوان وتأديب المعتدي ثم يزعم أنه إنما فعل ذلك أناة وحلما فتلك دعوى العجزة اللئام وفي مثل هؤلاء يقول الشاعر:

كل حلم أتى بغير اقتدار　　　حجة لاجئ إليها اللئام

أما الرسول ﷺ فلم يكن عفوه إلا عن مقدرة وبذلك فقد بلغ القمة في الحلم، ففي الصحيحين: «أن رجلا يدعى عورت بن الحارث - وكان مشركاً- قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟ فقال الله. فسقط السيف من يده، فأخذ رسول الله عليه وسلم السيف وقال: من يمنعك مني ؟ فقال: كن خير آخذ. قال: قل أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله فقال: لا غير أني لا أقاتلك، ولا أكون معك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى سبيله، فجاء أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس!(٢)

٥-وقسم رسول الله ﷺ قسماً فقال رجل من الانصار: هذه قسمة ما أريد

---

(١) رواه الطبراني في الكبير وقال: رجاله ثقات، وانظر الحافظ الهيثمي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٨/ ٢٤١، وانظر " ابو بكر جابر الجزائري كتاب هذا الحبيب يا محب ص ٥٢٨ ط١ مكتبة لينه للنشر والتوزيع دمنهور.

(٢) متفق عليه من حديث جابر، وانظر الغزالي احياء العلوم الدين ٢/ ٣٧٨.

بها وجه الله! فذكر ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه، فقال رحم الله أخي موسى، فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[1].

٦- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء عليهم صلاة الله تعالى وسلامه، ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[2].

٧- وقد تآمر عليه المنافقون وهو عائد من تبوك، فأرادوا قتله، وعلم بهم وقيل له فيهم فعفا عنهم وقال: «لا يتحدث أن محمداً يقتل أصحابه»[3].

٨- وأما الموقف الذي يستحيل أن يضارعه موقف لقائد أو زعيم على وجه الأرض فهو موقفه ﷺ تجاه قريش التي عادته أشد المعاداة وقلبت له ظهر المجن، ورمته عن قوس واحدة عندما دعاها إلى الله تعالى، فآذته ووجهت إليه المعايب التي هو منها براء وآذت المستضعفين من أصحابه بألوان العذاب حتى اضطرتهم للهجرة إلى الحبشة مرتين، ثم هاجر إلى المدينة المنورة، وعندما عاد إلى مكة المكرمة يوم الفتح ظافراً منتصراً، وجفت قلوب قريش إلا أنه سألهم، ماذا تظنون أني فاعل بكم؟ فقالوا خيراً أخ كريم. وابن اخ كريم. فما كان من نبي الهدى والرحمة الا ان اطلق عفوه الكريم العام بقولته التي ستظل تدوي في إذن التاريخ: «اذهبوا فانتم الطلقاء»! فقد تناسى في لحظة واحدة جميع الإساءات ولم يسمح لنفسه أن يجرح شعورهم ولو بكلمة واحدة. بل قال: انتم الطلقاء أي لا أحد يستطيع ان يقول: إنكم أسرى أو مذنبون أو مضطهدون وإنما طلقاء أصلاً وستبقون طلقاء[4].

---

(١) متفق عليه من حديث بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رياض الصالحين للنووي ص ٣٤٥.

(٣) ابو بكر الجزائري هذا الحبيب يا محب ص٥٣٠ وهو مذكور في جميع كتب السيرة وانظر مختصر زاد المعاد ص ٢٨٢ تأليف محمد بن عبد الوهاب.

(٤) يراجع في هذا كتب السيرة وانظر سعيد بني حزم، جوامع السيرة ص٢٩٩، وانظر موضوع العفو الذي هو صفة الحلماء لعفيف طبارة في كتاب روح الدين الاسلامي ط ٦ ص ٢١٦.

والمواقف التي تتحدث عن حلمه ﷺ كثيرة نجتزئ بما ذكر خشية الإطالة.

وحيث ان الرسول ﷺ هو القدوة العليا للمسلمين في كل مجالات الحياة، التي منها الحلم، فقد اقتدى به في الحلم جميع صحابته واتباعه وكان لهم في ذلك مواقف تحتذى وسنعرض من هذه المواقف:

١- شتم رجل ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، فلما قضى مقالته قال: ابن عباس: يا عكرمة انظر هل للرجل حاجة فنقضيها؟ فنكس الرجل رأسه، واستحيى.

٢- وأسمع رجل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما كلاماً شديداً، فقيل له: لو عاقبته فقال: إني لأستحيي أن يضيق حلمي عند ذنب أحدٍ من رعيتي.

٣- ودخل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه المسجد في ليلة مظلمة، فَمَرَّ برجل نائم فعثر به، فرفع رأسه وقال: أمجنون أنت؟، فقال عمر: لا. فقيل له في ذلك يعني لم لا تحاسبه فقال: لِمَ، إنه سألني أمجنون أنت فقلت: لا.

٤- وقال رجل لوهب بن منبه إن فلانا شتمك، فقال: ما وَجَد الشيطان بريداً غيرك[1].

٥- وعن ابن عباس رضي الله عنه لما قدم عيينة بن حصن المدينة نزل على ابن أخيه الجدّ بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضي الله عنه... فقال عيينة ابن أخي! استأذن لي على أمير المؤمنين فأذن له لما دخل عليه قال: هيه يا ابن الخطاب. فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال الحلم، يا أمير المؤمنين! إن الله يقول لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[2].

وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر رضي الله عنه، وكان وقافا

---

(١) انظر ابن قدامة المقدسي كتاب منهاج القاصدين ١٨٣-١٨٤.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٩٩.

عند كتاب الله تعالى ومواقف الحلم أكثر من أن تحصى.

ونظراً لما للحلم من منزلةٍ رفيعة في الإسلام إذ أنه بفضل الله ينجي من كثير من الأخطار، ويقي من الإسفاف ووضع المرء نفسه في مطارح السوء فقد توافرت أقوال الحكماء، في بيان فضل الحلم.

أ- عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم.

ب- وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر عملك، ويعظم حلمك، وأن لا تباهي الناس بعبادة الله تعالى.

جـ- قال أيوب السختياني: حلم ساعة يدفع شراً كثيراً.

د- واجتمع سفيان الثوري، وأبو خزيمة اليربوعي، والفضل بن عياض، فتذاكروا الزهد، فأجمعوا على أن أفضل الأعمال، الحلم عند الغضب، والصبر عند الجزع[1].

هـ- وقال لقمان الحكيم: «ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة: لا يعرف الحلم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه».

و- ومر السيد المسيح عليه السلام بقوم من اليهود، فقالوا له: شراً فقال لهم، خيراً، فقيل له، إنهم يقولون شراً، وأنت تقول خيراً، فقال: «كل ينْفق مما عنده»[2].

ز- وشتم رجل الشعبي فقال له الشعبي: إن كنت كما قلت، فغفر الله لي وإِن لم أكن، فغفر لك[3].

(١) الفقرات أ،ب،جـ عن كتاب الاحياء لابي حامد الغزالي جـ ٣ ص ١٧٩/١٧٨.

(٢) الفقرتان هـ، و من الحياء ٣/٢١٩.

(٣) احمد سعيد الدجوي، فتح الخلاق في مكارم الاخلاق (تحقيق عبد الرحيم مارديني ص١٧) مكتبة دار المحبة.

وعلى أية حال فلا يعد الحلم حلماً، إلا إذا صدر عن قدرة، وكانت الحال حال غضب تستدعي الحلم، وفي ذلك يقول الشاعر:

ليست الأحلام في حال الرضا   إنما الأحلام في حال الغضب

وقال آخر:

من يدعي الحِلْم أغضبْه لتعرفه   لا يعرف الحلم الا ساعة الغضب[1]

أسباب الحلم وبواعثه

قد يكون الحلم في الإنسان سجية مغروزة في كيانه منذ خلقه الله تعالى، وهذا هو أرفع أنواع الحلم إذ هو عطاء من الباري سبحانه وتعالى، إذ أنه إذا كان الأمر كذلك فإنه يصدر عن صاحبه عفواً صفواً من غير تكلف وليس جميع الناس كذلك، فكان لا بد من وسائل وأسباب يتوصل بها إلى تربية الحلم في نفوس الناس وتعهده حتى يستقر ويصبح كالنوع الأول، ولا غرو فإن التعود المتكرر يجعل الأمر عند المتعود عليه عادة فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم»[2].

وبناء على هذا فقد أورد الماوردي في كتابه « أدب الدنيا والدين » مجموعة من الأسباب والبواعث التي تربي الحلم في النفس وتنميه وهي:

١- الرحمة للجهال، قال أبو الدرداء لرجل أسمعه كلاما، يا هذا ! لا تغرق في سبنا ودع للصلح موضعا، فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله عزّ وجل فيه.

٢- القدرة على الانتصار، وذلك من سعة الصدر، وحسن الثقة، وقد قيل: « العفو عند المقدرة ».

---

(١) البيتان ماخوذان عن أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٢٤٨/٢٤٩.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٦١ والترمذي (٢١٩٢) وفي سنده علي بن زيد بن علي بن زيد جدعا وهو ضعيف. لكن له طريقة آخرى يتقوى به أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ٩/ ١٢٧.

٣- الترفع عن السباب، وذلك من شرف النفس، وعلو الهمة، وقد قيل: «إن الله تعالى سمى يحيى عليه السلام سيداً لحلمه.

٤- الاستهانة بالمسيء وذلك كما حدث مع مصعب بن الزبير رضي الله تعالى عنه لما ولي العراق إذ جلس يوما لعطاء الجند، وأمر مناديه فنادى: أين عمرو بن جرموز؟ وهو الذي قتل أباه الزبير. فقيل، أيها الأمير !؟ إنه قد تباعد في الأرض. فقال: أو يظن الجاهل أني أقيده بأبي عبد الله؟! فليظهر آمنا ليأخذ عطاءه موقرا. فعد الناس ذلك من مستحسن التكبر.

وفي هذا يقول بعض الشعراء:

أو كُلَّما طَنَّ الذُّبَابُ طردتُّه   إنَّ الذباب إذنْ عليَّ كريمُ

٥- الاستحياء من جزاء الجواب، وهذا يكون من صيانة النفس ، وكمال المروءة وقد قال بعض الحكماء: «احتمال السفيه خير من التحلي بصورته، فالإغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته».

٦- التفضل عن السباب ، فهذا يكون من الكرم، وحب التآلف فقد حكي عن الأحنف بن قيس أنه قال: ما عاداني أحد قط، إلا أخذت بأمره في إحدى ثلاث خصال: إن كان أعلى مني ،رفعت له قدره، وان كان دوني، رفعت قدري عنه، وإن كان نظيري تفضلت عليه.

٧- استكفاف الساب، وقطع السباب، وهذا يكون من الحزم، قال الشعبي في هذا المعنى: ما أدركت أمي فأبرها ولكن لا أسب أحداً فيسبها وفي هذا يقول الشاعر:

قُلْ مَاَ بدا لَكَ مْن زورٍ ومْن كَذِبِ   حلمي أصم، وأذني غير صماء

٨- الخوف من عقوبة الجواب، وهذا يكون من ضعف النفس، وربما أوجبه الرأي واقتضاء الحزم.

٩- الرعاية ليد سالفة (أي لمن صنع معه معروفاً سابقاً) وحُرْمَةٍ لازمة،

وهذا يكون من الوفاء، وحسن العهد، قال الشاعر:

إِنَّ الوَفَاءَ عَلَى الكَرِيم فَرِيضَةٌ ... واللُّؤم مَعْروف بِذِي الإِخْلاَف

١٠- المكر، وترقب الفرص الخفية، وهذا يكون من الدهاء، وفي هذا يقول بعض الحكماء:

إذا سكَتَّ عن الجاهل ، فقد أوسعته جوابا، وأوجعته عقابا.

وقال إياس بن قتادة:

تُعاقِب أَيدينا وَيَحْلمَ رَأْيُنا ... وَنَشتُم بِالأَفْعَال لا بِالتَّكَلُّم[1]

على أن جميع ما ذكر من مدح الحلم ووجوب الاتصاف به لا يمنع أن يغضب الحليم إذا انتهكت الحرمات فقد قال الماوردي نفسه: «فإذا فُقِدَ الغضب لسماع ما يُغْضِبُ، كان ذلك من ذل النفس، وقلة الحمية».

فمن فقد الغضب في الأشياء المغضبة حتى استوى حالتاه: قبل الإغضاب وبعده؛ فقد عدم من فضائل النفس: الشجاعة، والأنفة، والحمية، والغيرة، والدفاع ، والأخذ بالثأر[2].

الغضب:[*]

بعد أن تحدثنا عن الحلم، وذكرنا منه إنماطاً ومواقف، وبينا فضله والمخاطر التي يقيها الله عبده المؤمن الحليم، فإنه قد يعن لمن يطلع على تلك المزايا والخلال أن يتمادى على الحلماء ظناً منه أنَّ الحليم لا يغضب حتى لو اعتدى على عقيدته، أو نفسه أو عرضه، أو ماله.

وبذلك يسهل على الثقلاء أن يمتهنوا كرامة الحليم، ويدوسوا شرفه ومنعاً لمثل ذلك الالتباس فإننا نعرض «للغضب» مبينين أن بعض الغضب فضيلة وبعضه

(*) د. محمد الشلبي.

(١) الفقرات من ١-١٠ مأخوذة بتصرف من أدب الدنيا والدين من ص ٢٤٥-٢٤٨.

(٢) عن أدب الدنيا والدين باختصار ص ٢٤٨-٢٤٩.

من أسوأ الرذائل التي يجب على المسلم اجتنابها، ومحاربتها وعدم التدنس بها فنقول: إن الغضب غريزي في الإنسان ومنه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم، وقد جاء في الكتاب والسنة أن الله تعالى يغضب، والرسل الكرام يغضبون، وكذلك صلحاء المؤمنين.

تعريف الغضب:

الغضب نقيض الرضا قال ابن عرفة: الغضب من المخلوقين شيء يداخل قلوبهم ومنه محمود ومنه مذموم، فالمذموم ما كان في غير الحق، والمحمود ماكان في جانب الدين والحق[1].

وقد يكون الغضب من الله تعالى، وهو إنكاره على من عصاه فيعاقبه [2].

وقد عرفه صاحب كتاب منهاج القاصدين بقوله « هو غليانُ دَم القلب لطلب الانتقام»[3].

وعرفه صاحب كتاب سبل السلام بأنه: « حركة النفس إلى خارج الجسد لإرادة الانتقام»[4].

وجاء في كتاب (الذريعة إلى مكارم الشريعة) [5]«الغضب في الإنسان بمنزلة نار تشتعل».

وجاء في إحياء علوم الدين للغزالي: «الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة وإنها المستكنة في طي الفؤاد، استكنان الجمر تحت الرماد ويستخرجها

(١) محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب ٤/ ٩٦٢.

(٢) محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب ٤/ ٩٦٢، انظر كذلك محمد بن أبي بكر الرازي مختار الصحاح ص١٩٩.

(٣) أحمد بن عبد الرحمن المقدسي الشهير بابن قدامة، منهاج القاصدين، ص ١٧٩.

(٤) محمد بن إسماعيل الصنعاني ، سبل السلام ٤/١٨٣.

(٥) محمد بن الفضل المعروف بالراغب الاصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص ٣٤٥ الطبيعة الأولى مطبعة دار الصحوة القاهرة.

الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد»[1].

الجملة والغضب قد يكون لأمور الدنيا وقد يكون لأمور الآخرة. وقد يكون غضباً للنفس كما يكون للغير إذا اعتُدِي على الفئات الضعيفة، أو الحيوانات التي لا تستطع أن تدرأ عن نفسها اعتداءات أبناء آدم، وقد يكون إذا اعتُدِي على حرمة من حرمات الله تعالى ومن هنا يمكن تصنيف الغضب إلى غضب محمود، وغضب مذموم.

والله تعالى يغضب، والرسل الكرام يغضبون لله وصلحاء المؤمنين يغضبون لله وغضبهم هو الغضب المحمود، وأما ما كان لأمر دنيوي كمن يغضب لعرض دنيوي فاته، أو من غضب لنفسه فقط دون وجه مشروع، فذلك هو الغضب غير المحمود وقد وردت آيات كثيرة تدل على غضب الله تعالى وأخرى تَدُلُّ على غضب الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله تعالى، وسلامة، فمن ذلك:

١- قال تعالى: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾[2].

٢- وقال تعالى: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[3].

ومن الآيات التي تدل على أن الرسل يغضبون:

أ- قوله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ﴾[4].

٤- وعندما عاد موسى عليه السلام من ميقات ربه عز وجل ووجد قومه قد صنعوا الحُليَّ عجلا يعبدونه استبد به الغضب حتى كاد يبطش بأخيه هارون عليه السلام قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي

---

(١) محمد بن محمد الغزالي، احياء علوم الدين ٣/ ١٦٤ ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.

(٢) سورة النساء آية ٩٣.

(٣) سورة الاعراف آية (٥٤).

(٤) سورة الفتح ٦ ، سورة طه آية٨٦.

مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾(١). وقد تكررت هذه الآية/ وفي سورة طه ٨٦.

٥- وقال تعالى بحق نبيه يونس عليه السلام: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً﴾(٢).

٦- وذكرت الآيات الكريمة أنَّ المؤمنين يغضبون، ولكن لا يستبد بهم الغضب بحيث يتلاعب بهم الشيطان، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾(٣).

وقد تكرر ذكر الغضب بصور مختلفة في القرآن الكريم حسب مقتضيات الأحوال وبموجب المواقف الداعية إلى الغضب.

وقد جاء الحديث الشريف أنَّ نبيّنا محمدا ﷺ كان يغضب، بيد أنه لم يكن يغضب لتوافه الأمور ومحقراتها فلم يكن يغضب إلا إذا انتهكت حرمات الباري عز وجل:-

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ البَشَرُ، فَأَيُّمَا رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ سَبَبْتُهُ أَوْ لَعَنْتُهُ، أَوْ جَلَدتُه فَاجْعَلْهَا لَهُ صَلاةً وَزَكَاةً، وَقُرْبَةً تُقَرِّبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَاجْعَلْ ذَلكَ كَفَّارَةً لَهُ إِلى يَوْمَ القِيَامَةِ»(٤).

وعن أبي هريرة أيضا قال: «كان رسول الله ﷺ إذا غضب وهو قائم جلس، وإذا غضب وهو جالس اضطجع ، فيذهب غضبه»(٥).

---

(١) سورة الاعراف آية ١٥٠.

(٢) سورة الأنبياء آية ٨٧.

(٣) سورة الشورى آية ٣٧.

(٤) عن عمل المسلم في اليوم والليلة ص ٢٦٧-٢٦٨ محمد طارق وعزاه الى البخاري ومسلم، مطابع دار احياء التراث، قطر.

(٥) البرهان فوزي، كنز العمال ٧/ ١٨٤.

وعن أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت:- كان ﷺ إذا غضب لم يجترى عليه إلا عليٌّ رضي الله تعالى عنه[1].

وروى ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن أُمّ سلمة رضي الله تعال عنها قالت: كان ﷺ: إذا غضب، احمرت وجنتاه[2].

الغضب لله تعالى:

وقد كان ﷺ لا يغضب لنفسه قط، وإنما كان غضبه كله لله تعالى إذا انتهكت حرمة من حرماته أو استهين بحد من حدوده، أو جَرَى بين المسلمين من المشادات الكلامية ما يؤدي إلى الخصام والتدابر، فكان يغضب لذلك:

أ- فعن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، «**لا تمار اخاك ولا تمازحه**»[3]. وهذا إنما قال له رسول الله تعالى خشية ان يؤدي الى لإثارة فالغضب ثم إلى الخصومة التي قد تولد الشحناء، والبغضاء وتقطيع أواصر المحبة لذلك حذر ﷺ من كل ما ينجم عنه قطيعة او فساد مودة بين المسلمين .

ب- وروى الطبراني في المرء أن جماعة من الصحابة الكرام قالوا: «**خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نَتَماري في شيء من امر الدين، فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله قط ثم انتهرنا وقال: أبهذا يا أمة محمد أمرتم؟ إنما أَهْلِكَ من كان قبلكم بمثل هذا**».

جـ- «**ذروا المراء لقلة خيره، ذروا المراء فان المؤمن لا يماري، ذروا المراء فان المماري قد تمت خسارته ، ذروا المراء كفى أن لا تزال مماريًا ذروا المراء فان المماري لا اشفع له يوم القيامة ذروا المراء فانا زعيم ببيت في الجنة في رياضها: أسفلها، و**

(١) كنز العمال المصدر السابق ص ١٤٨ ج٧.

(٢) كنز العمال برقم ٧/ ١٨٤ .

(٣) الصنعاني ، سبل السلام ج٢ ص ١٩٦ .

أوسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق، ذروا المراء فإنه أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الاوثان»[١].

لا يدخل في المراء المنافسات العلمية:

هذا وليعلم أن المناظرات العلمية التي تُنَاقش فيها الأمور مناقشات علمية هادفة لا تدخل تحت التحذير الوارد في هذا الحديث الشريف، إذ إن غايتها كشف الحقيقة عن طريق المجادلة بالحسنى التي قال عنها الله تبارك تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٢].

وعن عائشة رضي الله تعالى قالت: «إن قريشاً أهمهم أمر المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: من يجترئ عليه الا أسامة بن زيد حبُّ رسول الله ﷺ، فكلمه اسامة فقال رسول الله ﷺ: أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فاختطب فقال: إنما اهلك من كان قبلكم من الأمم انهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف، تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها[٣].

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «قدم رسول الله ﷺ من سفر وقد سترتُ سهوة[٤] لي بقرام فيه تماثيل، فلما رآه رسول الله ﷺ: هتكه وتلون وجه، وقال: يا عائشة اشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يُضاهُون بِخَلْق الله»[٥].

وعن ابي مسعود عقبة بن عمرو البدري رضي الله تعالى عنه قال: «جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال: «إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان- مما

(١) الصنعاني، سبيل السلام ٢/١٩٦.

(٢) العنكبوت ٤٦.

(٣) متفق عليه.

(٤) السهوة كالصفة تكون بين يدي البيت، والقرام ستر رفيق.

(٥) أي الذين يشبهون ما يصنعونه بما يصنعه الله تعالى والحديث (متفق عليه).

يطيل بنا[1]-فما رأيت رسول الله ﷺ غضب في موعظة قط اشد مما غضب يومئذ فقال: يا ايها الناس ان منكم منفرين، فأيكم أم الناس ، فليوجز فان من ورائه، الصغير والكبير وذا الحاجة»[2]

قال جل شانه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ. أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾[3].

ولقد ذم الله تعالى الغضب بغير حق، كما ذمه الرسول ﷺ وحذر منه قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[4].

فقد ذم الله سبحانه وتعالى الكفار بما تظاهروا به من الحمية التي هي من صفات الجاهلية إذ إنها صادرة عن الغضب بالباطل، ومدح المؤمنين بما أنزل عليهم من السكينة والوقار اللذين هما ضد النَّزَق والطيش والحمق.

التحذير من الغضب ومن عواقبه

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قُلتُ: «يا رسول الله ما **يمنعني من غضب الله تعالى؟ قال: لا تغضب ، وجاء في احدى طرق الحديث ان الرسول ﷺ أعاد على السائل اذ قال له: زدني ثلاث مرات بقوله له في كل مرة: لا تغضب**[5].

(٦) لأنه يؤمهم فيطيل عليهم

(٢) متفق عليه، وانظر رياض الصالحين ص ٣٤٨ وانظر الغضب لله تعالى مفصلا في سبل السلام للصنعاني ج٤ ص١٨٣.

(٣) سورة محمد آية ٢٢.

(٤) سورة الفتح آية ٢٦.

(٥) نور الدين علي بن أبي عمر الهيثمي، موارد الظمآن ص ٤٨٤.

وقال ﷺ : «**الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل**»(١) .

وعن عطية بن عروة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ**»(٢) .

فأمعن يحميك الله النظر في الأمور التي يغضب لها رسول الله ﷺ نَجدْ أنها ما كانت إلا لله تعالى ولم يكن لحظ نفسه الشريفة منها شيءٌ أبدا وكل ماجاء في سيرة رسوله ﷺ يدل دلالة يقينيه أنه كان يستغضب أحياناً فما يجاوز حدود التكرم، والإغضاء، ولم ينتقم لنفسه قط كما أسلفنا.

وقد ظهر من الحالات التي غضب لها: المراءُ، والشفاعَةُ في حَدِّ السرقة، والإطالة في الصَّلاة وذلك مما لا يدع مجالا لمشكك أو مرتاب في أنه نبع الحلم والأدب.

وفي واقعة الشفاعة في حد السرقة يقسم أن فاطمة التي هي بَضْعَة منه لو سرقت لقطع يدها، وهو إذ يقسم على ذلك يريد قطع آمال من يرجو أن يتهاون محمد ﷺ في حد، أو تعزيز لكي يتخذها وسيلة للطعن والتشهير ولذا تراه ﷺ يجزم بعدم التهاون بحق فاطمة فهو يسوق الكلام في فاطمة رضي الله عنها على سبيل الفرض الذي يستعمل فيما لا يكون أصلا فَحَاشَا فاطمةُ رضي الله تعالى أن تسرق، ولكنه بيان لحكم شرعي مؤداه ان الحد إذا بلغ الحاكم فلا شفاعة، وأن الله تعالى يلعن الشافع والمشفع وهذا الموقف منه ﷺ يغرس في حس المسلم ووجدانه أن الأمة يجب عليها أن لا تأخذها في الحق لومه لائم، وأنه ينبغي أن يكون المسلم وقافاً عند حدود الله تعالى، ناصراً لدينه حربا لأعدائه فلا يحتج

---

(١) عبد الرحمن بن علي الشيباني ،تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث

(٢) رواه احـمـد في المسند ٤/ ٢٢٦، وابو داود في الأدب ٤٧٥٩ والنووي في الاذكار برقم ٧٨١، وانظر ابن قدامة منهاج القاصدين ص ,١٧٨

بالحلم، ولا بالرفق، ولا بمبادئ الرحمة لأنها جميعاً تستعمل عندما يكون الأمر ممكناً، ويكون الطرف الآخر ممن يستحقها ويقدرها، لا ممن إذا عاملته باللين، والرفق، والرحمة، والحنان سخر منك، وَثَنَى عطفه استخفافاً واستكباراً، ورماك بالبلة والحمق والاستغفال مع مراعاة أن شيئاً من هذا التسامح لن يكون أبداً إذا كان الجاني انتهك حرمة من حرمات الله تعالى.

والغضب إذا لم يكن لله تعال فهو مذموم لأنه محال أن يأتي بخير فلن ينتج الغضب إلا العداوات، والأحقاد والقتل، والتخريب، وتقطيع أوصال المودة، ووشائج القربى التي جعلها الله تعالى قرينة الفساد في الأرض.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ان الله يبغض كل جَعْظَرِيٌّ (وهو الغليظ المتكبر) جَوَّاظ (جموع منوع) سَخَّاب في الأسواق، (وهو كالصخاب كثير الضجيج والخصام) جيفة بالليل، حِمَارٍ بالنهار، عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة»**(١).

وروى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أن رجلا قال: **«يارسول الله مرني بعمل واقلل، قال: لا تغضب، ثم اعاد عليه فقال: لا تغضب، وفي رواية «ولا تكثر لعلي اعيد»**(٢).

ومن أقوال السلف الصالحين:

قال الحسن: «يَا ابْنَ آدم كُلَّمَا غَضِبْتَ، وَثَبْتَ ويوشك أن تَثِبَ وَثْبَةً فَتَقَعَ في النار»(٣).

وقال بعضهم: «اياك والغضب، فإنه يُصَيِّرك الى ذل الاعتذار وكان عمر

---

(١) موارد الظمآن ص ٤٨٥.

(٢) فتح الباري ١٠/ ٤٣١، البخاري ١/ ٦٣١، ومعابر الظمآن حديث رقم ١٩٧٢ ص ٤٨٤.

(٣) تهذيب احياء علوم الدين ٢/ ٦٩ لعبد السلام هارون.

رضي الله تعالى عنه إذا خطب قال في خطبته: افلح منكم من حفظ من الطمع، والهوى، والغضب[1].

وقيل لعبد الله بن المبارك: أجمل لنا حسن الخلق في كلمة، فقال: «اترك الغضب».

الأسباب المهيجة للغضب:

جاء في تهذيب الأحياء: من أهم الأسباب المهيجة للغضب ، الزهو، والعجب، والمزاح، والهزل، والهزء، والتعيير، والمضادة، والغدر وشدة الحرص على فضول المال، والجاه، وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعاً، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب وإزالتها تكون بأضدادها.

فينبغي أن تميت الزهو، بالتواضع، وتميت العجب، بمعرفتك بنفسك، وتزيل الفخر، بأنك من جنس عبدك اذ الناس يجمعهم بالانتساب أبٌ واحد، وإن اختلفوا في الفضل أشتاتاً وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر، وتفضل عنه، وأما الهزل فتزيله بالجد في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة وأما الهزء فتزيله بالتكرم عن إيذاء أناس، وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك، وأما التعيير فبالحذر عن القول القبيح وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة فيقدر الضرورة ترفعا عن ذل الحاجة[2].

وقد وردت في كل هذه المزايا آيات كريمة وأحاديث شريفة تدعو إليها، وتحذر من أضدادها.

وقد جاء في كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة[3]: أن أسباب الغضب

---

(١) تهذيب الاحياء ص ٢٩ ج ٢.

(٢) عبد السلام هارون تهذيب الاحياء ٢/ ٧١

(٣) انظر الحسن بن محمد المعروف بالراغب الاصبهاني، الذريعة الى مكارم الشريعة ص ٢٤٥ ط١ مطبعة دار الصحوة القاهرة.

هي: العُجْبُ، والافتخار، والمراء، واللجاج، والمزاح، والتيه، والضيم، والاستهزاء، وطلب ما فيه التنافس، والتحاسد وشهوة الانتقام.

وحيث إن الغضب يجعل الإنسان يفقد اتزانه ، فقد نهى النبي ﷺ عن القضاء ساعة الغضب إذ إن الغضب قد يجعل القاضي يحيد عن صراط العدالة ولا يحقق النصفة في قضائه.

فعن أبي بكر رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله عليه وسلم يقول: **«لاَ يَقْضِيَنَّ حَاكِمٌ بين اثنين وهو غضبان»**(١).

علاج الغضب عند هيجانه

ماذا يقول الإنسان إذا غضب ، وماذا يفعل:

لقد سبق الإسلام جميع مناهج علم النفس، وما يسمونه بالتربية الحديثة التي تقول بتغيير وضع الإنسان من حالة إلى حالة، ومن وضع إلى آخر عند ثوران الغضب لكي يساعده ذلك في تهدئة غضبه وجاءت في ذلك أحاديث عن الرسول ﷺ.

أ- ففي تغيير وضع الغاضب من هيئة جسدية الى أخرى ما وراه أبو ذر رضي الله عنه «أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«إذا غضب احدكم وهو قائم، فليجلس فإن ذهب عنه الغضب، والا فليضجع»**(٢).

وعن سليمان بن صرف قال: «استَبَّ رجلان عند رسول الله صلى الله علية وسلم ونحن جلوس عنده، واحدهما يسب صاحبه وهو مغضب قد احمرت عيناه ووجهه فقال رسول الله ﷺ: اني لأعلم كلمة لو قالها اذهب الله عنه ما يجد. لو قال: اعوذ بالله من الشيطان الرجيم فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول

(١) محمد بن علي الشوكاني، نيل الامطار ٩/ ١٧٧ مطبعة دار الجيل بيروت لبنان، وقال الشوكاني، رواه الجماعة.

(٢)موارد الظمآن ص ٤٨٤ رقم ١٩٧٣ مرجع سابق ومسند احمد ٥/ ١٥٢ وابو داود.

رسول الله ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون[١].

وفي الحديث دلالة على أنَّ الغضب متسبب عن عمل الشيطان، ولهذا كانت الاستعاذة مُذْهِبَةٌ للغضب[٢].

والأحاديث الآمرة بالاستعاذة منسجمة مع الآيات الكريمة إذ إنَّها مستمدة منها فقد قال تعالى:-

أ- ما يدل على أن الاستعاذة مذهبه لسلطان الشيطان وذلك في قوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾[٤].

قال سبحانه: ﴿وَإِماَّ يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٥].

وقال جل وعلا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٦].

وقد أوجب الرسول ﷺ على مَنْ غَضِب أن يسيطر على نفسه فيلزمها الانضباطية ويمنعها من التمادي في الغضب حبا بالتظاهر بأنه رجل قوي وقادر على ان يصرع غيرها، وبذلك يكون الرسول ﷺ قد غير مفاهيم العرب في

---

(١) البخاري ومسلم وابو داود والنسائي والترمذي.

(٢) محمد بن علي الشوكاني تحفة الذاكرين ص ٢٠٧، مكتبة المتنبي القاهرة.

(٣) سورة النحل الآية ٨٩/ ١٠٠.

(٤) سورة المؤمنون آية ٩٧ .

(٥) سورة الأعراف ص ٢٠٠.

(٦) سورة فصلت الآية ٣٦.

الجاهلية وصدر الاسلام، فقد سأل عليه الصلاة والسلام ؟اصحابه ماذا تعدون الصرعة فيكم؟ فاجابوه: بانه هو الذي يصرع الرجال فقال: «**ما تعدون الصرعة فيكم؟ قالوا: الذي لا تصرعه الرجال. قال: ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب**»[1].

وفي رواية: «**ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب**».

وفي مسند احمد: « فإذا غضب احدكم فليتوضأ[2].

ومما ورد في تسكين الغضب انه يحسن بمن شاهد الغضبان أن يخفف عنه ما استطاع ليهدئ غضبه، ومن الأساليب المجدية في ذلك مداعبته مداعبة لطيفة فعن عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها قالت: «**دخل عليَّ النبي ﷺ وانا غضبي فأخذ بطرف المفصل من انفي فحركه ثم قال: يا عويش! قولي اللهم اغفر لي ذنبي، واذهب غيظ قلبي، وأجرني من الشيطان**»[3].

وقد لخص الغزالي علاج الغضب بعد هيجانه بأمرين هما: العلم والعمل ثم قال: اما العلم فهو ستة أمور هي:

١- معرفة فضل كظم الغيظ، والعفو، فينطفيء غيظه.

٢- نخويف نفسه بعقاب الله تعالى وهو أن يقول: قدرة الله تعالى علي أعظم من قدرتي على هذا الانسان.

٣- يحذر نفسه عاقبة الغضب، والانتقام في الدنيا، إن كان لا يخاف من الآخرة.

---

(١) متفق عليه، وقد أورده النوري في الأذكار ص ٤٠٤.

(٢) مسند محد ٤/٢٢٦.

(٣) السيد محمد صديق خان كتاب نزل الأبرار العلم الماثور من الأدعية والأذكار ط٢ ص ٣٧٠، وعزاه الى ابن السني، واورده النوري في الأذكار المنتجة برقم ٧٨٠ ص٤٠٦.

٤- يفكر في قبح صورته عند الغضب، وأنه عندئذ يشبه الكلب الضاري والسبع العادي، بينما الحليم التارك للغضب، يشبه الأنبياء، والأولياء ، والعلماء الحكماء.

٥- أن يفكر في السبب الذي يحمله على الغضب، كوسوسة الشيطان له، إن هذا يحمل منك على العجز والذلة والمهانة، فيرد وسوسة الشيطان بقوله لنفسه: أتحذَرين من أن تصغري في أعين الناس، ولا تحذري أن تصغري عند الله تعالى، والملائكة والنبيين عليهم السلام.

٦- أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على مراد الله تعالى، لا على مراده فكيف يقول: مُرادي أولى من مراد الله تعالى ؟!.

هذا هو الأمر في مجال العلم كما أراده الغزالي، وقد أجاد وأفاد، ولم يبق بعد ذلك مقالة لأحد، أو استزاده لمستزيد، فمن أراد أن يجعل لنفسه خطاماً وَزِماماً يحول بينها وبين الغضب فعليه بعد استظهار ما ورد في كظمه من آيات وأحاديث أن يطلع على هذه وصايا القيمة، فيعمل بها، والله تعالى يوفقه، ويهديه.

وأما ما ارتآه في ميدان العمل فهو، أن تقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإن لم يزل بذلك، إن كنت قائماً، فاضطجع، إن كنت جالساً فاقرب من الأرض التي منها خلقت، لتعرف بذلك نفسك، واطلب بالجلوس والاضجاع السكون، فإن سبب الغضب، الحرارة، وسبب الحرارة، الحركة فإن لم يزل بذلك، فليتوضأ المرء بالماء البارد ، أو ليغتسل»[1].

وقد أورد في نفس الجزء والصفحة، أن عمر رضي الله عنه غضب يوما، فدعا بماء فاستنشق وقال: إن الغضب من الشيطان، وهذا يُذْهِب الغضب.

ومن الوضوح بمكان أن المصدر الذي استقى الغزالي منه هذه الآراء

---

(١) عبد السلام هارون تهذيب الاحياء ٢/ ٧٣.

والنصائح إنما هو كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، كما سلف فيما أوردنا من آيات وأحاديث.

وجاء في كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة حول علاج الغضب عند هياجه: «من اعتراه الغضب عليه ان يتفكر: فإن المغضوب عليه تحت يده فلا معنى لاستطالته إذ هو متمكن الانتقام منه على سكون الجأش، وان كان غضبه ممن لاسبيل له عليه، فلا معنى لتعذيبه نفسه في الحال، بل حقه أن يصبر حتى يتمكن منه، ثم يفعل الواجب ، ثم قال: « ونصح حكيم أحد السلاطين ما الذي يعينه على عدم الغضب فقال: تحقق أن الله يراك دائماً ، فإذا فعلت ذلك، لم تغضب، وإن غضبت، كان ذلك قليلاً»[1].

وجاء في كتاب أدب الدنيا والدين[2] حول تسكين الغضب ما يلي:

أ- أن يكثر الغاضب ذِكر الله عز وجل لأنه يبعث فيه خوف الله تعالى وطاعته فيعيده الى أدبه وقد استشهد لهذا بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

أن يتذكر ما يؤول إليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام.

جـ- ومنها أن يذكر ثواب العفو وحسن الصفح، فيقهر نفسه على الغضب رغبة في الجزاء والثواب. وحذرا من استحقاق الذم والعقاب.

د- أن يذكر انعطاف القول عليه، وميل النفوس إليه، فلا يميل إلى تنفير الناس عنه فيكف عن الغضب.

وهناك أقوال لبعض الحكماء في الترغيب بضبط النفس وتحبيب المسارعة في

---

(١) الحسن بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني مرجع سابق، ص ٢٤٦، وانظر في تصرف الإنسان حيال الغضب سبل السلام للصنعاني ٤/ ١٨٣، وقد بوب البخاري في صحيحه (بابا) خاصاً بالغضب وانظر كذلك ابن قيم الجوزية الداء والدواء ص ١٢١/ ١٢٢، واحمد بن عبد الرحمن بن قدامة، منهاج القاصدين حنشا حيث أ,رد ستة امور ليستعان بها على اخماد الغضب.

(٢) ابو الحسن علي بن محمد المشهور (بالماوردي) أدب الدنيا ص ٢٥٠ مطبعة دار الكتب العليمة، بيروت لبنان.

تسكين الغضب نورد بعضها إحرازاً للفائدة.

قال بعض البلغاء: «ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام، ولا من شروط الكرم إزالة النعم!».

وقال المأمون الخليفة العباسي: « إني شاورت في أمرك، فأشاروا على بقتلك - إلا أني وجدت قدرك فوق ذنبك، فكرهت القتل للازم حرمتك».

فأجابه إبراهيم بن المهدي بقوله: ان المشير بما جرت به العادة في السياسة، إلا أنك أبيت أن تطلب النصر إلا من حيث ما عودتّهُ من العفو، فإن عاقبت: فلك نظير، وان عفوت فلا نظير لك، ثم انشد في ذلك أبياتا منها:

تعفو بعدل وتسطو ان سطوت به فلا عَدِمْتُكَ من عاف، ومنتقم[1]

وعلى أية حال فختام القول في هذا المجال أن يقال: إن سرعة الغضب وشدة الانفعال هما ضد التؤوة، والتمهل والرصانة والاتزان وهما لا يأتيان بخير، ولا ينتج عنهما إلا أسوأ النتائج وأوخم العواقب اللهم إلا إذا كان لله تعالى، وبالله ومن أجل الله.

(١) المصدر نفسه ص ٢٥٢.

المبحث السابع
الإيثـار والأثـرة (*)

الإيثـار

الإيثار في اللغة هو تفضيل الغير على النفس، أو هو تفضيل شخص على شخص، أو شيء على شيء، يقال: آثرت فلاناً على نفسي، من الإيثار وهو التفضيل[(١)]. وفي المعجم المحيط: آثره إيثاراً: اختاره وفضله، ويقال: آثره على نفسه، والشيء بالشيء خصه، وجعله يتبع أثره[(٢)].

وأما في الاصطلاح:

فقد جاء في جامع القرآن للقرطبي: «الإيثار هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنياوية رغبة في الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن توكيد اليقين، وقوة المحبة، والصبر على المشقة. يقال: آثره بكذا: أي خصَّه به، وفضَّلَهُ. وقال ابن قدامة: أن تجود بالمال مع الحاجة إليه».

ويكون الإيثار على النفس لا عن غنى بل مع الحاجة إلى الشيء. ومن فعل هذا، فقد وُقي شح نفسه، وأفلح فلاحاً لا خسارة بعده[(٣)].

(*) د. محمد حسن الشلبي.

(١) لسان العرب لابن منظور١/ ٢٠، ومحمد بن ابي بكر الرازي مختار الصحاح١/ ٣ مكتبة لبنان

(٢) د. ابراهيم أنيس وآخرون- المعجم الوسيط ١/ ٥ إدارة احياء التراث الاسلامي بقطر.

(٣) القرطبي ١٩ : ١٨، ومنهاج القاصدين ٢٠٥.

ويؤكد هذا ما ذكره مالك في الموطأ[1] عن عائشة رضي الله عنها: «أن مسكيناً سألها وهي صائمة، وليس في بيتها إلا رغيف فقالت لمولاة لها أعطيه إياه، فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه. فقالت: أعطيه إياه. قالت: ففعلت. قالت: فلما أمسينا أهدي لنا أهل بيت أو انسان ما كان يهدي لنا، شاةً وكفنها[2]. فدعتني عائشة فقالت: كلي من هذا؛ فهذا خير من قُرْصِك.

وحيث كان الإيثار كذلك، فإنَهُ يعد صفة من الصفات السامية التي تكاد تنقل الإنسان من عالم البشر إلى عالم الملائكة حيث إن النفوس مجبولة على الشح وعلى حب الخير، والحيازة لذاتها فإذا طهرت النفوس من رذيلة الشح وتحولت إلى نفوس معطاءة تجود بأقل القليل مع شدة حاجتها إليه، فانها عند ذلك تقف على الجانب المضاد من حب الإنسان لنفسه الذي هو فطرة النفوس، والذي قال عنه الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾[3].

والإيثار من أجل الصفات الكريمة التي يتحلى بها الإنسان، وهو شعار النفوس الكبيرة الساعية لخدمة الانسانية، والعاملة لتخفيف ويلات البشرية.

مظاهر الإيثار

يظهر الإيثار في مظاهر شتى من سلوك المسلم، فهو حين يلبي داعي الجهاد ويفارق الأهل والزوجة والديار والأولاد، ناشداً مرضاة الله في طلب الاستشهاد باذلاً دمه رخيصاً لرد عاديه عن أرض المسلمين، أو الذود عن أموالهم، وأعراضهم فإنه يطبق معنى جليلاً من معاني الإيثار.

إذ هو يجودُ بأعز ما يملك وهو النفس وفي هذا يقول الشاعر:

يَجودُ بالنفس إن ضَنَّ البخيل بها ... وَالجُودُ بالنَّفْس أَقْصَى غَايَة الُجودِ

---

(١) الموطأ كتاب الصدقة حديث ٥.

(٢) المراد بكفنها عجين تغطي به وتسوي.

(٣) النساء ١٢٨.

وهنالك الإيثار ببعض البدن كالتبرع بالأعضاء حال الحياة، كأن يتبرع لأخيه أو صديقه بكليتيه، أو كلية واحدة.

كذلك يبدو الإيثار في مجال الجود، والكرم بالمال الذي هو صنو الروح، والذي قَرَنَهُ الله تعالى مع الولد في أنه زينة الحياة الدنيا، فعندما يبذله المُسلِم ليقري ضيفاً، ويؤويه؛ فإنه بذلك يحقق مجالاً من مجالات الإيثار.

وأجل من ذلك بذل المال في مجالا الانفاق على الفئات الكسيرة الجناح والمستضعفة في المجتمع: كالأرامل، والأيتام، وجميع المعاويز والمحتاجين.

الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾(١).

ومثل ذلك الإنفاق في إنشاء المشاريع النافعة، وإقامة المرافق العامة التي تعتبر ملكاً عامّاً يعم نفعها جميعَ الناس بلا استثناء.

يقول الاستاذ عفيف طَبَّارة:

فالنهوض بهذه الاعباء الاجتماعية لدرء غائلة الجوع، أو الفقر، أو المرض أو فكاك الأسير- المذكور في الآية السابقة- إنما يعبر عن ايثار المرء غيره على نفسه، باقتطاع جزء من المال الذي هو صنو الروح، ليكُفَّ دَمْعَةَ مسكين ويجبر قلبا جريحا ومثل هذه الصنائع يولد في المجتمع المحبة والاحترام، ويطهره من الضغائن والأحقاد.

فالإيثار له أكبر الأثر في توثيق المحبة بين أفراد المجتمع إذ يجعلهم متعاطفين متعاونين، وقد ثبت في علم النفس الحديث، أن سعادة الإنسان لا تتحقق بغير تضحية النفس في سبيل الغير(٢).

---

(١) سورة الانسان الآية ٨/ ٩

(٢) عفيف طبارة، روح الدين الاسلامي ص٢٢١.

بواعث الإيثار

للإيثار بواعث كثيرة بعضها نابع من الفطرة الإنسانية كباعث حب المرء لولده، وحبه لوالديه، وحبه لأهله وعشيرته، وحبه للأرض التي نشأ عليها، وهذا الباعث يشترك فيه الإنسان والحيوان حيث يشاهد أن بعض الحيوانات تفتدي صغارها بنفسها، وبعض هذه البواعث مرده إلى أَمْر مصلحي، وبعضها هو الأعلى والأسمى يرد إلى أمر ديني إطاعة لأمر الله تعالى ورسوله، وهذا لا ينفك عن البواعث سالفة الذكر متوجاً بحب الله تعالى ورسوله ﷺ والجهاد في سبيله كما جاء في الآية الجامعة: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(١).

وبالجملة فإن مرد الإيثار بجميع صنوفه إلى الحب، سواء أكان حباً لله وبالله أم كان حباً أبوياً أم بَنَوياً، أم حُبّاً عاطفياً كحال العُشاق الذين يكْتوون بنار الحب، فترى أحدهم يقدم مصلحة محبوبة على نفسه ويؤثره على ذاته.

ما ورد في الكتاب والسنة عن الإيثار:

١- قال تعالى حكاية على لسان إخوة يوسف عليه السلام: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾(٢). والمراد فضلك الله علينا بما آتاك من الملك.

٢- وقال سبحانه على لسان سحرة فرعون: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾(٣)، فقد أعلن السَّحَرَة إيمانهم بعد أن ظهر لهم الحق على يدي موسى عليه السلام مُتَحَدينَ بذلك فرعون قائلين: لن نفضلك على ما وضح لنا من الحق لذا نعلن إيماننا غير عابئين بما ستَفْعَلُهُ بنا من التقطيع والقتل.

---

(١) سورة التوبة آية ٢٤.

(٢) سورة يوسف آية ٩١.

(٣) سورة طه آية ٧٢.

٣- وقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1].

٤- وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[2]. مبيناً سبحانه أن من أقبح تجاوزات الحد أن يفضل الانسان الحياة العاجلة على الحياة الآخرة، وأن ذلك مما يردي الانسان في جهنم.

٥- وقال عزَّ من قائل: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[3].

فقد أنكر القرآن الكريم على بني البشر تفضيل الحياة الدنيا الفانية، على الحياة الآخرة الباقية.

وقد وردت أحاديث عن الرسول الله ﷺ تحث على الإيثار إما صراحةً وإما ضمْناً فمن ذلك:-

١- روى الترمذي[4] عن أبي هريرة رضي الله عنه: « أنَّ رجلاً من الانصار نزل به ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه فقال لامرأته: نومي الصّبيَةَ، واطفئي السِّراج، وقربى للضيف ما عندك، فنزل قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِم وَلَوْ كَانَ بِهِم خَصَاصَةٌ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[5]. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح

٢- ولقد نهى رسول الله ﷺ أن يستاثر المؤمن على إخوته المؤمنين بشيء لأن من الإيثار أن يشركهم معه في كل أبواب الخير، فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: « قام رسول الله ﷺ في صلاةٍ، وقمنا معه، فقال أعرابي: اللهم

(١) سورة الحشر آية ٩.

(٢) سورة النازعات آية ٣٨.

(٣) سورة الاعلى آية ١٦.

(٤) الترمذي / كتاب التفسير ح رقم ٣٣١٥.

(٥) سورة الحشر الآية ٩، وانظر محمد بن احمد الانصاري القرطبي/ كتاب الجامع لاحكام القرآن، ١٨/ ١٧

ارحمني ومُحَمّداً، ولا ترحم معنا أحداً، فلما سلّم النبيّ ﷺ قال للأعرابي: لقد حَجَّرتَ واسعاً[1]. فلقد أراد ﷺ ان يدخل المسلم اخوته المسلمين فيما يدعو الله تعالى به ونهى الاعرابي ان يضيق ابواب الخير التي جعلها تعالى واسعة تستوعب جميع مخلوقاته.

٣- وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال اني مجهود (اصابني الجهد والمشقة) فأرسل الى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي الا ماء، فارسل الى الأخرى، فقالت: مثل ذلك.

حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، فقال رسول الله ﷺ، من يضيف هذا هذه الليلة فقال رجل من الانصار (ابو طلحة)، أنا يا رسول الله فانطلق به الى رحله فقال لامْرأته: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، وفي رواية قال لامراته: هل عندك شيء؟ فقالت: إلا قوت صبياني قال: فعلليهم بشيء، واذا أرادوا العشاء، فنوميهم، وإذا دخل الضيف، فاطفئي السراج وأريه ،أنا نأكل، فقعدوا واكل الضيف، وباتا طاويين، فلما أتى أبو طلحة النبي ﷺ قال ﷺ: قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة[2].

٤- وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: « أنَ إمرأة جاءت إلى النبي ﷺ ببردة منسوجة فقالت: نسجتها بيدي لأكسوكها، فأخذها النبي ﷺ، محتاجاً اليها، فخرج وإنها ازاره ، فقال فلان: اكسنيها ما أحسنها، فقال: نعم فجلس رسول الله ﷺ في المجلس، ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال له القوْم: ما أحسنت، لَبسها النبي ﷺ، محتاجاً اليها ثم سالته، وعلمت أنه لا يرد

---

(١) متفق عليه، وانظر سنن ابي داود (باب الطهارة حديث رقم ٣٧٦ والترمذي طهارة رقم ١٤٧ وابن ماجه حديث رقم ٥٢٩.

(٢) متفق عليه ورياض الصالحين ص ٨٠٣.

سائلاً: فقال: ما سألته والله لالبسها، انما سألته لتكون كفني قال سهل: فكانت كفنه[1].

٥- وعن أبى موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم في المدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم قسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وانا منهم[2]. والمراد بأرملوا فرغ زادهم، أو قارَب الفراغ.

٦- وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**». وقد وقع لفظه عند مسلم بالشك، لأخيه او لجاره، ووقع في البخاري. لاخيه من غير شك[3].

٧-عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه اهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال: إن أخي فلانا وعياله أحوج الى هذا منا فبعثه إليهم، فلم يزل يبعث به واحد إلى الآخر حتى تداوله سبعة أبيات حتى رجعت إلى أولئك فنزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾[4]. انظر منهاج القاصدين ص ٦٢ .

٨- وفي الصحيح أن أبا دجانة رضي الله عنه تَرّس على النبي ﷺ بوقعة أحد، وكان الرسول ﷺ، يتطلع ليرى القوم. فيقول له ابو طلحة لا تشرف يا رسول الله" نحري دون نحرك ووقى بيده يد رسول الله ﷺ فشلت يد أبي طلحة رضي الله عنه[5].

---

(١) صحيح البخاري، ورياض الصالحين، ص ٣١٠.

(٢) رياض الصالحين ، ص ٣١٠ وقال متفق عليه.

(٣) متفق عليه وانظر سبل السلام ٢/ ,١٦٥

(٤) محمد بن احمد الانصاري الجامع لاحكام القرآن، ١٧/١٨ . ومنهاج القاصدين ص ٢٠٦.

(٥) القرطبي ١٨/٢٠ وانظر كذلك عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي كتاب الروض الآنف، ١٥٧/٣ وعبد الله بن هشام : سيرة ابن هشام ، ١٣/٤ مطبعة دار الجيل بيروت.

صور ومواقف من الإيثار

من أروع صور الإيثار في التاريخ البشري إيثار الأنصار المهاجرين عندما هاجروا إليهم وآخى الرسول ﷺ بينهم، فقد برز في هذه المؤاخاة كرم الأنصار وأريحيتهم ،كما برزت فيها عفة المهاجرين وترفعهم عن حطام الدنيا الفاني ولقد صور القرآن الكريم هذا الموقف الإيجابي الصادق بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣].

ولقد أشادت جميع كتب السيرة بتلك المؤاخاة التي تنازل فيها الأنصار لإخوانهم المهاجرين عن بعض ممتلكاتهم ودورهم، حتى إن البعض عرض على اخيه من المهاجرين ان يتنازل له عن بعض نسائه حتى اذا انتهت عدتها خطبها له وأدى مهرها، ولكن لم يكن المهاجرون من طراز الانتهازيين فقد قابلوا هذا الكرم بالشكر الجزيل والدعاء الوافر إلى الله عز وجل أن يحرسهم، ويحفظ لهم مالهم ويبارك في عيالهم.

وهكذا فقد أصبح المؤمنون في المدينة أولياء بعضهم يحب الواحد أخاه كحبه نفسه، يناصره، ويجاهد من أجله ويؤثره على الأهل والعشيرة والولد.

وفي غزوة اليرموك استشهد: عكرمة بن أبى جهل، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وجماعة من بني المغيرة، وكانوا جميعاً قبل أن يجودوا بأرواحهم يشعرون بعطش شديد فكان أحدهم إذا ما آتاه الساقي بالماء، وسمع نداء أخيه طالبا الماء رفض الشرب وأمر الساقي أن يقدم أخاه عليه بالشرب. وهكذا فعلوا جميعا مؤثرين إخوتهم عليهم حتى لقوا الله جميعا وهم عطاش»[١].

---

(١) سورة الحشر آية٩.

(٢) تفسير القرطبي ١٨/ ٢٠، منهاج القاصدين ص ٢٠٦ لابن قدامة المقدسي.

وفي هذا الموقف الرائع يروي حذيفة العدوي رضي الله عنه فيقول: «انطلقت إلى اليرموك أطلب ابن عم لي- ومعي شيء من الماء- وأنا أقول: ان كان به رمق، سقيته فإذا أنا به، فقلت له: أسقيك؟ فاشار برأسه: أنْ نعم فإذا أنا برجل يقول: آه آه. فأشار اليَّ ان انطلق إليه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أسقيك ؟ فأشار أن نعم فسمع آخر يقول: آه فأشار هشام أن انطلق إليه فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت الى هشام، فإذا هو قد مات، فرجعهت إلى ابن عمي: فإذا هو قد مات.

وروى البيهقي مناسبة نزول قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾(٢). فقال: عن نافع قال: مرض ابن عمر فاشتهى عنبا، اول ما جاء العنب، فأرسلت زوجته شخصاً اشترى لها عنقوداً بدرهم، فاتبعه سائل حتى دخل الدار، فقال ابن عمر: أعطوه اياه، ثم أرسلت فاشترت مرة ثانية وجاء سائل آخر، فأخذ العنقود، وثالثة، وجاء سائل فأخذ العنقود».

وقد ربَّى الاسلام ضمير المسلم على الإيثار بحيث جعله يجود بنفسه رخيصة في سبيل الله ومن أجل القيام بكل عمل من أعمال البر التي تحقق مرضاة الله تعالى ومن أروع ما يتجلى به الإيثار فريضة الزكاة التي تعد أقوى عامل لتربية ضمير الانسان على الإيثار إذ هي اقتطاع جزء من مال الإنسان وتقديمه إلى الفقراء ومَنْ هو على شاكلتهم عن طوعية واختيار جبراً لخاطرهم، وتخفيفاً لآلامهم وإشعاراً لهم بأنهم في مجتمع إسلامي لهم فيه اخوة يعملون جهدهم لمواساتهم ومداواة عللهم وأوجاعهم. ولقد عظم الله تعالى شأن الزكاة لما لها من أثر في تحقيق الإيثار، وإقالة العثار فقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة الانسان الآية ٨.

(٢) سورة الاعراف الآية ١٥٦.

وكذلك أدرجت الزكاة في مفهوم البر الذي هو كلمة تجمع كل أعمال الخير فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[1].

الأثرة:

الأثرة في اللغة المنزلة، يقال: لفلان عندي أثرة أي منزلة وهي أيضا تفضيل الإنسان نفسه على غيره.

وفي الفلسفة: حب النفس، وتطلق أخلاقيا على من لا يهدف إلا إلى نفعه الخاص، وتقابل الإيثار (مجمع اللغة العربية)[2].

والأثرة بعكس الايثار تماما وقد قال في وصفها «ستنهلير» في شرح مذهب افلاطون: « ان اكبر شيء في الانسان هو عيب يرافقنا جميعاً منذ الولادة، وكل الناس يسامح نفسه فيه لهذا لا تجد من يبحث عن الخلاص منه، إنَّما يسمونه «الحب الذاتي».. وهذا الحب متى أفرط فيه صار علة العلل، إذ أن الإنسان قد يسيء الحكم على ما هو حق وطيب وجميل، متى ظن ان الواجب عليه ان يفضل دائماً منافعه على منافع الخلق»[3].

وعلى هذا فالأثرة هي نقيض الإيثار، وضده حيث لا يمكن الجمع بينهما بحال فإذ كان الإيثار هو تقديم الإنسان مصالح الآخرين على مصالحه الشخصية؛ فإن الأثرة هي تقديم مصالح النفس- وبشكل دائم- على مصالح جميع الخلق،

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٧.

(٢) د. ابراهيم انيس وصحبه، المعجم الوسيط ج١ ص ٥ ادارة احياء التراث الاسلامي بقطر، ولسان العرب المحيط ١/ ٢٠، مختار الصحاح ١/ ٣ مكتبة لبنان لمحمد بن ابي بكر الرازي.

(٣) مقدمة كتاب الاخلاق لأرسطو ج ١ ص ٦٦. ترجمة لطفي السيد.

ويمكن ان يعبر عنها بقول أبى فراس الحمداني: « تعللني بالوصل والموت دونه إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر».

على أن الإيثار يعبر عنه بقول أبى العلاء المعري:

فلا نزلت عليَّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم العبادا

والإيثار يصحبه دائما عناصر كريمة: كالتقوى، والكرم، والنبل، والمساواة، والرحمة بالآخرين.

بينما يصاحب الأثرة عناصر لئيمة: كإقفار النفس من: الايمان، وضعف التقوى، واللؤم والكبر، والحسد والاستعلاء، ووزْن الامور بموازين فاسدة وقياسها بمقاييس باطلة.

ولقد وضع الله سبحانه وتعالى مقياساً للتفاضل لا يخيسُ ولا يبخس وهو ميزان التقوى فقال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١).

فجاء اول انتهاك لهذا المقياس، ومخالفة لذاك الميزان الذي به يرفع الله تعالى ويضع على لسان ابليس اللعين، اذ عندما امر الله تعالى ملائكته عليهم السلام بالسُّجود لآدم عليه السلام استجابوا جميعاً للأمر الرباني بالقبول والاذعان ما عدا ابليس الذي قاس بمقياس فاسد، وحكم على الأمور بحكم جائر، فتمرد على الامر الرباني بعدم السجود وعلل تمرده بما لا يعلل به فقال: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾(٢).

وحيث كان إبليس هو البادئ بهذا المقياس الفاسد، فإن الذين يفاضلون بينهم وبين الآخرين بمقياس الوطنية ، أو اللغة، أو العرف، أو الإقليم، هم لا ريب «أنانيون» من أعوان إبليس، فهو الذي اعتبر مادة خلقه (النار) هي التي

(١) سورة الحجرات آية ١٣

(٣) سور الاعراف اية ١٢، سورة ص آية ٧٩.

تفضله على آدم عليه السلام المخلوق من (الطين) فشمخ بأنفه، وعصى ربه وقال- رافضاً الامتثال- لأمر الله تعالى بالسجود لآدم عليه السلام: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾[1].

وبذلك استحق غضب الجبار، والخلود في النار، واللعنة الأبدية الى يوم القيامة ممثلة في قول الباري تعالى: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾[2].

كما جاء الأمر الرباني له بالخروج مقروناً بالصغار والذلة، والذم والاندحار في مواضع متعددة في القرآن الكريم كما في سورة الاعراف والحجر وغيرهما، وذلك جزاءً وفاقاً على استعلائه وأثرته، وتفضيله على غيره دون مسوغ معقول.

الأثرة سبب في وقوع أول جريمة قتل

ولقد كانت الأثرة (الأنانية) سبباً في ارتكاب أول جريمة قتل على الأرض بين أبناء آدم عليه السلام فما كان قتل قابيل لأخيه هابيل إلا بعامل الأنانية إذ أراد ان يستأثر على أخيه بالزواج مخالفاً بذلك سنة الباري عز وجل الذي أمر نبيه آدم عليه السلام ان يزوج بنيه من بناته على سبيل المقايضة بين التوائم بحيث يتم التزاوج بين أربعة توائم بأن يتزوج الولد من التوأمين الأولين، البنت من التوأمين اللذين يلدان بعدهما وهكذا.

وقد ذكر القرآن الكريم هذه القصة في سورة المائدة حيث قال الله عز وجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ . فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ

(١) سورة الاسراء آية ٦١.

(٢) سورة ص ٧٧.

أخيه فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ . فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾(١).

جاء في تفسيرها: قصص عن هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم وهما: هابيل وقابيل، فيما ذكره غير واحد من المفسرين من السلف والخلف ان الله تعالى شَرَّع لآدم عليه السلام ان يزوج بنيه من بناته لضرورة الحال. وقالوا كان يولد في كل بطن ذكر وأنثى فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل دميمة، وأخت قابيل وضيئة، فأراد قابيل ان يستأثر بها على أخيه فأبى آدم عليه السلام ذلك الا ان يقربا قرباناً، فمن تقبل منه، فهي له، فتقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل وكان من امرهما ما قضى الله تعالى في كتابه.

وقد ذكر المفسرون في هذه القصة أقوالٌ منها ما رواه ابن اسحق أن آدم عليه السلام أمر ابنه قابيل أن ينكح أخته توأمة هابيل، وأمر هابيل أن ينكح أخته توأمة قابيل، فسلم لذلك هابيل ورضي، وآبى قابيل وكرهه تكرماً عن أخت هابيل ورغب بأخته عن هابيل. وقال: نحن من ولادة الجنة، وهما من ولادة الأرض، وانا أحق بأختي فقال له أبوه آدم عليه السلام: با بني انها لا تحل لك فآبى قابيل أن يقبل ذلك من قول أبيه قال له ابوه يا بني قرب قرباناً ويقرب أخوك قرباناً فايكما تقبل قربانه فإنه أحق بها، وكان قابيل على بذر الأرض، أي مزارعاً، وكان هابيل على رعاية الماشية، فقرب قابيل قمحاً وقرب هابيل أبكاراً من أبكار غنمه، وبعضهم يقول: قرب بقرة، فارسل الله تعالى ناراً بيضاء فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل، وبذلك كان يقبل القربان اذا قبله ، أي ان علامة قبوله ان يرسل الله تعالى ناراً فتأكل القربان المقبول(٢).

---

(١) سورة المائدة ٢٧-٣٠.

(٢) عماد الدين اسماعيل بن كثير القرشي، تفسير القرآن العظيم، ج٢ ص ٤١-٤٦ بتفاصيل مختلفة.

فانظر رعاك الله ماذا يفعل الحسد والأنانية بصاحبه يحمله على قتل أخيه من اجل ان يستاثر عليه بعرض من أعراض الدنيا وقد جاء في التفسير، أنها كانت أول جريمة ارتكبت على وجه الأرض ولذا جاءت الآيات التي بعدها تقول: ﴿مِنْ أَجْلِ ذلكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾[(١)].

وجاء في الحديث الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال: «لا تقتل نفس ظلما الا كان على ابن آدم كفل من دمه لأنه كان اول من سن القتل»[(٢)]

اليهود والنصارى يرثون أثره ابليس اللعين

ولقد آثر اليهود والنصارى على بنى البشر جميعاً ونظروا اليهم من برج عال نظرة ازدراء، واحتقار مفضلين انفسهم عليهم زاعمين زوراً وبهتاناً ان افضليتهم نابعة من كونهم منسوبين للرب سبحانه وتعالى عن زعمهم علوا كبيرا قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[(٣)].

قال ابن كثير في تفسيره: «لقد رد الله تعالى في هذه الآية على اليهود والنصارى في كذبهم وافترائهم« وقالت اليهود والنصاري نحن ابناء الله وأحباؤه ، أي نحن منتسبون إلى انبيائه وهم بنوه له بهم عناية، وهو يحبنا، ونقلوا عن كتبهم أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل انت ابني بكري، فحملوا هذا على غير تاويله، وحرفوه، وقد رد عليهم غير واحد ممن اسلم من عقلائهم، وقالوا هذا

(١) سورة المائدة لآية ٣٢.

(٢) وانظر علي بن علي الشوكاني : نيل الأوطار ٧: ٥٠ ط اخيره.

(٣) سورة المائدة الآية ١٨ .

يطلق عندهم على التشريف والإكرام، كما قال النصارى عن كتابهم، ان عيسى عليه السلام، قال لهم: «اني ذاهب الى أبي وأبيكم يعني ربي وربكم. ومعلوم أنهم لا يدعون لأنفسهم من البنوه، ما ادعوها في عيسى عليه السلام، وانما ارادوا من ذلك معزتهم لديه وحظوتهم عنده وبهذا قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. فقال تعالى رادا عليهم ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكم بِذُنُوبِكُم﴾ أي لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباءه فلم أعد لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم، وافترائكم؟ ثم قال عز شأنه: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ أي لكم اسوة أمثالكم من بني آدم وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده[1].

وقد جاءت نصوص توراتية -في توراتهم المحرَّفة - تؤكد هذا الوهم الباطل والزعم المكذوب الذي عاشوا عليه وبه دهوراً طوالاً بأنهم أبناء الله ، وشعبه المختار فمن النصوص التوراتية:

١- وقد شاءَ الرب ان يجعلكم له شعباً[2].

٢- لأنك شعب مقدس للرب الهك، اياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخَصّ من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض[3].

هذا الى نصوص تزخر بها التوراة وقد اجتزات بهذين النصين اجتناباً للإطالة.

وأما من التلمود الذي يرون أن الأخذ بنصوصه يعينهم على إقامة إمبراطوريتهم التي تمكنهم -حسب زعمهم- من السيطرة على شعوب الأرض فالنصوص الاستعلائية الناضحة بتعظيم الذات وتفضيلها على الغير كثيرة اذكر منها:

أ- إن اليهودي جزء من الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -كما أن

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤.

(٢) الاصحاح الثالث سفر التكوين، الكتاب المقدس ص ٣٤٠.

(٣) الاصحاح الرابع سفر التثنية الكتاب المقدس العهد القديم ص٢٩٠.

الابن جزءٌ من أبيه، وعلى ذلك، فاليهود جزءٌ من روح الله[1].

ب- يرى اليهود في التلمود أن اليهود أفضل عند الله من الملائكة فقد جاء فيه: « إن المرأة يجب أن تعيد اغتسالها إذا رأت عند خروجها من الحمام شيئاً نجساً، كالكلب، والحمار، أو المجنون، أو الآدمي، ويقصدون بكلمة آدمي غير اليهودي- أو الخنزير.

ج- لا يجوز أن تأخذ اليهودي الشفقة على غير اليهودي فقد جاء في التلمود: « غير جائز أن تشفقوا على غير اليهودي»[2].

د- خلق الله الأجنبي (غير اليهودي) على هيئة انسان فقط ليكون لائقاً لخدمة يهود الذين خلقت الدنيا من اجلهم!.

و- أرواح اليهود عزيزة عند الله بالنسبة لباقي الأرواح، لان الارواح غير اليهودية هي ارواح شيطانية تشبه ارواح الحيوانات.

ز- النعيم مأوى ارواح اليهود، ولا يدخل الجنة الا اليهود، اما الجحيم فمأوى الكفار مهما اختلفت أسماء دياناتهم، ولا نصيب لهم فيها الا البكاء.

الأمم الخارجة عن دين اليهود أشبه بالحمير تعتبر بيوتهم أشبه بزرائب الحيوانات.

ط- مسموح غش الأجنبي وسرقة ماله بواسطة الربا الفاحش.

ك- يحرم على اليهودي أن ينجي أحداً من الأجانب من هلاك، أو يخرجه من حفرة وقَعَ فيها، بل عليه ان يسدها.

ي- الزنا بالأجانب ذكوراً، وإناثاً لاعقاب عليه عند الله لأنهم من نسل الحيوانات[3].

---

(١) محمد صبري التلمود شريعة بني اسرائيل ص ١١.

(٢) التلمود كتاب بني اسرائيل المقدس الاستاذ عبدالمنعم شميس ١٩ فما بعدها.

(٣) هذه الفقرات من ا ذي مأخوذة من كتاب الاستاذ محمد وجدي بكر الدباغ الايديولوجية الصهيونية واسرائيل ط٢ ص ٤٢-٤٣

ومن الأمور التي لا يقرها عقل، ولا شرع، ولا يمكن أن يستسيغها من كان فيه أدنى إثارة من شرف وخلق ان تعاليم التلمود تبيح لليهودي غش غير اليهودي، وسرقته فقد جاء في وصاياه: «لا تسرق مال القريب (أي اليهودي) اما مال غير اليهودي فسرقته جائزة[1].

وحتى قتل النفس التي حرم الله الا بالحق مباح لدى يهود، إذا كانت هذه النفس غير يهودية، حيث يقول لهم تلمودهم: «اقتل صالح من غير الاسرائيليين، لان من يسفك دم الكافر يقدم قرباناً لله»[2]. هذا رأيهم في قتل الصالح، فكيف بغير الصالح؟.

ويقول التلمود في الغش: «يمكنك ان تغش الغريب، وتدينه بالربا الفاحش، ولكن اذا بعت او اشتريت لقريبك اليهودي فلا يجوز لك ان ترواغه»[3].

واما النجدة وفعل الخير مع غير اليهود فلا يبيحه التلمود بحال حيث جاء فيه: من يرفع وثنياً - أي - غير يهودي من حفرة وقع فيها، فانه يبقى على رجل من عبدة الأوثان، لذلك اذا وقع وثني في حفرة، فسددها بحجر كبير[4].

وهكذا فان جميع هذه النصوص مترجمة عمليا في عالم الواقع فاليهود في كل انحاء العالم هم المهيمنون على البورصة العالمية يلعبون بعملات العالم، وبمقدرات الدول كما يشاؤون، وهم أهل الربا والقمار والمروجون لليانصيب وبيع اوراقه، وغير ذلك من اساليب الغش والخداع ونصب الفخاخ لاقتناص أموال

---

(١) ا لتلمود شريعة بني اسرائيل ص ٢٧ ترجمة محمد صبري.

(٢) محمد صبري نفس المرجع ص ٣١ والمحامي يوسف مراد، جذور الفكر الارهاب الصهيوني ص ٨٢.

(٣) المحامي يوسف مراد المرجع السابق ص ٨٤.

(٤) جاءت الترجمة الواقعية لهذه النصوص في مقال نشرته صحيفة (يدعوت اجرسوت) بتاريخ ١٩٨٧/٧/٩ بعنوان(وباسم السماء يحكمون) حيث ورد فيها سؤال واجوابه، هل يجوز إنقاذ طفل عربي يكاد ان يغرق؟ يقول الحاخام؟ لا يجوز إنقاذ الغرباء.

الناس بشتى وسائل الحرام، وعدم النظر إلى المشروعية، وهم يبيحون قتل الأبرياء من شيوخ ونساء وأطفال ثم يصبحون أهل التقى، والصلاح، والعفة ، بمخازيهم وصفاتهم الذميمة والبلاء الاكبر يكمن في ان ببغاوات العرب والمسلمين يصدقونهم فيما يزعمون، وينعقون معهم بشكل ببغاوي بلا عقل ولا تَرَو؟

الأنانية تظهر تحت شعارات شتى وبأزياء مختلفة

ولقد شهدت أوروبا في هذا العصر حركة عنصرية استعلائية تدعى النازية- ولعلها جاءت ردة فعل عكسية لدعوى يهود- فاتخذت شعرا مفاده « ألمانيا فوق الجميع- وقد كان الذي تولى كبر هذا الإفك المدعو«آدولف هتلر« الذي كان يصبو إلى تحطيم دول العالم وإقامة عرش ألمانيا على حطامها ولكي يصل إلى هدفه وضع سلما للدماء، فوضع قائمة عجيبة لشعوب العالم حسب أجناسها، وقسم تلك الشعوب الى صنوف ودرجات حسب الوانها وسماتها، وجعل على راس سلم الدماء الدم الآري الذي ينتمي اليه بينما جعل الشعوب السابقة التي منها « اليهود والعرب« اسفل درجات السلم واراد شطب هذه الشعوب من خريطة العالم. ولقد كانت هذه القائمة السوداء التي تمثل العنصرية باقبح صورها هي اسوا ما عرف عن العنصرية. لمخالفتها الصارخة لمبادئ الانسانية، التي ترد العالم الى أب واحد وأم واحدة كما قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١).

ولدى تطبيق هذه الخرافة التي ظنها نظرية شنَّت المانيا ما عرف بالحرب العالمية الثانية لكي تنفذ فكرة هذه العنصرية الاستعلائية البغيضة.

وقد كلفت هذه الآيديولوجية العنصرية الاستعلائية الشعب الالماني خمسة ملايين من القتلى والجرحى والمشوهين خلال الحرب العالمية الثانية وشمل الخراب

---

(١) الحجرات آية ١٣

والدمار معظم أنحاء ألمانيا. كما أصابت الإنسانية بأكبر مأساة في تاريخها[١].

هذا ونتج عن ذلك تقسيم ألمانيا بين أمريكا ودول أوروبا فرجعت ألمانيا بذلك القهقرى إذ أصبحت من الدول الضعيفة. ، فظلت تدفع تعويضاً لليهود عن بعض ما ألحقته بهم من خسائر في الأرواح والممتلكات إلى يومنا هذا.

وهكذا يَقْصم الله الجبارين ويحني رؤوس المتكبرين: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

والآن بعد كل ما حصل من عبر وعظات نسمع صيحات منكرة تتعالى من هنا وهناك تبعث قوات «الأثرة» «الأنانية» وتخرجها من مدافنها فترفع شعار القومية والإقليمية، والمصلحة المادية، ووحدة الزمن والتاريخ الموحد، والآمال والآلام المشتركة وغير ذلك مما يأباه الله تعالى ويلعن فاعليه، لانه سير على طريق ابليس الذي قال قبل ملايين السنين ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[٣].

ان امثال هؤلاء عندما يحاولون بحيدتهم عن جادة الصواب واستبدال الذي هو ادنى بالذي هو خير فيحلون بأنانيتهم روابط الدم والاقليم والمصلحة، ومحل الاخوة الاسلامية فانهم بذلك يثبتون للدنيا انهم اخوان ابليس، واخوة يهود وذيول من ذيول هتلر التي تريد ان تهدم بنيان الله تعالى ، وتقيم مكانه صروح الشرّ والفساد.

وصدق الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً . وَأَكِيدُ كَيْداً . فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾[٤].

---

(١) محمد وجدي بكر الدباغ (الأيدلوجية الصهيونية واسرائيل ط ٢ ص٨٨/ ٨٩.

(٢) يوسف ٢١.

(٣) الاعراف ١٢ ، ص ٧٩.

(٤) سورة طارق الآيات ١٥/ ١٧ .

المبحث الثامن
التواضع والكبر(*)

التواضع والكبر خلقان متناقضان، أولهما من مكارم الأخلاق، مأمور به، يبرز إنسانية الإنسان ، رغب الإسلام فيه وحث عليه، والآخر منهي عنه وحذر الإسلام المسلم من الوقوع فيه، فما الذي نعنيه بالتواضع، وما فائدته وما الدليل عليه وما هي أسبابه، وما الكبر، ولماذا حذر الإسلام منه وما هي أسبابه وما هي طرق العلاج والوقاية منه؟ هذا ما سنبحثه في هذا الموضوع.

تعريف التواضع والكبر

التواضع لغة: التذلل والتخاشع، والوضيع من الناس ضد الشريف ويقال: في نسبه ضعة أي انحطاط وخسة[1].

التواضع اصطلاحاً: قال الفضيل بن عياض التواضع هو: الخضوع للحق والانقياد له ولو سمعته من صبي لقبلته.

قال ابن المبارك: أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا، حتى تعلمه أنه ليس لك عليه بدنياك فضل، وأن ترفع نفسك عمن فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل[2].

الكبر لغة: معظم الشئ والشرف والرفعة في الشرف والعظمة والتجبر

(*) د. نصر البنا.

(1) مختار الصحاح ٧٧٧، القاموس المحيط ٣/٩٨.

(2) الاحياء، ٤/١٤١.

كالكبرياء[1].

الكبر اصطلاحاً: الحالة التي يختص بها الإنسان من اعجابه بنفسه وذلك بان يرى نفسه اكبر من غيره، وأعظم ذلك ان يتكبر على ربه عز وجل بأن يمتنع من قبول الحق، وقد عرف النبي ﷺ الكبر بقوله: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»[2] أي رد الحق بعدم قبوله وغمط الناس أي احتقارهم وازدراؤهم.

الأدلة على مشروعية التواضع والنهي عن التكبر:

بعد أن عرفنا معنى التواضع ومعنى الكبر فما الأدلة على حث الإسلام على التواضع ونهيه عن الكبر؟

لقد رغب الإسلام في التواضع وحث عليه وأثنى على المتواضعين وحذر من الكبر لأنه من أقبح الانحرافات الخلقية وأسوئها وانه قد يدفع صاحبه إلى جحود الخالق عز وجل ، والاستكبار على طاعته، ولذا فقد شدد الإسلام على تحريم الكبر ونحى باللائمة على المستكبرين وأوعدهم بالعقاب الشديد وفيما يلي طائفة من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على ذلك:-

١- قال تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ . قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ . قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[3].

٢- لقد تكبر إبليس على أمر الله تعالى ورفض الانصياع له وافتخر بما ليس محلاً للافتخار وعلل ذلك بقوله: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[4] وجعل افتخاره بأن مادة خلقه « النار «أفضل من مادة خلق آدم (الطين

(١) القاموس المحيط، ٢/١٢٩، مختار الصحاح ٥٦١.

(٢) فتح الباري ٤٨٩:١٠.

(٣) الأعراف ١١-١٣.

(٤) الأعراف ١٢.

وعليه فقد كان ابليس أول من قاس قياساً فاسداً كاسداً.

٣- وبناء على نظرته الاستعلائية كاد لآدم وحواء فأغراهما بالأكل من الشجرة التي نهيا عن الأكل منها ولما عاتبهما ربهما على ذلك أقرا واعتذرا، قال تعالى: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[(١)] ولقد تذلل آدم لربه وأناب إليه واستغفره واعترف بظلمه لنفسه بأكله من تلك الشجرة وهذا هو عين التواضع كما مر معنا في تعريف التواضع.

٤- وكذلك الملائكة الكرام عندما أظهر الله تعالى لهم علمه المحيط وعلمهم المحدود اعتذروا إلى ربهم ، قال تعالى ﴿قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[(٢)] فنزهت الملائكة رب العزة جل وعلا واعترفوا أن الفضل لله تعالى أولا وآخراً ، فلا علم لهم إلا ما علمهم إياه، وهذا عين التواضع منهم لربهم جل وعلا.

٥- وقد ذم الله تعالى ذوي الكبر، والاستعلاء، وصرف قلوبهم عن تدبر آياته عقابا لهم قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[(٣)] فالكبر سبب من أسباب قلة الانتفاع بالآيات والنذر، وعدم الفقه عن الله فيما يأمر به.

٦- لقد أمر الله عباده بالدعاء، ووعدهم بالإجابة، وعدّ الذين لا يدعونه مستكبرين عن عبادته وتوعدهم بإدخالهم النار، والصغار ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[(٤)]. فالآية بينت أن مصير المتكبر ومآله إلى النار، وان المؤمن المتواضع

(١) الاعراف ٢٣.

(٢) البقرة ٣٢.

(٣) الأعراف ١٤٦.

(٤) غافر ٦٠.

مصيره الجنة.

ويوضح الرسول ﷺ ما سبق أجمل توضيح ويبين ان المنكسرة قلوبهم من الضعفاء، هم اهل الجنة وأن أهل الكبر والاستعلاء، هم اهل النار قال عليه الصلاة والسلام: «**ألا أخبركم باهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو اقسم على الله لأبره، ألا اخبركم باهل النار كل عتلّ جوّاظ مستكبر**»[1].

ووصف الله المؤمنين بلين الجانب، والتواضع في سيرهم وتعاملهم مع غيرهم، قال تعالى: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً**﴾[2].

والتواضع سمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وخلق من أخلاقهم ونبينا صلوات الله عليه وسلم بلغ الكمال في التواضع في أكله، وشربه، وملبسه، ومعاملته لأصحابه بل وفي كل شأن من شؤونه، فقد روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت[3]. ولما دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح ودخلها دخول الشاكرين المتواضعين ولم يدخلها دخول الفاتحين البطرين[4].

أمر الرسول ﷺ بالتواضع وحث عليه ونهى عن الكبر واعتبره مانعاً من دخول الجنة وحرمه وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنه، قال «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمْطُ الناس»[5].

---

(١) البخاري، ح رقم ٦٠٧١، العتل هو الجافي الغليظ والجواظ هو الضخم المختال والكثير الكلام والجلبة في الشر والجموع المنوع والصباح الفجور الضجور.

(٢) الفرقان ٦٣.

(٣) صحيح البخاري، ح رقم ٦٠٧٢.

(٤) سيرة ابن هشام ٤:٣٠.

(٥) صحيح مسلم، كتاب الايمان، باب ٣٩، تحريم الكبر وبيانه ١:٩٣.

واعلم ان كل آية أو حديث فيه نهي عن الكبر، فيه أمر بالتواضع وما فيه أمر بالتواضع فيه نهي عن الكبر قال في الإحياء(١): وهذا الخلق له طرفان وواسطة فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى كبراً والذي يميل الى النقصان يسمى تخاسساً، وضعة وذلة والوسط يسمى تواضعاً والمحمود أن يتواضع من غير مذلة ومن غير تخاسس فإن كلا الطرفين ذميم وخير الأمور أوسطها.

أقسام الكبر

لما كان الكبر خلقاً ذميماً لم يرضه الله تعالى لاحد من خلقه لأنه منازعة للخالق في بعض صفاته، عن ابي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ، قال الله عز وجل: «الكبرياء ردائي والعظمة ازاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار»(٢) والآيات والأحاديث جميعها تحذر من هذا الخلق وتنهى عنه. ولما كان المتكبر عليه هو الله، أو أمره أو رسله أو سائر خلقه فالكبر بهذا الاعتبار نقسمه إلى أقسام ثلاثة:-

أولاً: التكبر على الله عز وجل أو على أمره، وهذا النوع أفحش أنواع الكبر ولا داعي له إلا الجهل المحض، أو الطغيان، أو الغرور وهذا ما حصل من ابليس لما أمره الله بالسجود رفض الانصياع، وكذلك ما حصل من فرعون عندما جاءه موسى عليه السلام بالبينات فقال لقومه «ما علمت لكم من إله غيري» وقال لهم «أنا ربكم الأعلى» ومن هذا الكبر كبر النمرود.

ثانياً: التكبر على الرسل عليهم السلام من حيث ترفع المدعوين عن الانقياد لبشر مثل سائر البشر، وهذا الكبر يصرف صاحبه عن التفكر والاستبصار، فيبقى في ظلمة الجهل فيمتنع عن الانقياد للحق ظناً منه أنه على حق، وتارة يمتنع عن الانقياد للحق مع معرفته أنه حق إما عناداً وإما حسداً وإما غروراً، قال تعالى:

---

(١) الأحياء ٤:١٧٤، مختصر منهاج القاصدين ٢٣٦.

(٢) أبو داود اللباس، باب ما جاء في الكبر رقم ٣٩٢٢، ابن ماجه، الزهد باب ١٦ البراءة من الكبر والتواضع. حم ٢:٣٧٦. ١٦

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُواْ فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً﴾[1] وعن استكبار بني اسرائيل قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[2]، وعن استكبار قريش واستحقارهم لشأن الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وقال تعالى: ﴿أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنْ بَيْنِنَا﴾[3] وهذا منهم استحقار لشأنهم واستبعادٌ لتقديمهم عليهم.

ثالثاً: التكبر على العباد وهذا يكون باستعظام المرء لنفسه واحتقاره لغيره فيأبى الانقياد للغير مما يؤدي الى الترفع عنهم فيزدريهم ويحتقرهم ويأنف من مساواتهم له. وهذا الخلق قد يحمله على الأنفة من قبول الحق من غيره قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ﴾[4] وهذا الكبر هو الذي حدا بإبليس ان يقول: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[5]، والكبر هذا قد يؤدي بصاحبه الى تلمس اخطاء الآخرين لا لتقويمها وبيان ما فيها من اعوجاج عن طريق الحق بل لتكون سيفاً مسلطاً بيده ليقلل من شأن الآخرين ومكانتهم وليظهر انه هو كل شئ وغيره لا شئ ويحمله ذلك على السخرية بالآخرين والاستهزاء بهم وهذا ما اشار اليه النبي ﷺ بقوله «الكبر بطرُ الحق وغَمْطُ الناس»[6].

أسباب الكبر:

لقد عرّف العلماء السبب بأنه ما يتوصل به إلى مقصود ما[7] وعلى هذا

---

(١) الفرقان ٢١.

(٢) البقرة ٧٨.

(٣) الأنعام ٥٣.

(٤) البقرة ٢٠٦

(٥) الأعراف ١٢.

(٦) رواه مسلم الايمان باب ٣٩ تحريم الكبر ٩٣:١.

(٧) مذكرة اصول الفقه ٤٢، الواضح في اصول الفقه ٢٣٤.

التعريف فقد ذكر العلماء بعض ما يمكن ان يدعو الإنسان الى الكبر فما هي تلك الأسباب؟ وما هي طرق العلاج؟.

أولاً- العلم: وهو أعظم الآفات، وأغلب الأدواء، وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما، قال كعب الأحبار: إن للعلم طغيانا كطغيان المال[(1)]، وقال عمر رضي الله عنه: العالم إذا زل زل بزلته عالم[(2)] وما أسرع الكبر إلى العلماء! وقد يستشعر العالم بنفسه جمال العلم وكماله مما يؤدي به إلى استعظام نفسه واستحقار غيره من الناس، وهذا يجعله ينظر إلى غيره نظرة استعلاء، ولذا نجده في الغالب يريد من الآخرين أن يبروه، ولا يبرهم، ويزوروه ولا يزورهم ويعودوه ولا يعودهم، وتكبره عليهم هنا أن يرى نفسه عند الله افضل منهم ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم[(3)]، وما علم المسكين أن العلم النافع هو الذي يطهر النفوس من الصفات الرديئة، ويربيها على الصفات الحميدة، والعلم الحقيقي هو العلم الذي يورث الخشية، والتواضع فيكون صاحبه مثالاً حسناً في الناس وقدوة صالحة لهم في الأفعال والأقوال[(4)]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[(5)]. وأسباب كبر الإنسان بعلمه اما كون طالبه سئ الخلق لم يشتغل بتهذيب نفسه وتزكية قلبه، واما لاشتغاله بما يسمى علما وهو ليس بعلم حقيقة وهذه بأن تسمى صناعات اولى من أن تسمى علوماً، بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة هذه تورث التواضع غالباً[(6)].

ثانياً- العمل والعبادة: إن العامل العابد قد يظن نفسه أفضل من غيره ولذا فهو يتوقع من غيره أن يقضي له حاجته فهو الذي يأمر وما على غيره إلا الامتثال

---

(1) الإحياء ٤: ١٦٨

(2) الإحياء ٤: ١٦٨

(3) الإحياء ٤: ١٥٠

(٤) موارد الظمآن ٥١٦:٤، الإحياء ١٦٨:٤.

(٥) الشعراء ١٥.

(٦) الإحياء ١٥:١.

والطاعة هذا في الدنيا، أما في الدين فيرى غيره من الهالكين ويرى نفسه من الناجين، فينظر اليهم بعين المقت والاحتقار، لا بعين الرأفة والاشفاق، وهذا في حقيقته هو الهالك، قال رسول الله ﷺ: «**إذا قال الرجل: هَلَكَ الناسُ فَهُو أهلكهم**»[1] ومعناه أشدهم هلاكاً، وقال ﷺ «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه**»[2] وقد يكون الكبر مستقرا في قلبه وهذا أفحشه وأقله رتبة يظهر على أفعاله بالترفع عن مجالسة الضعفاء والمساكين وأدنى ذلك أن يصعر خده للناس وأوسطه رتبة الذي يظهر الكبر على لسانه حتى يدعو إلى المفاخرة والمباهاة وتزكية النفس، وحكاية الكرامات وما علم المسكين أن الله عز وجل قال: ﴿**فَلاَ تُزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**﴾[3].

ثالثا- الحسب والنسب: من المعلوم أن التفاخر بالأحساب والأنساب من أعمال أهل الجاهلية وما زالت هذه الصفات شائعة بين المسلمين، فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت**»[4]، وقد يقوم بعض من لا وازع له من دين أو خلق بالتفاخر بنسبه وحسبه فيحتقر من لا نسب له ولا حسب ولا جاه وإن كان أرفع منه علما وعملا فهذا من أعمال الجاهلية وما علم المسكين أن لو كان لأحد أن يفتخر بنسبه لكان ذلك للانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، فهم صفوة الخلق ابتداء من آدم ابي البشر عليه السلام الذي خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وانتهاء بسيد ولد آدم يوم القيامة محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليهم

---

(١) مسلم، البر والصله، ٤:٢٠٢٤، ح ١٣٩، د ادب ٧٧ حم ٢/ ٢٧٢.

(٢) مسلم، البر والصله والآداب، ١٩٨٦:٤ ح ٣٢، وابو داود في الأدب ٣٥ والترمذي في البر ١٨ وابن ماجه في الزهد ٣٣ حم ٣:٤٩١

(٣) النجم: ٣٢.

(٤) البخاري مناقب الانصار ٣٨٥٠، مسلم-الايمان، حديث ١٢١ ١:٨٢:، الترمذي جنائز ٢٣ حم ٢: ٢٩١.

جميعاً، والذي قال لعمته وابنته وآل بيته لا يأتيني الناس غدا بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم فاني لا أغني عنكم من الله شيئاً. ثم قال لفاطمة التي هي بَضْعَةٌ منه: يافاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت فاني لا أغني عنك من الله شيئاً. بل في حجة الوداع خاطب المؤمنين بقوله: ان الله أذهب عنكم عُبِّية الجاهلية وفخرها بالآباء[1]، الناس لآدم وآدم من تراب» بل عنف أشَدَّ التعنيف على الذين يفتخرون بالآباء والأجداد، قال عليه الصلاة والسلام: «**لينتهين أقوام عن فخرهم بآبائهم هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان تدفع النتن بأنوفها**»[2].

رابعاً - الجمال: وهو من أسباب الكبر الظاهرة وأكثر ما يجري بين النساء ويدعو إلى التنقص وإلى الثلب والغيبة، ولا يغتر بجماله إلا ناقص العقل. قال محمد الباقر: ما دخل قلب امرئ شئ من الكبر، إلا نقص من عقله مثل ما دخل من ذلك قل أو كثر،[3] والجمال منحة ربانية تستوجب الشكر، شكر المنعم المتفضل وهذا ما كان النبي ﷺ يقول: «اللهم كما حسنت خَلقي فحسن خلقي»[4].

خامسا- المال: وقد يظن أن هذا المال قد أُوتيه على علم عنده وما علم المسكين ان هذا المال وديعة عنده تسترد منه في أي وقت وبأي لحظة وبلا إذن مسبق، قال تعالى: ﴿**إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ . وَلَا يَسْتَثْنُونَ . فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ . فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ . أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ**﴾[5] والتكبر

(١) رواه الترمذي حديث ٣٩٦٦.

(٢) الترمذي وحسن وابو داود، انظر الى السنة ١٣/ ١٢٤. المشكاة ٢/ ٥٩٤، حديث ٣٩٦.

(٣) الاحياء، ٤/ ١٥٠.

(٤) رواه احمد بلفظ مختصر ١: ٤٠٣ عن عائشة وابن مسعود بلوغ المرام حديث ١٥٦٥.

(٥) سورة القلم ١٧-٣٢

بالمال إنما هو صفة أهل الكفر، قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ . الَّذِى جَمَعَ مَالاً وعَدَّدَهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾[1] والله تبارك وتعالى بين لنا حواراً هادئاً هادفاً جرى بين انسان قد اغتر بماله، وولده، وبين انسان مؤمن بقدر الله جل وعلا راض بقضائه، يعلم ان الأمور بيد الله يقلبها كيف ما شاء، قال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَداً . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً . قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً . لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً . وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً﴾[2].

سادسا- القوة وشدة البطش: ليعلم المتكبر المغتر بقوته بان هناك من هو أشد منه قوة وبطشاً، والاغترار بالقوة وشدة البطش إنما هو صفة أهل الكفر والعناد عندما لا يستطيعون أن يقابلوا الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان فعندما لا يجدون أمام معاول الحق وقوة البراهين ما يدفعون به الحق فإذا بهم ينتقلون إلى التهديد والوعيد، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[4] وتهمتهم كانت العفة والطهارة، وعن اغترار بني اسرائيل بحصونهم وقوتهم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّواْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم

(١) سورة لهمزة ١-٣
(٢) الكهف ٣٤-٣٥.
(٣) الأعراف ١٢٧.
(٤) الأعراف ٨٢.
(٥) الحشر ٢.

مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُواْ يَأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾(١) .

سابعاً- الكبر بسبب كثرة الانصار والاتباع والولد والعشيرة: قد تفاخرت قبائل الجاهلية بكثرة المال والانصار حتى وصل الأمر إلى التفاخر بالأموات(٢) قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ . كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾(٣) ويتوعد الله جل جلاله الوليد بن المغيرة الذي قابل نعم الله بالجحود والافتراء عليها وجعلها من قول البشر وافتخر بما اعطاه الله من النعم وعاند الله وتكبر عليه، وقد عدد الله عليه نعمه(٤)، قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً . وَبَنِينَ شُهُوداً . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلاَّ إِنَّهُ كان لآيَاتِنَا عَنِيداً﴾(٥) .

إن التكبر بكثرة الانصار، والعشيرة، والولد، والأقارب، إنما يكون ممن نقص عقله وضعفت همته، ولذا فاننا نجد أن أعداء الرسل عليهم السلام احتجوا على رسلهم بقلة الاتباع، وقلة ذات اليد وقلة الولد، وهذا ما حدا بكفار مكة أن يقولوا عن رسول الله ﷺ: بأنه أبتر أي منقطع لا عقب له فأنزل الله جل شأنه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرِ﴾(٦) وصدق ربنا جل شأنه فكل من أبغض نبيه فقد انقطع ذكره وخمد، وإن ذكر فلا يذكر الا واللعنات تتبعه كما في أبي لهب، وأبي جهل، وأمية بن خلف، وعقبة بن معيط- لعنهم الله - اما من آمن به وصدقه فيتبع ذكره الرضوان والرحمة، والدعاء كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم.

---

(٢) ابن كثير ٤:٤٤٥

(٣) التكاثر ١-٤ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤:٤٤٢

(٥) المدثر ١١-١٦ .

(٦) الكوثر ٣.

ثامناً- الغرور والوهم: وهذا السبب في حقيقته قد يعود إلى أحد أمرين هما: -

١- أصدقاء السوء الذين يقومون بمدحه بما فيه وبما ليس فيه ظناً منهم انهم يحسنون صنعاً ينتشي بمدحهم ويفرح لذلك، ويقر ذلك المادح، ومن لم يمدحه اعتبره عدواً له لا يعرف له قيمة ولا مقداراً ، وعندما سمع رسول الله ﷺ رجلاً يمدح آخر، قال له: ويحك قطعت عنق صاحبك[١] وقال في حديث آخر: «**إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب**»[٢].

وقد قال الشاعر:

فتنة الناس وقينا الفتنا ... باطل الحمد ومكذوب الثنا

٢- نقص العقل بحيث يعتقد بأنه أكمل من غيره وهذا ناتج عن خطأ وجهل، وهو برهان على قلة عقله قال محمد الباقر: ما دخل قلب امرئ شئ من الكبر، إلا نقص من عقله مثل ما دخل من ذلك قل أو كثر.

وبعد ان استعرضنا الأسباب الداعية للكبر فإنه لزاماً علينا أن نذكر طرق العلاج حتى نتخلص من هذا الخلق الدنئ.

طرق علاج الكبر

ذكر الغزالي[٣] بعضا من تلك الطرق وهي: -

أولاً: استئصال أصله من نفسه وقلع شجرته من قلبه وهذا يكون بأمرين أحدهما معرفي علمي، والآخر عملي ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما ، فالعلمي المعرفي هو أن يعرف ربه تعالى وأن يعرف حقيقة نفسه ومعرفته لربه تكون بالاكثار من تلاوة القرآن الكريم ومن خلال هذه القراءة يعرف أن هذا الأمر لا

---

(١) شهادات ١٦، م زهد ٦٥، ٦٦ (متفق عليه) وأبو داود الترمذي وابن ماجه وأحمد.

(٢) مسلم زهد ٦٥، ٦٦ (متفق عليه) وأبو داود الترمذي وابن ماجه واحمد.

(٣) الإحياء ٤/ ١٦٢-١٧٠.

يصح الا لله تعالى، قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١) كذلك النظر فيما اصاب الأمم الماضية التي استكبرت على أمر الله تعالى وما حل بها من عذاب استئصال كقوم صالح ، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ . فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾(٢) . وأما معرفته لحقيقة نفسه فهذا أمر يطول ذكره ولكن نذكر بعض الآيات التي فيها نفع في إثارة التواضع في نفس المؤمن لأن التواضع ان سكن النفس ورضيته، فانه يطرد الكبر ، قال تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ . مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ . مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ . ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ . ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾(٣) .

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً . إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾(٤) فالإنسان بدايته نطفة مذرة ونهايته جيفة قذرة يسقذره أقرب الناس إليه ، ولذا فانهم يسارعون في دفنه ولا يطيقون إبقاءه بينهم، ومن ثم تبلى أعضاؤه فتصبح تراباً ويأكل الدود أعضاءه وأجزاءه وهو في حياته يحمل بين جنبيه العذرة والأوساخ، يروى أن مطرف بن عبدالله بن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر في جُبَّة خز فقال: يا عبدالله هذه مشية يبغضها الله ورسوله ، فقال له المهلب: أما تعرفني ؟ فقال: بلى أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت تحمل بين ذلك العذرة(٥) .

---

(١) الحشر ٣٣.

(٢) الأعراف ٧٧, ٧٨.

(٣) عبس ١٧-٢٢

(٤) الإنسان ١-٣.

(٥) العذرة : الغائط .

وما أحسن ما قال الشاعر:

كيف يزهو من رجيعه أبد الدهر ضجيعه

ومن جانب المعرفة العلمية، أيضا في دفع الكبر اللجوء إلى الله تعالى والاستعاذة به من الكبر والمتكبرين وكذلك الاحتماء بحماه واللجوء إليه بأن يصرف عنه خلق المتكبرين وعنجهيتهم قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ﴾[1].

ثانيا: **الطريق العملي** وهذا لا يكون الا بتعويد النفس على التواضع بالفعل والممارسة العملية، والعبادات تربي في الإنسان هذا الخلق ، فالصلاة التي هي عمود الدين تربي في الإنسان الذل والخضوع لهذا الاله العظيم وأقرب ما يكون العبد الى الله وهو ساجد، والصيام فيه كسر لنفس الإنسان الجموح وحث له على التواضع فهو صائم امتثالاً لامر الله تعالى والحج شعيرة عظيمة من شعائر الاسلام، وفيه المساواة الكاملة بين المسلمين جميعاً من أول عمل يقوم به المكلف وهو الاحرام ولبس ملابسه حتى الانتهاء من مناسكه وكذلك ففي قراءة سير الأنبياء والصالحين تربية عملية للأخلاق.

ثالثاً: دفع عوارضه وأسبابه بمكافحة تلك الاسباب:

١- ان كان سبب كبره العلم فليعلم أن العلم هو الذي يربي النفس ويهذبها من الصفات الذميمة، العلم الذي يورث الخشية والتواضع فيكون صاحبه مثالاً حسناً وقدوة صالحة . فهذا رسول الله ﷺ لم يزده علمه بالله إلا تواضعا وخشية وشكراً لله تعالى فعندما قالت عائشة لرسول الله وقد قام الليل وتورمت قدماه: يا رسول الله رفقا بنفسك وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك فيرد عليها قائلا: أفلا أكون عبداً شكوراً[2]، وغضب الله على اليهود بسبب علمهم ذلك العلم الذي لم

---

(١) غافر٢٧.

(٢) البخاري التهجد ح ١١٣٠.

يَقُدْهُم الى الخير والفلاح ، قال تعالى: ﴿غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلاَ الضَّالِّين﴾[1].

وضرب الله مثل السوء لمن لم يفده علمه إلى الخير فقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذي آتَيْنَاهُ آيَاتنَا فَانسَلَخَ منْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ منَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بهَا وَلَكنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْملْ عَلَيْه يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذينَ كَذَّبُواْ بآيَاتنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذينَ حُمِّلُواْ التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْملُوهَا كَمَثَلِ الْحمَارِ يَحْملُ أَسْفَاراً بئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذينَ كَذَّبُواْ بآيَات اللَّه وَاللَّهُ لاَ يَهْدي الْقَوْمَ الظَّالمينَ﴾[3].

٢- وإن كان كبره بسبب عمله وعبادته فليعلم أنه لا يدري ما الذي سيختم له ولا يدري ما مصيره، وعليه أن يكثر من دعاء الله بأن يحسن خاتمته وعليه أن يخلص نيته، قال عليه الصلاة والسلام: «**وان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»[4]، وليعلم أن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيفما شاء، وقد كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: «**يامقلب القلوب اصرف قلبي إلى طاعتك**»[5]، وليعلم أيضا أن العمل والعبادة المجردتين لن يكونا سببا في دخول الجنة ما لم تتداركه الرحمة الالهية . فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**سَدِّدوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يدخل أحداً الجنة عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: ولا أنا ، الا أن**

---

(١) الفاتحة ٧.

(٢) الأعراف ١٥٧، ١٧٦.

(٣) الجمعه ٥.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه مسلم .

يتغمدني الله بمغفرة ورحمة»[1].

٣- وإن كان سبب كبره الحسب والنسب فليعلم أن النسب الشريف هو الذي يترتب عليه عمل صالح يدل على رفعة صاحبه ومكانته والنسب أيضا لايكتسب اكتسابا وإنما هو منحة ربانية يجب شكرها. قال الله تعالى بحق ولد نوح عليه سلام: ﴿قَالَ يَنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[2]، وأنبياء الله تعالى هم أرفع الناس مكانة ونسباً ومع ذلك فهم قد بلغوا الذروة والكمال في التواضع لله تعالى، وخاتمهم نبي الله محمد ﷺ أعطي مكانة عظيمة عند ربه وقال عليه الصلاة والسلام «أرجو ان اكون انا هو»[3]، وذلك في بيان ذكره الوسيلة التي ستعطى لعبد من عباد الله تعالى.

٤- وان كان كبره بسبب جماله، فليعلم أن الجمال عارية، وان عمره قصير سرعان ما يزول وقد يبتلى بمرض يذهب جماله وبهاءه والعاقل من ينظر إلى باطنه نظرة العاقل الحصيف فما يراه الإنسان من جمال الظاهر فهو محاط بجميع الأقذار في جسمه، الرجيع في أمعائه، والبول في مثانته، والمخاط في أنفه، والبزاق في فمه، والوسخ في أذنيه، والدم في عروقه، والصديد تحت بشرته، والدَّفر تحت إبطيه، يغسل الغائط في يده كل يوم دفعة أو دفعتين ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلا عن أن يمسه أو يشمه، وهو في أول أمره نطفة قذرة لو جاءت على ثوه لاستقذرها.

٥- وان كان كبره بسبب قوته وشدة بطشه فليعلم أن قوته قصيرة المدة فبدايته طفل يحبو ونهايته يمشي على ثلاث أو أربع قد ذهبت قوته ، وليعلم أن مرضاً بسيطا قد يقعده ، ويذهب قوته، وشوكة لو دخلت في عينه لأعمته، ولو

---

(١) البخاري–متفق عليه – الرقائق حديث ٤٦٤٧ ومسلم – منافقين ٧٣.

(٢) هود ٤٦.

(٣) فتح الباري ١٠٩:٠١.

دخلت جلده لأقرحته، وإن يسلبه الذباب شيئاً لا يستنقذه منه قال تعالى: ﴿يأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ. مَاقَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(١) ومن ثم فلو قوي الإنسان فلن يكون أقوى من حمار، أو جمل، أو اسد وأي افتخار بصفة يسبقه البهائم إليها، ولو توجع عرق من عروقه لأمضى الليل ساهراً.

٦- وان كان كبره بسبب المال وكثرة الأشياع والأتباع، فليعلم أن هذا خارج عن ذات الإنسان وهذا من أقبح الكبر وأرذله وليعلم بأنه إن تغير الحال وافتقر بعد غنى وتفرق عنه الأشياع والأتباع كان من أرذل الخلق وكذلك كل من تكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الحزن، كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل في أمره لوجد في اليهود والمشركين والمجوس من يزيد عليه في الغنى والشرف والأتباع والأشياع ولكن أفٌ لشرف يسبقك إليه يهودي وأفٌ لشرف يأخذه منك سارق.

٧- وإن كان كبره بسبب المدح الكاذب من أصدقاء السوء، فعليه أن يختار رفقاء الدين، وأصدقاء الخير الذين يبصرونه بالحق ويأمرونه به ولا يزينون له الباطل وليعلم بأن من مدحه بما ليس فيه فقد ذمه وقد يذمه بما ليس فيه، ولذا حرص النبي ﷺ أن يحثوا في وجوه المداحين التراب.

٨- وأخيرا فمما يدفع به الكبر التأسي بالصالحين والاقتداء بهم فان التشبه بالكرام فوز ونجاح، قال الشاعر:

فَتشبَهّوا إنْ لم تكونوا مثلهم ... إنَّ التَّشَبُّه بالكرام فَلاحُ

وسيد من يقتدى به ويتشبه به رسول الله محمد ﷺ الذي قال الله تعالى في حقه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٢)

---

(١) الحج، ٧٣، ٧٤.

(٢) القلم ٥.

مظاهر الكبر:

لقد تعددت المظاهر التي تدل على الكبر، وإن كان الكبر خلقا باطنيا ولكن قد يظهر على الإنسان في وجوه متعددة نجملها فيما يلي: -

١- الترفع عن الناس بتصعير الخد واشاحته عمن حوله بما يدل على تجاهلهم، قال تعالى: ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[٢].

٢- تعمد إسدال الثوب كبراً: وقد نهى الإسلام عن إسدال الثوب باعتباره مظهراً للكبر والتعالي على الناس، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطراً**»[٣] وفي رواية خيلاء.، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ما أسفل من الكعبين من الإزار، ففي النار**»[٤] وأما إن استرخى إزاره من غير تعمد منه فهذا جائز كما في سؤال أبي بكر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ[٥].

٣- مشية الاختيال: لقد مدح الله المؤمنين بأنهم يسيرون بكل تؤدة، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَـنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾[٦]، ونهى عن مشية المرح والاختيال، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾، وهذه المشية تجوز في مواطن محددة في الحرب كما أجازها النبي ﷺ لأبي دجانه في غزوة أحد.

---

(١) لقمان ١٨.

(٢) المنافقون ٥.

(٣) البخاري كتاب اللباس - حديث ٥٧٨٨.

(٤) البخاري كتاب اللباس - حديث ٥٧٨٨

(٥) البخاري كتاب اللباس - حديث ٥٧٨٤

(٦) الفرقان ٦٣.

٤- مخالفة الناس ترفعاً عنهم [١] من أدب الإسلام السلام والمتكبر يدخل لا يسلم ولا يصافح وإن صافح فبرؤوس اصابعه ويسحب أصابعه بسرعة، لذا نجده يحب أن يقوم الناس له وأن يهرعوا لاستقباله عند مجيئه وقد كان السلف لايفعلون ذلك. قال انس رضي الله عنه لم يكن شخص أحب الينا من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك، وهناك صورة من القيام وهي القيام على رأسه وهو قاعد وهذا منهي عنه أيضاً ، قال رسول الله ﷺ : «**من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار**»[٢] وهذه عادة الأعاجم والمتكبرين وكذلك يستكبر باقامة آخرين إلى جنبه أو مشيهم بجواره وخلفه.

٥- احتقار الناس والتقليل من شأن الرجال والاستهزاء والسخرية بالآخرين ويجمع حوله التافهين والمنافقين الذين يثنون عليه بما فيه وما ليس فيه لكي يشبع غروره ويقلل من شأن العلماء ويغمز فيهم وكأنه هو إمام أهل زمانه وواحد عصره.

خطورة الكبر

من المعلوم أن الأخلاق الذميمة تلازم المتكبر وبعضها داع للبعض الآخر وهي تحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين، وآفة الكبر عظيمة هلك بها الخواص، كيف لا ؟ والمتكبر لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه واليك بعض ما يظهر به أخطاره:-

١- انه اول معصية عصي الله بها ، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾[٣].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين٢٣٢.

(٢) الترمذي وابو داود واحمد، انظر صحيح الجامع ٥: ٢٢٧ ح ٥٨٣٣.

(٣) البقرة ٣٤.

٢- إنه سبب لطرد إبليس من الجنة، قال تعالى: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾(١)

٣- إن الله تعالى قرن بينه وبين الكفر ، قال الله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ .

٤- فيه قياس فاسد وابليس أول من قاس قياساً فاسداً، وهذا سبب هلاكه ، قال تعالى: ﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾(٢)، فقد افتخر بما لا يفتخر به وهي النار، وعاب على آدم أنه خلق من طين .

٥- فيه طيش وهذا يدل على صغر عقل المتكبر فابليس خلق من نار فعاد إلى أصله الناري وهو الطيش وآدم عليه السلام خلق من تراب فلما عصى عاد إلى أصله الرزانة ، قال تعالى: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٣) .

٦- عقوبة المتكبر يوم القيامة غشيان الذل لهم وشرابهم عصارة أهل النار، روى الترمذي عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**يحشر المتكبرون أمثال الذرّ يوم القيامة في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان فيساقون الى سجن في جهنم يسمى بولس تعلوه نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينه الخبال**»(٤).

٧- الكبر سبب في سوء الخاتمة، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾(٥).

٨- الكبر سبب للطرد من رحمة الله تعالى والمتكبر مطرود من الرحمة

---

(١) الأعراف ٢٣.

(٢) سورة ص ٧٢-٧٣.

(٣) سورة ص ٧٦.

(٤) رواه الترمذي في السنن - كتاب صفة القيامة باب ٤٧ حديث ٢٤٩٧ - ج ٤ : ٦٥٥.

(٥) غافر ٣٥.

الالهية ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾(١)، وما لعن وطرد إلا بسبب كبره.

٩- الكبر سبب لبغض الله لصاحبه وعدم نظر الله إليه ، قال الله تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ . لاَ جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**لا ينظر الله إلى من جرّ إزاره بطرا**» (٣)

١٠- الكبر سبب لبغض الخلق له ويلحق صاحبه من الذل ما الله به عليم ، قال تعالى: ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾(٤).

١١- الكبر سبب لحرمان الحق وعمى القلب عن آيات الله وفهم أحكامه والمتكبر على عينيه غشاوة تمنعه من النظر إلى آيات الله تعالى المبثوثة في الكون وهو لا ينظر الا لنفسه ولا يشعر الا بذاته، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾(٥).

١٢- الكبر حجاب يمنع صاحبه من دخول الجنة ، قال الغزالي(٦): وإنما صار الكبر حجاباً دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، ولأنه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه من الخير فلا يستطيع التواضع ولا يترك الحسد والحقد والغضب، والأخلاق الذميمة

(١) الحجر ٣٥.
(٢) النحل ٢٢, ٢٣ .
(٣) متفق عليه .
(٤) الأعراف ١٣.
(٥) الأعراف ١٤٦.
(٦) الإحياء ٤: ١٤٥.

متلازمة بعضها داع للبعض الآخر .

١٣- الكبر يدخل صاحبه جهنم: والمتكبر يعاقب بنقيض قصده في الدنيا ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «ألا أخبركم بأهل النار، ان أهل النار كل عتل جوّاظ مستكبر جمّاع منّاع»(٣).

---

(١) غافر ٦٠.

(٢) الزمر ٧٢.

(٣) سبق تخريجه .

المبحث التاسع

الرحمة(*)

تتعدد أنواع البلاء وتتباين في هذه الحياة ، فمن خوف الى جوع، الى نقص من الأموال وشح في مصادر الرزق، والى فقدعزيز ، الى مرض، الى ضعف الى حاجة . . . وهكذا. والواجب الانساني يحتم علينا ان نمدّ يد العون والمساعدة من اجل رفع اسباب العذاب والشقاء عن تلك النفوس المعذبة، لنفتح امامها باب الأمل والرجاء والعمل، ليكونوا لبنات صالحة تسهم في التقدم والنمو والبناء.

وتتعدد كذلك انواع المسرات وتتباين، فمن زواج الى سعة في الرزق، الى شفاء مريض، الى أوبة غائب. . . . وهكذا ، فالواجب الانساني كذلك يوجب علينا لزيادة الآصرة وتقريب الشقة بين الناس إدخال المسرة، ومشاركة الانسان اخاه الانسان في أفراحه وآماله.

ولم يكتف الاسلام برفع العذاب وازالة اسباب الشقاء عن البشر فقط. بل جاءت الرحمة شاملة لكل كائن حي يمكن ان يشعر بالألم والعذاب وهذا مما يميز الرحمة عن غيرها من الفضائل الخلقية التي تتخذ الانسان موضوعها[1] .

فما هي الرحمة لغة، وما هي حقيقتها وتعريفها، وما هي مستوياتها ثم ما هي الأدلة الدالة عليها من الكتاب والسنة . . . . الخ.

(*) د. وليد السعد.

(١) د. احمد عبد الرحمن ابراهيم - الفضائل الخلقية في الاسلام - ص ١٧٧.

تعريف الرحمة

الرحمة : لغة، الرقة والمغفرة والتعطف[1]، والرحمن الرحيم اسمان مشتقان من الرحمة، والرحمن اسم ووصف خاص بالله تعالى لا يسمى به غيره ولا يوصف، والرحيم يوصف به غير الله تعالى[2].

تكمن حقيقة الرحمة في كونها رقة في القلب، وعاطفة جياشة، وحساسية في الضمير، ورهف في الشعور. تدعو صاحبها وتدفعه الى بذل المعروف، واغاثة الملهوف، ومنع التعدي والبغي والمشاركة في الأفراح والأتراح، ومن الممكن اعتبار هذه الحقيقة القاسم المشترك بين تعريفات الرحمة في الاصطلاح.

التعريف الأول: الرحمة : رقة في القلب يلامسها الألم حينما تدرك الحواس او يتصور الفكر وجود الألم عند شخص آخر، او يلامسها السرور حينما تدرك الحواس او يتصور الفكر وجود المسرة عند شخص آخر[3].

التعريف الثاني: الرحمة، هي التعبير الخلقي العملي عن تعاطف الانسان مع أخيه الانسان حين يواجه الألم او المرض او حين يقع في مأزق او مصيبة ولا يجد الخلاص لذلك.

التعريف الثالث: الرحمة، صفة كريمة ، وعاطفة انسانية نبيلة، تبعث على بذل المعروف واغاثة الملهوف، واعانة المحروم، ومنع التعدي والبغي[4].

التعريف الرابع: الرحمة، خلق انساني كريم تصدر عن قلب رقيق شفاف ملئ بالحب والرأفة تدفع الانسان لمشاركة اخيه الانسان في افراحه واتراحه وآماله وآلامه[5].

---

(١) الفيروز ابادي: القاموس المحيط / ١٤٣٦.

(٢) ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث ٢/ ٢١٠.

(٣) عبد الرحمن حبنكه الميداني : الأخلاق الاسلامية وأسسها ٢/ ص ٥.

(٤) سيد سابق: دعوة الاسلام / ص ١٧١.

(٥) محمد سعيد مبيض : اخلاق المسلم وكيف نربي ابناءنا عليها / ص ٣٢.

التعريف الخامس: الرحمة، رقة في القلب، وحساسية في الضمير، وارهاف في الشعور، تستهدف الرأفة بالآخرين، والتألم لهم، والعطف عليهم، وكفكفة دموعهم، وأحزانهم وآلامهم، وهي التي تهيب بالمؤمن ان ينفر من الايذاء وينبو عن الجريمة ويصبح مصدر خير وبر وسلام للناس أجمعين[(١)].

يتلخص من هذه التعاريف وامثالها ان الهدف من هذه الصفة الكريمة والخلق النبيل، هو دفع الانسان الى بذل الخير، وادخال المسرة على الآخرين ورفع اسباب العذاب والشقاء عنهم، وهذا لا يتم الا اذا صدر عن قلب رقيق وشعور كريم فياض، وعاطفة انسانية نبيلة.

مستويات الرحمة

تتفاوت الرحمة من شخص الى آخر، فقد تكون مشاعر الراحم اكثر من مشاعر من يرحمه، او مساوية لها، او تكون شفقة عابرة، او رقة آنية لا تؤثر في صاحبها تأثيرا فاعلاً . مما يترتب عليه التقاعس عن بذل معونة ، او مساعدة في خدمة ، او النصيحة باي شئ قد ينفع طالب الرحمة او مستحقها.

واختلاف مشاعر الرحمة من شخص الى آخر يكون بحسب من يحبهم من اب او ام او ولد او غيره او الذين لا صلة له بهم. وقد تجده رحيما تجاه كل من يستحق الرحمة من الكائنات الحية. غير ان هذه المشاعر يجب ان تزول امام ايقاع العقوبة بصاحب جناية كبيرة ولو كان مستحقها قريبا، او حبيبا او صاحبا... الخ. وكذلك امام عقاب الظالمين الذين يجعلهم العفو يتمادون ويتجاوزون في طغيانهم وظلمهم[(٢)].

وباختصار فهناك مستويان للرحمة :-

المستوى الأول: الكف عن الحاق الضرر بالآخرين وتجنب ايذائهم وتعذيبهم.

---

(١) عبدالله ناصح علوان : تربية الاولاد في الاسلام ١/٣٦٥. الفضائل الخلقية / ص ١٧٥.

(٢) عبد الرحمن حبنكه الميداني : الاخلاق الاسلامية ٢/ ص ٦.

المستوى الثاني : السعي لكشف الضر عنهم اذا وقع من سبب طبيعي او من عدوان يقع عليهم من الآخرين .

فالرحمة بالمستوى الأول واجبة الا انها ذات قيمة محدودة جداً ، لان الرحمة بهذا المعنى لا تقوم بأي عمل ايجابي غيري.

اما بالمستوى الثاني، فهي عمل ايجابي غيري، وهو مندوب ويستحق اسم الفضيلة بالمعنى الكامل للكلمة، فهي تعلو وتهبط في نفس صاحبها تبعا لمقدار العطاء والجهد الذي تقدمه[1].

الأدلة على أهمية خلق الرحمة وفضلها

تزخر صفحات القرآن الكريم بهذا اللفظ ومشتقاته، الأمر الذي يدل على اتساع المساحة التي تشغلها الرحمة في الحياة الدينية والدنيوية، واليك بيان اهميتها وفضلها: -

الأدلة من الكتاب

١- الرحمة صفة من صفات الله تعالى فهو الرحمن الرحيم«بسم الله الرحمن الرحيم» وقد كتبها سبحانه وتعالى على نفسه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[2].

٢- وصف الله عز وجل القرآن الكريم بأنه رحمة وهدى وبشرى، يقول تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[3]

٣- الرحمة صفة من صفات الرسول ﷺ وخلق عظيم من اخلاقه كانت السبب في تجمع الصحابة من حوله، وحبهم له والدفاع عنه بل وحب الآخرين له.

(١) احمد ابراهيم : الفضائل الخلقية في الاسلام / ص ١٧٦.

(٢) من سورة الانعام - الآية ٥٤ .

(٣) من سورة النحل - الآية ٨٩.

يقول تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

٤- الرحمة صفة من صفات المؤمنين بقوله تعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[٢].

الأدلة من السنة

أما التوجيهات النبوية لخلق الرحمة فهي كثيرة وليست منحصرة في رحمة المسلمين بعضهم بعضاً. وانما هي رحمة عامة للناس جميعاً ، ثم تجاوزتهم الى الرحمة بالحيوان الأعجم.

والأدلة من السنة على هذا الخلق قسمان:

أدلة عامة: تدل على اهمية وفضل خلق الرحمة بعامة ، وأدلة خاصة ، تبين تأكيد الاسلام على هذا الخلق الذي يشمل شرائح كثيرة من المجتمع اعلاها الرحمة بالوالدين وادناها الرفق بالحيوان .

الأدلة العامة

١- عن ابي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«جعلَ اللهُ الرحمةَ في مائة جزء فامسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وانزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية ان تصيبه»**[٣].

٢- وعنه قال : قيل يا رسول الله ادع على المشركين ، قال: «انـي لم

(١) من سورة التوبة - الآية ١٢٨.

(٢) من سورة الفتح - الآية ٢٩.

(٣) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ١٠/٤٣١، كتاب الادب باب جعل الله الرحمة في مائة جزء.

أبعث لعانا، وانما بعثت رحمة»[١].

٣- عن اسامة قال : قال رسول الله ﷺ : «**انما يرحم الله من عباده الرحماء**»[٢]

٤- وعنه ايضاً قال رسول الله ﷺ «**من لا يرحم لا يرحم**»[٣].

مجالات الرحمة

مر معنا ان التعاليم الاسلامية وسعت دائرة الرحمة فجعلتها تنتظم الوجود كله، حيث شملت كل كائن حي يمكن ان يشعر بالألم والعذاب وأكد على الرحمة بذوي الارحام، وبالوالدين، والأسرة، والأيتام، والنساء وسائر الضعفاء، وحث على الرفق بالحيوان وبكل ذي كبد رطبة، ومن هذه المجالات :-

١- الرحمة بذوي الأرحام (صلة الرحم)

المقصود بذوي الأرحام: الأقارب وكل من يجمع بينك وبينه نسب سواء كان يرثك ام لا وسواء كان ذا محرم ام لا[٤].

والرحمة التي توصل عامة وخاصة:

اما العامة : فهي رحم الدين ويجب مواصلتها بالتوادّ، والتناصح، والعدل، والانصاف، والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة.

والخاصة: هي صلة الرحم، وهم الأقارب، وتكون صلتهم بتفقد احوالهم، والنفقة عليهم ان امكن بالمال وغيره، وبالعون عند الحاجة، ودفع الضرر عنهم، والتغافل عن زلاتهم. . . وسائر ذلك من اوجه البر التي حث الاسلام عليها.

---

(١) مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي، ٤/٢٠٠٧، كتاب البر والصلة ، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها رقم ٢٥٩٩.

(٢) ابن حجر : فتح الباري، ٣/١٥١، كتاب الجنائز ، باب يعذب الميت ببعض بكاء اهله عليه.

(٣) ابن حجر: فتح الباري ١٠/٤٢٦ كتاب الادب ، باب رحمة الولد وتقبيله.

(٤) ابن الاثير، النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/٢١٠، ابن حجر ، فتح الباري ١٠/٤١٤.

والمعنى الجامع لصلة الرحم « ايصال ما امكن من البر ، ودفع ما امكن من الشر بحسب الطاقة»[1].

ب- الأدلة على صلة الرحم من الكتاب والسنة

كثيرة هي التوجيهات النبوية التي تحث على صلة الرحم، ولا نستطيع ان نستعرضها كلها، ونكتفي بذكر بعضها مع بيان الآثار المترتبة عليها.

يقول تعالى : ﴿وَاعْبُدُواْ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾[2].

وأما الأحاديث فنقتطف منها:-

١- عن ابي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال : «يا رسول الله ان لي قرابة اصلهم ويقطعونني، واحسن إليهم ويسيئون الي، واحلم عنهم ويجهلون علي ، قال: «لئن كنت كما قلت فكأنما تُسفّهم الملّ ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك. . . »[3].

٢- عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : «**سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من سرّه ان يبسط له في رزقه، وان ينسأ له في أثره، فليصل رحمه**»[4].

٣- عن جبير بن مطعم عن النبي ﷺ : «**لا يدخل الجنة قاطع**»[5].

٤- عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : «**ليس الواصل**

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، ١٠/٤١٨.

(٢) من سورة النساء - الآية ٣٦.

(٣) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي ٤/١٩٨٢ كتاب البر والصلة ، باب صلة الرحم رقم ٢٥٥٨، وتسفهم الملّ، الملّ : هو الرماد، أي كانما تطعمهم الرماد الحار.

(٤) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي ٤/١٩٨٢، رقم ٢٥٥٧، ابن حجر فتح الباري ١٠/ ٤١٥ كتاب الأدب.

(٥) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي ٤/١٩٨١، رقم ٢٥٥٦، ابن حجر فتح الباري ١٠/ ٤١٥,

بالمكافئ، ولكن الواصل الذي اذا قطعت رحمه وصلها»[1].

من خلال هذه التوجيهات النبوية وامثالها يتبين لنا ان لصلة الرحم فوائد عديدة نذكر منها :-

أ- محبة في الأهل.

ب- مثراة في المال.

جـ-منسأة في الأثر.

د. عمار الديار وزيادة في الأعمار وبركة في الوقت.

هـ دفع خبيئة السوء.

و- سبب للتوفيق للطاعة، والصيانة عن المعصية، والذكر الجميل بعد الموت كأنه لم يمت.

ز- سبب للتوفيق لتحصيل العلم النافع الذي ينتفع به من بعده، ويرزق بالخلف الصالح والذرية الصالحة التي تدعو له[2].

ومن فروع خلق الرحمة الذي يعتبرمن الأصول الخلقية وكلياتها العامة بر الوالدين وسنفرد له مبحثاً خاصا تاليا لهذا الموضوع .

٣- الرحمة بالأرملة والمسكين والبنات.

هذه الفئة من الناس بحاجة الى يد حانية تكفكف دموعهم، وتمسح وتخفف آلامهم ، وتأسو جراحاتهم، ودفع ما ينزل بهم من ضرر وظلم، وقد جاءت التوجيهات النبوية مبينة فضل الرحمة واهميتها لهذه الفئة من الناس منها :-

١- عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «الساعي على

---

(١) ابن حجر فتح الباري ٤٢٣/١٠ ، كتاب الأدب، والمعنى ليست حقيقة الواصل ومن يعتد بصلته من يكافئ صاحبه بمثل فعله، ولكنه من يتفضل على صاحبه.

(٢) ابن حجر، فتح الباري : ٤١٦/١٠.

الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، او كالذي يصوم النهار ويقوم الليل»[1]

٢- عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ: «من ابتلي من البنات بشئ فأحسن اليهن كن له ستراً من النار»[2].

٣- عن انس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة انا وهو كهاتين وضم اصابعه» [3]

٤-الرحمة بالعمال والخدم:

اهتم الاسلام بهذه الشريحة التي تمثل طائفة كبيرة من طوائف المجتمع، وأولاها العناية والرعاية ، وأمرنا ان لا نستغل ضعفهم وحاجتهم ونحملهم ما لا يطاق، فعن ابي ذر رضي الله عنه قال: يقول ﷺ: «هم اخوانكم جعلهم الله تحت ايديكم ، فمن جعل الله اخاه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فان كلفه ما يغلبه فليعنه عليه»[4].

وسبب عناية الاسلام بهؤلاء وغيرهم من قطاعات المجتمع انهم الأكثر في كل مجتمع ، والمجتمع الصالح لا بد ان يرعاهم لانهم قوة بشرية لا يستهان بها لو احسنت رعايتها ووجهت الوجهة الصالحة مما يعود على المجتمع بالنفع والخير وفي رعايتهم وقاية للمجتمع من ان يتعرض للهزات التي تؤثر في كيانه، وتقيه شر التمرد عليه[5].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري ٤٣٧/١٠ كتاب الأدب، مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي ٢٢٨٦/٤، رقم الحديث ٢٩٨٢.

(٢) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، ٢٠٢٧/٤، رقم الحديث ٢٦٢٩.

(٣) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي ٢٠٢٩/٤ رقم الحديث ٢٦٣١ جاء في نهاية الحديث (وضم اصابعه) أي جاء يوم القيامة انا وهو كهاتين.

(٤) ابن حجر، فتح الباري ٤٦٥/١٠، كتاب الأدب.

(٥) سيد سابق، اسلامنا/ ص ٢٤٩، ٢٥٠.

٥- الرحمة باليتيم

لقد عني الاسلام بجميع الفئات المحرومة في المجتمع، ومنها الايتام، ومما يدل على علو فضل من يعول يتيماً فيقوم على اموره من نفقة وكسوة، وتأديب وغير ذلك، ما رواه سهل بن سعد عن النبي ﷺ انه قال : «**انا وكافل اليتيم في الجنة، هكذا، وقال باصبعيه السبابة والوسطى**»[١].

وهذه الفضيلة تحصل لمن كفله من مال نفسه، او من مال اليتيم ولاية شرعية[٢]. قال ابن بطال : حق على من سمع هذا الحديث ان يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة ، ولا منزلة في الآخرة افضل من ذلك[٣].

٦- الرحمة بالصغار والضعفاء:

أ- عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قبل النبي ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: ان لي عشرة من الولد ما قبلت منهم احداً ، فنظر اليه الرسول ﷺ فقال : «**من لا يرحم لا يرحم**»[٤].

ب- عن عائشة رضي الله عنها قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: اتقبلون صبيانكم؟ فقال : نعم ! قالوا : لكنا والله ما نقبل ، فقال رسول لله ﷺ : « **أو أملك ان كان الله نزع من قلوبكم الرحمة** »[٥] .

إن تقبيل الصغار وضمهم والحنو عليهم يغذيهم نفسيا بما يحتاجون اليه من حنان وعطف ذلك ان الطفل كما يحتاج الى الغذاء المادي لينمو جسمه كذلك

---

(١) ابن حجر، فتح الباري ٤٣٦/١٠، ، مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، ٢٢٨٧/٤.

(٢) مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي ٢٢٨٧/٤..

(٣) ابن حجر، فتح الباري ٤٣٦/١٠، ومعنى قال أي اشار باصبعه.

(٤) ابن حجر: فتح الباري ٤٢٦/١٠ وقوله (او أملك . . .) أي لا اقدر ان اجعل الرحمة في قلبك بعد ان نزعها الله منك ، ٤٣٠٦/١٠

(٥) ابن حجر : فتح الباري ٤٢٦/١٠ وقوله (أو أملكة (أي لا أقدر أن اجعل الرحمة في قلبك بعد ان نزعها الله منك ، ٤٣٠٦/١٠.

يحتاج الى غذاء نفسي واذا اخذ وجباته الضرورية من الغذاء النفسي كما علمنا الرسول ﷺ ، كان اكثر نموا من الطفل الذي يحرم من ذلك مهما اعطي من وجبات كافية للجسد.

ونقطة اخرى ان الجزاء من جنس العمل «من لا يرحم لا يرحم» .

فمن يعامل الناس بالرحمة، والاحسان ، والعطف، فان الله الرحمن الرحيم يكافئه بالرحمة والاحسان، ويضاعف له المثوبة(١) .

٧. الرحمة بالبهائم والرفق بها

حث الاسلام على معاملة الحيوان معاملة حسنة ، فنهى عن التحريش بينها، ولعن من اتخذ شيئا منها غرضا، واوصى بسوق الذبيحة الى الذبح سوق رفق ولطف وغير ذلك من الأمور التي طلبها في معاملة هذا الكائن الحي. ومن الأحاديث الواردة في ذلك :-

أ- عن ابي هريرة ان رسول الله ﷺ قال : « **بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب، ثم خرج فاذا كلب يلهث ياكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه ثم امسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له قالوا يا رسول الله وان لنا في البهائم أجراً فقال. في كل ذات كبد، رطبة، أجر**»(٢) .

ب- وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « **عذبت امرأة في هرة، اوثقتها، فلم تطعمها، ولم تسقها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض**»(٣) .

ومن مجالات الرحمة ايضا، الرحمة بالمرضى وذوي العاهات، ورحمة الولاة والحكام بالرعية، والرحمة بالأعداء، وما الى ذلك من المجالات التي

---

(١) عبدالرحمن حسن الميداني : الأخلاق الاسلامية ٢/ ١٥.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، ١٠/ ٤٣٨ كتاب الأدب

(٣) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي ٤/ ٢٠٢٢ رقم ٢٦١٩.

شملت الحياة كلها، فكان خلق الرحمة اميز الاخلاق الاسلامية لاتساع دائرته بحيث لا تندّ عنها شاردة ولا واردة.

بين الرحمة وقسوة العقوبة

عرفنا ان الرحمة صفة من صفات الله تعالى، وصفة من صفات رسوله ﷺ، وهي خلق من اخلاق المسلمين، وطالبنا الاسلام ان نكون رحماء مع الناس جميعا مسلمهم وكافرهم على السواء وحتى مع العجماوات فلا يمكن ان تتعارض الرحمة مع قسوة العقوبة وغلظتها، لان القسوة والشدة تؤدي الى الفساد والفسوق، وتفرق القلوب عن الدعاة، فالقسوة التي اقرها الاسلام وشرعها على الفرد هي في حقيقتها عين الرحمة، لانها رحمة بأفراد المجتمع كافة، وكما هو معروف فان مصلحة الفرد تالية لمصلحة الجماعة.

وقبل ان نشرع في بيان هذا الموضوع لا بد ان نبين نظرة الامم للجريمة والعطف على المجرم واثر ذلك في ايقاع العقوبة، وما موقف الاسلام من هذه النظرية وما هي الآثار المترتبة عليها؟ .

الجريمة: محظورات شرعية زجر الله عنها بحدّ او تعزير، وهي في الغالب اعتداء موجه من الفرد الى الجماعة. او من فرد الى فرد[1].

وتختلف نظرة الامم الفردية كدول الغرب الرأسمالية التي تبالغ في تقديس الفرد عن الامم الجماعية التي تؤمن بان المجتمع هو الكائن المقدس الذي لا ينبغي لفرد ان يخرج عليه، ومن هنا تشتد في عقوبة الفرد الخارج على الدولة الى حد القتل والتعذيب، فالأولى تعطف على الفرد المجرم عطفا بالغاً، وتعتبره ضحية اوضاع فاسدة، او عقد نفسية، لم يكن يملك التغلب عليها، ومن ثم تحاول تخفيف العقوبة عنه بقدر الامكان، وقد تخرجه - خاصة في الجرائم الاخلاقية - من دائرة العقاب. بينما الثانية تؤمن بان الجرائم كلها تنشأ من اسباب اقتصادية لا

---

(١) عبد القادر عوده، التشريع الجنائي في الاسلام ٦٦/١.

من اسباب نفسية، فالمجتمع الذي تختل اقتصادياته لا يمكن ان تنشأ فيه الفضائل، ولا يجوز ان نعاقب فيه المجرم.

هاتان النظريتان فيهما شئ من الحق وشئ من المبالغة، فالظروف المحيطة بالفرد ذات اثر بعيد في تكوينه، والعقد غير الشعورية تدفع احيانا الى الجريمة، ولكن الانسان مع ذلك ليس كائنا سلبيا بحتا بازاء الظروف، فهم ينظرون الى الطاقة المحركة في الانسان ولا ينظرون الى الطاقة الضابطة المغروسة فيه وغير المفروضة عليه من الخارج، والظروف الاقتصادية لها اثر في تكوين مشاعر الافراد واعمالهم، والجوع قد يدفع الى الجريمة والسقوط الخلقي، ولكن القول بان العامل الاقتصادي هو الوحيد الذي يؤثر في النفس البشرية قول مبالغ فيه حتى في البلاد التي تدعي انها قضت على الفقر والجوع.

من هنا فان الاسلام لا يقرر العقوبات جزافاً، ولا ينفذها بلا حساب، فجاءت نظرية وسطية، حيث ينظر الى الجريمة بعين الفرد الذي ارتكبها وعين المجتمع الذي وقعت فيه الجريمة، ثم يقرر الجزاء العادل الذي لا يميل مع النظريات المنحرفة ولا شهوات الأمم والأفراد.

وقد تبدو العقوبات في الاسلام قاسية فظة لمن يأخذها اخذا سطحيا بلا تمعن، ولا تفكر، انه لا يطبقها الا اذا تيقن ان الانسان ارتكبها بكامل حريته واختياره مع تهيئة كل الظروف المناسبة له سواء أكانت نفسية أم اقتصادية . اما اذا كانت هناك شبهة او مبرر او اضطرار، فان الحد هنا يدرأ بالشبهات ، وهذه قاعدة عظيمة نفت كل سلبية، او همجية الصقت بالاسلام في مجال العقوبات .

ونظرة متأنية جداً في الكيفية التي يتم فيها تطبيق الحدود، مع سياسة الاسلام ومنهجه في وقاية المجتمع وحفظه من الأسباب المؤدية الى الجريمة، وتوزيع الثروة توزيعا عادلا، وكفالته لكل فرد فيها، بصرف النظر عن دينه ولونه وجنسه ومكانه، يظهر لك عدل الاسلام ورحمته بأفراده وبالبشرية جمعاء.

اذن فالرحمة تكمن في عقوبة المجرم المستحق للعقوبة، لانه عاث في الارض الفساد، ولم يكترث بتدمير العقول، وسفك الدماء، وانتهاك الأعراض، التي تؤثر تأثيراً فاعلاً في هدم الاسر والمجتمعات[1].

وبالمختصر ، فالاسلام يختلف اختلافا لا يقبل المقارنة بينه وبين القوانين الأرضية من حيث نظرته الى الخالق سبحانه، والكون والحياة واقامته جميع قوانينه على اساس عقيدة التوحيد التي انبثقت عنها شريعته وما فيها من اوامر ونواه، واداب وتوجيهات مبنية كلها على مفهوم الحلال والحرام، بينما تنظر القوانين الأرضية كلها الى الحياة نظرة مادية بحتة خالية من مفهوم الحلال والحرام والثواب والعقاب الأخرويين فجاءت نظرة هذه القوانين مستمدة من مفهوم النفع المادي وما يؤدي اليه من عطاء او حرمان، ولذا جاءت اخلاقهم وسلوكياتهم مرتبطة بهذه المفاهيم الفاسدة التي تعطف على الجاني وتقسو على المجني عليه.

فالهدف من العقوبة اذن :-

١- التقليل من الجرائم.

٢- القضاء على المنحرفين وربما تصلحهم وتعالج نفوسهم.

٣- صيانة المجتمع كله من الانحراف.

٤- حفظ الامن وطمأنة الناس على اموالهم واعراضهم.

٥- معالجة نفس المجرم الذي يريد ارتكاب جريمة ما فتحفظ عليه حياته وحياة غيره[2].

فأين رفق الغرب ورحمته بالانسان عامة، والضعفاء والمجرمين والمجتمع خاصة.

---

(١) محمد قطب، شبهات حول الاسلام، ص ١٥٠-١٥٦، (الاسلام والعقوبات).

(٢) محمد قطب، شبهات حول الاسلام، ص ١٥٠-١٥٦ (الاسلام والعقوبات).

المبحث العاشر

بر الوالدين(*)

من المعروف ان الانسان مدني بطبعه، ويصعب عليه ان يعيش منفردا بنفسه، اذ لا بد له من مخالطة من هو من جنسه وشكله، الا ان هذه المخالطة تحتاج الى آداب، والأدب يقدر بمقدار الرابطة التي وقعت بها المخالطة، فقد تكون الرابطة اخوة في الاسلام او جواراً ، او صحبة في السفر، او درساً علميا، او رابطة قرابة. . . الخ. ولكل رابطة درجات، فللقرابة حق، ولكن حق الرحم المؤكد أكد، وللمحرم حق، ولكن حق الوالدين أكد . . . وهكذا[١] .

فاذا تأكد حق القرابة والرحم فألصق الأرحام وامسها الولادة فيتضاعف تأكد الحق فيها[٢]، وقد قال ﷺ في الحديث الذي أخرجه الامام مسلم عن ابي هريرة **«لا يجزي ولد عن والده الا ان يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه»**[٣] .

ويعتبر بر الوالدين من مجالات الرحمة وفروعها، وقد المحنا اليه عند حديثنا عن الأدلة الخاصة على خلق الرحمة بعنوان (مجالات الرحمة) .

(*) د. وليد السعد.

(١) محمد بن محمد الحسيني، اتحاف السادة المتقين، شرح احياء علوم الدين ٧/ ١٦٦ .

(٢) المرجع السابق، ٧/ ٢٨٤ .

(٣) مسلم، صحيح مسلم، بشرح النووي، ٢/ ١١٤٨، كتاب العتق، باب فضل عتق الوالد رقم ١٥١٠ .

تعريف البر

ما البر في اللغة ؟وما معنى بر الوالدين شرعا؟ والأدلة على برهما، ومنع عقوقهما من الكتاب والسنة ؟ وكيف يكون البر في حال حياتهما وبعد مماتهما؟ وما هي الوسيلة لتحقيق فضيلة بر الوالدين، وما هي الآثار الناجمة عن برهما؟.

البرّ: لغة : الصلة، والخير، واللطف ، والطاعة ، والاتساع في الاحسان والتقرب الى الله تعالى، وضده: العقوق(١)

ومن اسماء الله تعالى البّرُ أي ، العطوف على عباده ببره ولطفه ، قال تعالى : ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

والبِرُّ بالكسر - الاحسان، وهو في حق الوالدين وحق الأقربين ضد العقوق، والعقوق هو الاساءة الى الوالدين، والتضييع لحقهما(٢).

أما في استعمال الشرع : فهو كلمة جامعة لكل أصناف الخير، ويراد منه ما هو زائد عن حد التقوى، فهو مرتبة فوق التقوى، ودون مرتبة الإحسان(٣).

ومن المعلوم أن البر يكون بموافقتهما على اغراضهما، واكرامهما، والخضوع لهما، والسير في حاجتهما، وكسب رضاهما، والوفاء بحقهما. . . الخ حتى لو كانا كافرين.

الأدلة على بر الوالدين من الكتاب والسنة

العبادة في الاسلام لا تقتصر على الشعائر التعبدية من صلاة وصيام وزكاة وحج، وانما تتسع لتشمل كل عمل يقوم به المسلم يبتغي به وجه الله سبحانه، ومن العبادات التي امر الاسلام بالاتساع في الاحسان فيها، والتقرب اليه تعالى-

(١) الفيروز أبادي: القاموس المحيط - ص ٤٤٤.

(٢) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ١١٦/١، ابن الاثير: جامع الأصول ٣٩٨/١. والآية ٢٨ من سورة الطور.

(٣) ابن الجوزي، البر والصلة ، ص (٤).

ذلك الضرب من ضروب الأدب، وابرز صورة من صور الرحمة، والذي جعل مقرونا بعبادة الله وتوحيده، انه بر الوالدين وعدم عقوقهما ، يقول تعالى : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً. . . الآية﴾[1].

ومما يبين عظم وقدر وجلالة هذا النوع من العبادات الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، واليك بيانها:-

الأدلة على بر الوالدين والإحسان اليهما في القرآن:-

هناك آيات كثيرة دالة على وجوب بر الوالدين والاحسان اليهما منها:-

١- قوله تعالى : ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾[2].

يتبين من هذه الاية الكريمة ان الامر بالاحسان الى الوالدين وهو برهما جاء مقرونا مع الامر بعبادة الله وتوحيده ، الذي هو اهم مطالب الدين ويؤكد هذه الآية قوله تعالى : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾[3].

٢- وقوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[4].

في هذه الآية ، الحث على الاحسان للوالدين مع التركيز على الاحسان للأم ورعايتها وشكرها على ما قدمت له منذ ان كان جنينا حتى اصبح يافعا، ومهما بالغ الانسان في برهما فلن يفي بشكرهما.

٣- ومما يدل على بر الوالدين والاحسان اليهما انه كان مطلوبا في شرع من

(١) من سورة الاسراء - الاية ٢٣.

(٢) من سورة النساء - الآية ٣٦.

(٣) من سورة الاسراء - الآية ٢٣.

(٤) من سورة لقمان - الآية ١٤.

قبلنا وقد قام به الانبياء واتباعهم.

يقول تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾[1]

ويقول تعالى : مادحاً يحيى عليه السلام ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً﴾[2].

والمطلع على سيرة بعض الانبياء عليهم السلام، في القرآن الكريم يجد أنهم ضربوا المثل الأعلى في حسن تعامل الابناء مع آبائهم.

فهذا نبي الله ابراهيم عليه السلام ابو الانبياء يخاطب اباه في دعوته الى الله بكل لين ولطف ، فلما نهره ابوه، وزجره وتوعده قابله بالاستغفار .

يقول تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً . إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً . يَأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً . يَأَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً . يَأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً . قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَإِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً . قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾[3].

وهذا نوح عليه السلام يدعو لوالديه بالمغفرة ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾[4].

وقل مثل ذلك في عيسى ويوسف واسماعيل عليهم السلام، الذين ضربوا اروع الامثلة في طاعة الابناء لآبائهم.

---

(١) من سورة البقرة – الآية ٨٣.

(٢) من سورة مريم – الآية ١٤.

(٣) من سورة مريم – الآيات من ٤١-٤٧.

(٤) من سورة نوح – الآية ٢٨.

بر الوالدين والاحسان اليهما في السنة

حفلت السنة النبوية الكريمة باحاديث كثيرة مؤكدة لاهمية بر الوالدين، ووجوب طاعتهما، والاحسان اليهما، والنهي عن عقوقهما، وعده من الكبائر، ومن هذه الأحاديث:-

١- عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ «**أي العمل احب الى الله عز وجل؟ قال: الصلاة على وقتها، قال: ثم أي؟ قال: ثم بر الوالدين، قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله**»[١].

فهذا الحديث يبين ان بر الوالدين من احب الأعمال الى الله تعالى بعد توحيده والصلاة على وقتها، وجعل الجهاد مرحلة تالية لبر الوالدين. ويؤيد هذا الحديث ويعضده ما رواه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: جاء رجل الى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد فقال: أحيٌّ والداك قال: نعم! قال: ففيهما فجاهد[٢].

عن ابي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من احق بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: امك، قال: ثم من؟ قال: ثم ابوك»[٣].

ومقتضى الحديث ان يكون للام ثلاثة امثال ما للأب من البر، وذلك لصعوبة الحمل والوضع والرضاع، فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها، ثم تشارك الأب في التربية، والوالد لم يتحمل ما تحملته الأم، فضمه الى البر لتسببه في ايجاده ومحبته والشفقة عليه والانفاق[٤].

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ١٠/ ٤٠٠ كتاب الأدب

(٢) مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي ٤/ ١٩٧٥، رقم الحديث ٢٥٤٩.

(٣) ابن حجر: فتح الباري ١٠/ ٤٠١، مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي ٢/ ١٩٧٤ رقم الحديث ٢٥٤٨.

(٤) ابن حجر: فتح الباري ١٠/ ٤٠٢.

يقول تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[1].

وهناك خلاف بين العلماء ، ايهما اولى بالبر ، فمنهم من قال : الأم مقدمة على الأب ، ومنهم من قال: هم في البر سواء، ومنهم من قال: ان هناك اجماعا على ان الأم مقدمة في البر على الأب.

وحاصله ان البر واجب للوالد، الا ان الام تستحق الحظ الأوفر ولا بد ان ينزل الناس منازلهم وان يوفى كل احد حقه[2].

٣- عن اسماء بنت ابي بكر رضي الله عنهما قالت : اتتني امي راغبة في عهد النبي ﷺ، فسألت ﷺ أأصلها؟ قال: نعم، قال ابن عيينة فانزل الله تعالى فيها «**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلونكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم**»[3].

هذا الحديث يؤكد ان حق الوالدين قائم ثابت ولو كانا كافرين، فالله تعالى هو الذي يحاسب على كفرهما، اما الولد فعليه ان يصحبهما دنيوياً بالمعروف.

٤- عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**رَغِمَ انفُ، ثم رَغِم انفُ ، ثم رَغِم انفُ، قيل : من يا رسول الله ؟ قال : من ادرك ابويه عند الكبر احَدهما او كِليهما فلم يدخل الجنة**»[4]

ورغم انفه معناه تمرّغ بالرغام وهو التراب.

والذي يفهم من الآيات والأحاديث التي سقناها في بيان بر الوالدين ان طاعة الأبوين واجبة في الشبهات، وان لم تجب في الحرام المحض حتى اذا كانا

---

(١) من سورة لقمان - الآية ١٤.

(٢) ابن حجر: فتح الباري ٤٠٢/١٠ ابن الجوزي : البر والصلة ص ٣٥.

(٣) ابن حجر: فتح الباري ٤١٣/١٠. والآية رقم (٨) من سورة الممتحنة

(٤)مسلم صحيح مسلم بشرح النووي، ١٩٧٨/٤، رقم الحديث ٢٥٥١

يتنغصان بانفرادك عنهما بالطعام، فعليك ان تأكل معهما، لان ترك الشبهة ورع، ورضا الوالدين حتم.

ولقد تكلم العلماء حول السفر، والحج، والصيام، وطلب العلم... الخ وعلاقتها بطاعة الوالدين، وانتهوا الى وجوب طاعتهما في كل ما ليس بمعصية ويحرم عقوقهما فيه»[1].

درجات بر الوالدين

الدرجة الأولى : أداء حقوق الوالدين المادية التي فرضها الشرع فرضاً ملزماً يعاقب تاركه، وبر الوالدين في هذه الدرجة لا يعتبر فضيلة خلقية، لانه في الحقيقة وفاء لدين قديم واجب السداد يضاف الى دين التربية، والحمل، والولادة، والارضاع وغيرها من الديون الواجبة الوفاء. والأدلة القرآنية والحديثية التي مرت معنا تشهد بهذا الدّينْ.

الدرجة الثانية : تتجاوز حدود الحقوق المستحقة للوالدين بمزيد من الطاعة والاحترام والعطف والرعاية، وهذا لا يكون قضاء لدين، وانما يوجبه على نفسه طبقا لمبدأ العدل[2].

عقوق الوالدين

بعد استعراضنا للآيات والأحاديث الدالة على وجوب بر الوالدين والاحسان اليهما، والأدب معهما، وطاعتهما بالمعروف، لا بد ان نبين ايضا حرمة مخالفة الوالدين في الأمر والنهي، وهو ما يعرف بالعقوق (عقوق الوالدين).

فما هو العقوق لغة، واصطلاحاً، وما الأدلة على تحريمه من الكتاب والسنة؟

العقوق لغة: مشتق من العقّ وهو القطع.

---

(١) محمد الحسيني، اتحاف السادة المتقين : شرح احياء علوم الدين، ٧/ ٢٩٨-٣٠٠.

(٢) د. احمد عبدالرحمن ابراهيم: الفضائل الخلقية في الاسلام - ص ١٣٤.

واصطلاحاً : المراد به صدور ما يتأذى به الوالد من ولده، من قول، أو فعل إلاّ في شرك، او معصية ما لم يتعنت الوالد(١).

أو هو : الاساءة الى الوالدين، والتضييع لحقهما(٢).

أو هو : الإيذاء بالقول او الفعل، أو غيرهما(٣).

أو هو: مخالفة الوالدين فيما يأمران به من المباح، وسوء الأدب في القول والفعل(٤).

هذه التعاريف، وأمثالها لا تخرج في مجموعها عن المعنى اللغوي للعقوق فمعصية الوالدين، وازعاجهما، وسوء الأدب معهما، بالقول او الفعل ، تؤدي الى قطع الصلة، واحداث فجوة كبيرة في العلاقات بينهم وبين أولادهم.

الأدلة على حرمة عقوق الوالدين

ذكرنا أن البر معناه الاحسان وهو في حق الوالدين وحق الأقربين ضد العقوق، وبيّنا بالأدلة من الكتاب الكريم على وجوب بر الوالدين. والناظر فيها يجد انها نفس الأدلة على تحريم عقوق الوالدين، لذلك لا نرى ضرورة لاعادتها.

أما من السنة فقد وردت أحاديث كثيرة تحرم عقوق الوالدين وتعتبره صنو الاشراك بالله سبحانه ، منها :-

١- عن عبد الرحمن بن ابي بكرة عن ابيه، رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قاله : ثلاثا : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين... الحديث»**(٥).

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ١٠/ ٤٠٦

(٢) ابن الأثير: جامع الأصول ١/ ٣٩٨

(٣) سيد سابق: اسلامنا - ص ٢٤٧.

(٤) ابن الجوزي : البر والصلة ١١٢.

(٥) مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ٩١-٩٢ باب بيان الكبائر وغيرها. ابن حجر: فتح الباري ١٠/ ٤٠٥، باب تخصيص الشيء بالذكر اظهارا لعظم موقعه.

٢- ولقد عدّ الاسلام السب عقوقاً، والعقوق من اكبر الكبائر كما مرّ في الحديث ، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «**ان من اكبر الكبائر، ان يلعن الرجل والديه، قيل يا رسول الله : وكيف يلعن الرجل والديه، قال : يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه، فيسب أمه**»[١].

وهذا واضح في ان التسبب في لعن الوالد من اكبر الكبائر، والتصريح بلعنه أشدّ وفيه دلالة على عظم حق الأبوين.

وعن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «**رغم انف، ثم رغم انف، ثم رغم انف ، قيل : من يا رسول الله : قال : من ادرك ابويه عند الكبر احدهما او كلهما فلم يدخل الجنة**»[٢].

فهذا الحديث حكم بالذل والمهانة والصغار لكل من ادرك والديه او احدهما عند الكبر، وكانا بحاجة اليه ولم يدخلاه الجنة.

كيف نعين الابناء على بر الوالدين

ولمنع العقوق والقطيعة لا بد ان يعين الوالد ولده على بره باعطائه ماله من حقوق ﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان﴾[٣]. ويقول ﷺ في الحديث الذي رواه النعمان بن بشير «**اعدلوا بين اولادكم في العطية**»[٤]. وعلى الوالد كذلك ان يكون لين الجانب حسنا في التعامل معهم في القول والفعل، يقول تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**﴾[٥].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري ٤٠٣/١٠ ، باب سب الرجل والديه.

(٢) مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي ١٩٧٨/٤، رقم الحديث ٢٥٥١.

(٣) من سورة النحل، الآية ٩٠.

(٤) ابن حجر، فتح الباري ٥/ ٢١٠ كتاب الهبة

(٥) من سورة آل عمران ، الآية ١٥٩.

وقد قيل «ولدك ريحانتك سبعا، وخادمك سبعا، ثم هو عدوك او شريكك»[1].

ان سلوك الطرق الملتوية ، والمعاملة الفظة القاسية، والعقوبة الظالمة الشديدة فيها جناية على الأولاد تقودهم الى الانحراف والعقوق والتمرد.

جاء رجل الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكو اليه عقوق ابنه، فاحضر عمر الولد وانّبه على عقوقه لأبيه، ونسيانه لحقوقه، فقال الولد : يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق على أبيه: قال: بلى ، قال: فما هي يا امير المؤمنين؟ قال عمر: ان ينتقي امه، ويحسن اسمه، ويعلمه الكتاب (اي القرآن) ، قال الولد: يا امير المؤمنين ان ابي لم يفعل شيئاً من ذلك، اما امي فانها زنجية كانت لمجوسي، وقد سماني جُعلاً (أي خنفساء) ، ولم يعلمني من الكتاب حرفاً واحداً، فالتفت عمر الى الرجل وقال له: جئت الي تشكو عقوق ابنك، وقد عققته قبل ان يعقك، واسأت اليه قبل ان يسئ اليك، وهكذا حمل عمر الرجل حين اهمل تربية ابنه مسؤولية عقوق ولده له.

ومما يذكر في كتب السير ان معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه غضب على ابنه يزيد مرة، فارسل الى الاحنف بن قيس ليسأله عن رأيه في البنين ، فقال : هم ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا، ونحن لهم ارض ذليلة، وسماء ظليلة، فان طلبوا فاعطهم، وان غَضبوا فارضهم، فانهم يمنحوك ودهم، ويَحْبونك جهدهم، ولا تكن عليهم ثقيلاً فيملوا حياتك، ويتمنوا وفاتك»[2].

اذن لا بد من ملاطفة الاولاد وحسن معاملتهم، والاحسان اليهم والرفق بهم، والعدل بينهم، وتعليمهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والعلوم التي خرجت منهما وما الى ذلك.

---

(١) محمد الحسيني، اتحاد السادة المتقين، ٧/ ٢٩١.

(٢) عبدالله ناصح علوان: تربية الاولاد في الاسلام - ١/ ١٢٦-١٢٨.

هذه الامور وغيرها تؤثر تأثيرا فاعلا في تربية الولد وتوجيهه وينتج عن ذلك انها تنعكس على سلوكهم، وتؤدي حتما الى برهم وعدم عقوقهم.

مظاهر بر الوالدين

لبر الوالدين في الحياة والممات صور ومظاهر ، لا تخرج في مجموعها عن طاعتهما بالمعروف، والاحسان اليهما والدعاء لهما، والاستغفار لهما... الخ. فما هي صور برهما في حياتهما وبعد مماتهما :

بر الوالدين في حياتهما

وصور هذا البر كثيرة نذكر منها:-

١- المعاملة بالحسنى، واللطف واللين في القول، والسرور والبشاشة عند اللقاء، وعدم استخدام الألفاظ النابية، وكلمات التبرم والأذى ، واظهار التأفف يقول تعالى: ﴿فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾[١].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص انه قال : جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال : **جئت ابايعك على الهجرة ، وتركت ابواي يبكيان، قال: فارجع اليهما فاضحكهما كما ابكيتهما**»[٢].

٢- ان يرفق بهما، ويرحمهما ، ويدعو لهما ، ولا يتعالى عليهما حتى لو كانا كافرين، يقول تعالى : ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾[٣].

٣- ان يطيعهما بالمعروف في كل امر يأمرانه به ما دام ليس فيه عصيان ، يقول تعالى﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾[٤].

(١) من سورة الاسراء الآية ٢٣.
(٢) ابن الأثير : جامع الأصول ١/ ٤٠٢
(٣) من سورة الاسراء - الآية ٢٤.
(٤) من سورة لقمان الآية ١٥.

٤- ان يباشر خدمتهما بنفسه وهما محتاجان اليه، فهما سبب في دخوله الجنة ، ففي الحديث الصحيح قال ﷺ «رغم انف . . . من ادرك ابويه عند الكبر أحدهما او كليهمافلم يدخل الجنة»[١].

٥- الانفاق عليهما حتى لو كانا غنيين، وفي حال فقرهما فالانفاق عليهما يكون واجباً.

يقول تعالى: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾[٢]، وللوالد ان يَجْتاح مال ابنه، عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ان رسول الله ﷺ أتاه رجل فقال: يا رسول الله : ان لي مالا وولدا، وان ابي يجتاح مالي ، فقال: انت ومالك لأبيك، ان اولادكم من اطيب كسبكم، فكلوا من كسب اولادكم»[٣].

٦- ان يستأذنهما في الخروج الى الجهاد فاذا اذنا له ، خرج والا فعليه القيام على شئونهما.

عن ابي سعيد الخدري ان رجلاً من اهل اليمن هاجر الى رسول الله ﷺ فقال له: هل لك احد باليمن؟ قال: ابواي، قال: أذنا لك؟ قال: لا ، قال: فارجع اليهما، فاستأذنهما ، فان اذنا لك، فجاهد والا فبرهما»[٤].

ومهما قدم الولد لوالديه، فلن يجزيهما الا اذا خلّصهما من الرق، لان العتق افضل ما ينعم به احد على احد لانه جبرّ النقص الذي فيه، وكمّلّ له احكام الاحرار في جميع التصرفات. عن ابي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا يجزي ولد والداً الا ان يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه»[٥].

---

(١) مسلم : صحيح مسلم بشرح النووي ١٩٧٨/٤ رقم الحديث ٢٥٥١.

(٢) من سورة البقرة الآية ٢١٥.

(٣) ابن الأثير: جامع الأصول ٣٩٩/١، والحديث حسن.

(٤) ابن الأثير، جامع الاصول، ٤٠٣/١، اخرجه ابو داود وصححه ابن حبان.

(٥) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي ١١٤٨/٢، كتاب العتق باب فضل عتق الوالد رقم ١٥١٠.

وغير ذلك من صور البر كالصدق معهما والتزام الكلمة الطيبة معهما والحفاظ على سمعتهما وعدم شتمهما، والنيل منهما... الخ .

بر الوالدين بعد مماتهما

بر الوالدين بعد مماتهما لا يقل اهمية عن برهما حال حياتهما، فكما ان لبرهما في حياتهما صوراً فكذلك برهما بعد مماتهما. ويجمع هذه الصور او اكثرها الحديث الذي رواه أبو أسيد مالك بن ربيعة الساعدي الآتي الذكر.

ومن صور البر:

١- الصلاة عليهما والاستغفار لهما وانفاذ عهدهما ... الخ.

فعن ابي اسيد بن مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ اذ جاءه رجل من بني سلمة، فقال يا رسول الله هل بقي من بر ابوي شئ ابرهما بعد موتهما، فقال: نعم: « **الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وانفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل الا بهما، واكرام صديقهما**»[1] فهذا الحديث العظيم لا ينهي الصلات الطيبة بالوالدين بموتهما، بل يجعلها حبلا موصولا ما دامت الحياة.

٢- صلة اقاربهما واصدقائهما بعد موتهما :

عن ابن مر رضي الله عنهما قال : اني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ان من ابر البر صلة الرجل اهل ودّ ابيه بعد ان يولي**»[2].

٣-ومن البر الصوم والحج عن الأم .

عن بريده بن الحصيب قال: بينا انا جالس عند رسول الله ﷺ اذ اتته امرأة، فقالت: اني تصدقت على أمي بجارية، وانها ماتت، فقال: وجبَ اجرُك،

(١) ابن الاثير: جامع الاصول ١/٤٠٧، اخرجه ابو داود ورجاله ثقات.

(٢) مسلم صحيح مسلم شرح النووي ٤/١٩٧٩ حديث رقم ٢٥٥٢.

وردّها عليك الميراث. قالت: يا رسول الله، انها كان عليها صوم شهر، أفأصوم عنها ؟ قال: صومي عنها، قالت : انها لم تحج قط، أفأحج عنها؟ قال: «حجي عنها»[1].

٤- زيارة قبريهما بعد موتهما :

عن ابي هريرة قال: « زار النبي ﷺ قبر امه فبكى وأبكى من حوله، فقال: استأذنت ربي في ان استغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في ان ازور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فانها تذكر الموت»[2].

٥- الصدقة عنهما:

عن عائشة ان رجلاً اتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله: ان امي افتلتت نفسها، ولم توص وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها اجر ان تصدقت عنها؟ قال: «نعم»[3].

٦- ومن برهما ايضا الاستغفار لهما:

يقول تعالى ﴿رب اغفر لي ولوالدي﴾[4].

الآثار المترتبة على بر الوالدين

بعد أن بينا صور بر الوالدين في حياتهما وبعد مماتهما، نستطيع القول ان الآباء الذي تحملوا ما تحملوا من الانفاق، والرعاية، والعناية والتربية، والصبر على صروف الأيام فان الآباء ينتظرون من ابنائهم الشيء الكثير غير المال، ينتظرون في حال حياتهما العطف والحب والحنان والرعاية والاحترام، ويعلقون عليهم

---

(١) ابن الأثير: جامع الأصول ١/ ٤٠٤ رواه مسلم والترمذي.

(٢) مسلم ، صحيح مسلم بشرح النووي ٢/ ٦٧١ كتاب الجنائز رقم الحديث ٩٧٦

(٣) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي ٢/ ٦٩٦ كتاب الجنائز رقم الحديث١٠٠٤، وافتلتت نفسها : ماتت فجأة.

(٤) من سورة نوح - الآية ٢٨

الآمال ، فهم مصدر فخرهم وعزهم.

وبعد الممات ينتظرون منهم الدعاء والاستغفار ليتصل برهم في الحياة ببرهم بعد الممات، وكل هذا لا تعرفه الحضارة المادية بشكليها، الفردية والجماعية ، لان العلاقة القائمة بين الوالدين والأولاد تعتمد على تفسير كل خلق وفضيلة تفسيرا ماديا يقوم على اشباع شهوتي البطن الفرج. واي قيمة خلقية تقوم على غير هذا التفسير فلا قيمة لها عندهم، اذن هذه التربية جافة خالية من شفافية الروح ونداوتها.

أما الآثار المترتبة على بر الوالدين فهي:-

١- بر الوالدين يؤدي الى مرضاة الله تعالى والفوز بجنته والعقوق اثمه عظيم ويقود الى النار، ودعاء الوالدين يثبت المال والولد، وكذلك يستأصل المال والولد.

٢- بر الوالدين باب لتفريج الكربات واجابة الدعاء، والنجاة من المآزق الضيقة. مثاله قصة احد الثلاثة الذين انطبق عليهم فم الغار، ثم فرج الله عنهم بفضل اعمالهم الصالحة، فعن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ « ... فقال احدهم ، اللهم انه كان لي والدان شيخان كبيران، ولي صبيةصغار كنت ارعى عليهم، فاذا رحت عليهم فحلبت بدأت بوالديّ اسقيهما قبل ولدي، وانه ناء بي الشجر، فما اتيت حتى امسيت فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت احلب، فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسهما ، اكره ان اوقظهما من نومهما، واكره ان ابدأ بالصبية قبلهما، والصبية يتضاغون عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فان كنت تعلم اني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء، ففرج الله لهم فرجة حتى يرون منها السماء ... الحديث»[1].

(١) ابن حجر، فتح الباري ١٠/ ٤٠٤ كتاب الادب، باب اجابة دعاء من بر والديه، مسلم : صحيح مسلم بشرح النووي ٤/ ٢٠٩٩ كتاب الذكر باب فضل اصحاب الغار الثلاثة.

وبالمقابل فان عقوق الوالدين يؤدي الى تعجيل العقوبة في الدنيا قبل الآخرة، ومثاله قصة جريج العابد.

فعن ابي هريرة رضي الله عنه ، قال: « لم يتكلم في المهد الا ثلاثة : عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وكان جريج رجلاً عابدا، فاتخذ صومعة ، فكان فيها ، فأتته امه وهو يصلي، فقالت : يا جريج! فقال : يا رب! أمي وصلاتي، فاقبل على صلاته، فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج! فقال : يا رب أمي وصلاتي ، فأقبل على صلاته فانصرفت ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت : يا جريج ! فقال أي ربِّ ! امي وصلاتي ، فأقبل على صلاته، فقالت : اللهم لا تمته حتى ينظر الى وجوه المومسات، فتذاكر بنو اسرائيل جريجاً وعبادته»[1] ، فأجاب الله دعوتها فيه، فلم يمت حتى نظر في وجوه المومسات.

٣- بر الوالدين يؤدي الى البركة وطول العمر والزيادة في الرزق. والدليل: عن انس بن مالك، قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من سره ان يبسط عليه رزقه، او يُنسأ في أثره، فليصل رحمه »[2] والوالدان من الرحم فلا بد من صلتهما.

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يزيد في العمر الا البر»[3] وغير ذلك من ثمار بر الوالدين التي تؤدي الى توفيق البار بوالديه في حياته كلها، وفوزه بمرضاة الله في الآخرة .

---

(١) مسلم/ صحيح مسلم بشرح النووي، ٤/١٩٧٧، كتاب البر والصلة رقم ٢٥٥٠، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها، والمومس : البغي.

(٢) مسلم/ صحيح مسلم بشرح النووي، ٤/١٩٨٢، رقم الحديث ٢٥٥٧، وله روايات أخرى. والأثر: الأجل، وينسأ له فيه : أي يزاد.

(٣) ابن الجوزي، البر والصلة -ص ٥٠.

المبحث الحادي عشر
حق الجار(*)

من فروع الرحمة، ومظاهر التراحم بين المسلمين، الاحسان الى الجار، وحمايته، وحفظ حرمته، والحرص على بره، والكف عن ايذائه، واحتمال أذاه... الخ. فما معنى الجار في اللغة والاصطلاح، وما هي اقسام الجيران ـ وما الأدلة على برهم من الكتاب والسنة، ثم ما الحقوق التي قررها الشرع للجيران.

تعريف الجار

الجار- لغة : مأخوذ من جور، والجوْر: الميل عن الجادّه، وعدم العدل - أي الظلم الذي هو نقيض العدل[1].

والجار : الداخل في الجوار أي في الأمان وهو المجاور.

ويجير بين اثنين، أي يفصل بينهما ويمنع احدهما من البغي على الآخر[2] . وسمي الجار جاراً لمجاورته لك، ولميلك الى رفع الظلم عنه، وحمايته ، وكف الأذى عنه، والإحسان إليه.

أقسام الجار

إن اسم الجار يشمل : المسلم، والكافر والعابد، والفاسق، والصديق،

(*) د. وليد السعد

(١) الفيروز أبادي، القاموس المحيط - ص/ ٤٧٠.

(٢) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٣١٢.

والعدو، والقريب والنافع، والضار، والأقرب داراً والأبعد داراً .... وهكذا [1]

وبصورة أخرى - الجيران ثلاثة :-

جار له حق، وهو المشرك، له حق الجوار ولا رحم له، وجار له حقان، وهو المسلم له حق الجوار، وحق الاسلام، وجار له ثلاثة حقوق، وهو المسلم الذي له رحم، له حق الجوار، وحق الاسلام، وحق الرحم[2].

«الأدلة على الوصاة بالجار من الكتاب، والسنة»

هناك آية واحدة من كتاب الله عز وجل، تدل على الوصاة بالجار وايصال ضروب الاحسان والخير اليه، يقول تعالى : **﴿وَاعْبُدُواْ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ... الآية﴾**[3].

والجار القريب: من بَيْنهما قرابة، وقيل: المسل، وقيل : المرأة، والجار البعيد (الُجنب) من ليس بينهما قرابة، وقيل: غير المسلم (اليهودي، والنصراني) وقيل : الرفيق في السفر[4].

أما الأدلة من السنة فهي كثيرة حيث حثت على ملاطفته، وبره، والحفاظ عليه، بل وعدت ايذاءه بالقول، والفعل من الكبائر التي يعاقب عليها، وعدت حمايته وكف الأذى عنه بالقول والفعل من الايمان بالله تعالى واليوم الآخر.

واليك طائفة من هذه الأحاديث.

١- عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال : **«ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت انه سيورثه»**[5].

(١) ابن حجر - فتح الباري، ١٠/ ٤٤١.

(٢) ابن حجر- فتح الباري ١٠/ ٤٤٢.

(٣) من سورة النساء - الآية ٣٦.

(٤) ابن حجر- فتح الباري ١٠/ ٤٤١.

(٥) ابن حجر: فتح الباري ١٠/ ٤٤١ كتاب الأدب باب الوصاة بالجار.

٢- عن شريح - رضي الله عنه ان النبي ﷺ قال: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: ومن يا رسول الله، قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه**»(١).

٣- عن ابن عباس - رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليس المؤمن الذي يشبع، وجاره جائع**»(٢).

٤- عن عائشة - رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله ان لي جارتين فالى ايهما اهدي، قال: «**الى اقربهما منك باباً**»(٣).

٥- عن ابي هريرة - رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقول: «**يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة لجارتها، ولو فِرْسَن شاة**»(٤).

حق الجار

بعد أن ذكرنا الأدلة على الوصاة بالجار التي وصلت الى مظنة توريثه حسيّاً، أي مشاركا في المال مع اقارب المتوفى، او معنويا وذلك بتعليمه ما يحتاج اليه، وعدم التعرض اليه بأي نوع من انواع الايذاء، والتصدق عليه اذا كان فقيراً، واكرامه اذا كان غنياً، فمن هو الجار الواجب على المسلم بره، هل هو الجار المشرك، او الجار المسلم، هل هو من التصقت داره بدارك، او لم تلتصق ؟ وهل هو من يسكن في محلتك، او هو زميلك في العمل، او شريكك في التجارة. . . . الخ.

والحق ان الجار في الاسلام يشمل كل هؤلاء، ويجب ان يعطى كل واحد

---

(١) المرجع السابق ١٠/ ٤٤٣، والبواثق: جمع بائقة وهي الداهية، والشيء المهلك والأمر الشديد الذي يوافي بغتة.

(٢) ابن الجوزي، البر والصلة - ص ١٧٨.

(٣) ابن حجر: فتح الباري ١٠/ ٤٤٧.

(٤) ابن حجر: فتح الباري ١٠/ ٤٤٥، والمعنى: لتوادد الجارة جارتها بهدية ولو حقرت، وخص النهي بالنساء لانهن موارد المودة والبغضاء.

حقه بحسب قربه، او بعده.

وجامع هذه الحقوق ان توصل ضروب الاحسان اليه بحسب الطاقة، بالهبة، والسلام، وطلاقة الوجه عند اللقاء، وتفقد حاله، ومعاونته فيما يحتاج اليه، وكف اسباب الأذى عنه على اختلاف انواعه، حسية كانت ام معنوية، وارادة الخير له، وموعظته بالحسنى والدعاء له بالهداية»[1].

وهذه الحقوق تعود الى أربعة أصول[*]

أولاً: كف الأذى عن الجار

ومن الأذى، الزنى والسرقة، والسباب، والشتائم، ورمي الأوساخ... الخ، واخطرها الزنى والسرقة.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت - أو سئل رسول الله ﷺ: **«أيّ الذنب عند الله أكبر ؟ قال: ان تجعل لله ندا، وهو خلقك، قلت: ثم أي ؟ قال: ثم ان تقتل ولدك خشية ان يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: ان تزاني بحليلة جارك..»**[2].

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: **ما تقولون في الزنى؟ قالوا: حرام حرمه الله ورسوله فهو حرام الى يوم القيامة، قال: فقال رسول الله ﷺ «لان يزني الرجل بعشر نسوة ايسر عليه من ان يزني بامرأة جاره، قال: ما تقولون في السرقة؟ قالوا: حرام حرمها الله ورسوله فهي حرام، قال: لان يسرق الرجل من عشرة ابيات ايسر عليه من ان يسرق من جاره»**[3].

---

(١) ابن حجر، فتح الباري ١٠/٤٤٣،٤٤٦.

(*) انظر عبدالله ناصح علوان: تربية الاولاد في الاسلام - ص ٣٩٨ وما بعدها بتصرف، ومحمود حمدي الدمشقي- ادب الخلق في الاسلام - ص ١٠٠-١٠١,

(٢) ابن حجر: فتح الباري ٨/ ٤٩٢، كتاب التفسير، باب (والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر).

(٣) حمدي عبد المجيد السلفي، مرشد المحتار الى ما في مسند الامام احمد من الأحاديث والآثار٢/ ٣٩٩

وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره**»[1].

أما اذى الجار باللسان، واليد والذي يحرم المسلم ثواب عبادته وصلاته، وصيامه. . .الخ، فقد قال فيه عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي يرويه ابو هريرة رضي الله عنه قال: «قيل للنبي ﷺ ان فلانة تقوم الليل، وتصوم النهار، وتعمل وتتصدق وتؤذي جيرانها بلسانها، قال رسول الله ﷺ : «**لا خير فيها هي من اهل النار**»[2]. ولقد كانت بعض هذه المحامد موجودة في الجاهلية ، يقول عنترة:

واغض طرفي ان بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

ثانياً : حماية الجار

وتكون حماية الجار بكف الظلم عنه، وعدم خذلانه، والأصل فيه ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما ان رسول الله ﷺ قال: «**المسلم اخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه(يخذله) من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة**»[3].

ثالثا: الاحسان الى الجار

لم يكتف الاسلام بكف الاذى عن الجار وحمايته وكف الظلم عنه بل طالبنا بان نقرضه ، اذا استقرض، وان نهنئه ، ان اصابه خير، وان نعينه، اذا استعان، وان نعزيه، ان اصابته مصيبة، وان نعوده اذا مرض، وان نعطيه اذا احتاج، الى غير ذلك من انواع البر والاحسان بين الجيران، ولقد عد رسول الله ﷺ اكرام

---

(١) ابن حجر- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٠/٤٤٥.

(٢) ابن الجوزي : البر والصلة - ص ١٧٨.

(٣) ابن حجر- فتح الباري، ٥/٩٧،كتاب المظالم- باب (لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه).

الجار من خصال الايمان ، فعن ابي شريح رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»(١).

ومن الأحاديث الدالة على الاحسان اليه :

١- عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ انه قال: «**خير الجيران عند الله عز وجل خيرهم لجاره**»(٢).

٢- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كم من جار متعلق بجاره يوم القيامة، يقول يا رب هذا اغلق بابه دوني فمنع معروفه**»(٣).

وغير ذلك من الأحاديث التي سبق وان ذكرناها في الأدلة على الوصاة بالجوار والتي تتحدث عن اطعام الجار والإهداء اليه ولو ظلف شاة.

ويضاف الى ذلك ان بعض المفسرين حمل كلمة الماعون في قوله تعالى ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ على نحو ما يطلبه الجار من جاره من النار، والملح، والماء، وما اعتاد الناس استعارته كالقدر والسكين والقدوم والغربال . . . الخ.

رابعاً: احتمال أذى الجار:

ان الذي يحلم على من جهل، ويحسن الى من اساء اليه، ويعفو عمن ظلمه، يكون في أعلى مراتب الكرامة، والصفح والعفو عن المذنب دواء لسوء خلقه وتقويم لانحرافه واعوجاجه.

يقول تعالى : ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(٣).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ابن الجوزي ، البر والصلة - ص ١٧٩ .

(٣) البر والصلة- ص ١٧٩ .

(٤) من سورة فصلت - الآية ٣٤.

ومن المسلَّم به عند علماء التربية والأخلاق ان التسرع الى دفع السيئة بمثلها او بأشد منها دون نظر الى ما يترتب عليها من الأثر السيء، والنتائج الوخيمة دليل واضح على ضيق الصدر، والعجز عن كبح جماح الغضب، وانما يتفاضل الناس في الاخلاق والسيادة ، على قدر تدبرهم للعواقب، وتبصرهم للنتائج ، واسكاتهم لثورة الانفعال اذا طغت»[1] .

ومع وفرة هذه الوصايا الاسلامية بالجار نلاحظ كثيرا من الناس يؤذون جيرانهم ولا يؤدون لهم حقوقهم، فكم من مزعجات صوتية تكاد تبعث الموتى من قبورهم يطلقها بعض الجيران غير مراعين حقوق جيرانهم عليهم، وكم من قمامات يرميها بعض الجيران على أبواب جيرانهم او منازلهم، وكم يستعير بعض الناس المتاع من جيرانهم ثم لا يردونه، وكم ينظر بعض الجيران الى محارم جيرانهم بفضول قبيح، ونظرات مريبة، وكم من جيران لا امانة لهم على اموال جيرانهم، وأعراضهم، وكم من رجل فاضل هجر داره ليفارق جاره ويكف عن نفسه وأهله بوائقه. . .[2] .

ولو انا فهمنا ما طلبه الاسلام منا في كل امر من امور حياتنا لعادت الينا سعادتنا الضائعة وشخصيتنا الحقيقية، وميزتنا على جميع الأمم التي نضب فيها معين الخير وأقفرت فيها ربوع الفضيلة ، وجفت ينابيع الرحمة .

---

(١) عبدالله ناصح علوان - ص ٤٠٤ .

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني: الاخلاق الاسلامية واسسها ٢/٦٣ .

المبحث الثاني عشر
الحياء والبذاءة

الحياء خلق من الأخلاق الفاضلة التي اتفقت عليها دعوة الانبياء والرسل بدءاً من آدم عليه السلام وانتهاءً برسول الله ﷺ، واستقر في شرعنا، فعن ابي مسعود البدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ **«ان مما ادرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ماشئت »**(١). وفي بيان أن الحياء سنة من سنن الأنبياء، قال رسول الله ﷺ : **«أربع من سنن المرسلين : الحياء، والتعطر والســـــواك والنكاح»**(٢). والحيـاء سمة من سمات الخير عند الانسان، وخلق الكرام وعنوان الفضل والنبل ، من حرمه حرم الخير كله ومن تحلى به ظفر بالعزة والكرامة، وعندما سمع رسول الله ﷺ رجلاً يعظ أخاه في الحياء، قال : **«دعه فان الحياء لا يأتي إلا بخير»**(٣)وفي رواية **«دعه فان الحياء من الايمان»**(٤)وضد الحياء البذاءة والوقاحة، وهما ليستا من صفات المؤمنين الأتقياء، قال رسول الله ﷺ : **«ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان ولا بالفاحش القـــــول البذي»**(٥).

فما حقيقة الحياء والبذاء؟ وما الأدلة الشرعية على فضيلة الحياء؟ وما أنواعه؟ وما الفرق بينه وبين الخجل؟ وما الثمرات والفوائد المترتبة على الحياء؟ وما

(١) رواه البخاري

(٢) رواه الترمذي - حديث رقم ١٠٨١

(٣) متفق عليه

(٤) البخاري ح رقم ٢٤ ومسلم

(٥) رواه احمد والحاكم- انظر الصحيحين - حديث رقم ٣٢٠، صحيح الجامع - حديث رقم ٥٢٥٧؟

علاقة الحياء بالاسلام؟ وكيف ننمي هذا الخلق في الإنسان؟ هذا ما سنبحثه في هذه العجالة.

تعريف الحياء والبذاء:

الحياءُ- لغة: قال الفيروز أبادي : الحياء الحشمة[(١)]، وقال ابن حجر، الحياء لغة هو تغير وانكسار يعتري الانسان من خوف ما يعاب منه[(٢)].

وأما الحياء من ناحية شرعية واصطلاحية فقد عرفه العلماء بتعاريف مختلفة نذكر منها :-

١- قال الحافظ النووي وابن حجر: الحياء هو خلق يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق[(٣)]، ولهذا جاء في الحديث **«الحياء خير كله»**[(٤)].

٢- وقال الراغب : الحياء هو انقباض النفس عن القبيح وهو من خصائص الانسان ليرتدع عن ارتكاب كل ما يشتهي فلا يكون كالبهيمة. وهو مركب من جبن، وعفة فلذلك لا يكون المستحيي فاسقاً وقلّما يكون الشجاع مستحيياً .

٣- وقال غيره : هو انقباض النفس خشية ارتكاب ما يكره وهو أعم من ان يكون شرعيّاً أو عرفيّاً أو عقليّاً.

مما تقدم من تعريفات مختلفة نخلص إلى أن الحياء يعود إلى حقيقة واحدة هي : الخوف من الظهور بمظهر النقص، وهو يعبر عن علو الهمة إلى الكمالات ونفورها من النقائض وكراهيتها لها[(٥)].

---

(١) القاموس المحيط ٣٢٣:٤

(٢) فتح الباري ١/ ٥٢.

(٣) رياض الصالحين ٢٢٤، الفتح ١:٥٢.

(٤) شرح مسلم ٢/ ٥ النووي رواه مسلم

(٥) الأخلاق الإسلامية ٥٠٦:٢

القحة والبذاء:

القحة لغة: قال في القاموس وقح الرجل قل حياؤه [1]، فالقحة اذن قلة الحياء، والبذاء لغة: بذأ الرجل الموضع كرهه[2]، والمباذأة: المفاحشة وبذأه أي رأى منه حالة كرهها واحتقره وذمه والبذاء فحش القول.

القحة والبذاءة اصطلاحاً: هي حالة تصيب الانسان تجعله ماجناً يجاهر بقبائح الأفعال ولا يكترث بما يقوله الناس فيه وبما يعيبونه به[3] بل قد يصل به الأمر إلى التفاخر بما يقوم به من أفعال مشينة. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«كُلّ أمتي مُعَافى الا المُجَاهرون وإن من المجاهرة أن يعمل الرجُلُ عملاً بالليل ثم يصبح وقد ستره الله فيقول يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه»**[4].

الأدلة الشرعية على فضيلة الحياء وأمر الإسلام به:

من المعلوم أن الحياء خلق الكرام وسمة أهل المروءة والشرف وعنوان النبل والفضيلة، والحياء احساس رقيق وشعور دقيق، من تحلّى به ظفر بالعزة والكرامة ونال الخير أجمع، فلا غرو أن يدعو الاسلام اليه ويحث اتباعه عليه فهو من مكارم الأخلاق التي بعث النبي ﷺ لتتميمها، والعرب في جاهليتها كانت تمتدح بهذا الخلق وتعتبره مأثرة من مآثرها وفيه يقول عنترة العبسي:-

وأغض طرفي ان بدت لي جارتي　　　حتى يواري جارتي مأواها

وقال آخر:

يعيش المرءُ ما استحيا بخير　　　ويبقى العود ما بقي اللحاءُ

(١) القاموس المحيط ١/ ٢٦٥، مختار الصحاح ٧٣١.

(٢) مختار الصحاح ص ٤٥.

(٣) الأخلاق الاسلامية ٢/ ٥٠٨.

(٤) متفق عليه.

ويتمدح أبو سفيان رضي الله عنه قبل اسلامه بهذا الخلق عندما سأله هرقل عن رسول الله ﷺ فيقول : «**فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبا لكذبت عنه**»[(١)].

ولما كان الحياء خلقاً حسناً، وامارة صادقة على طبيعة الانسان وقيمة ايمانه ومقدار أدبه فقد تعددت النصوص الشرعية من القرآن الكريم ومن السنة المطهرة وأقوال السلف في الحث على هذا الخلق واليك بعضاً من تلك النصوص :-

أولاً: الحياء صفة من صفات الله تبارك وتعالى نؤمن بها على الوجه الذي يليق بجلاله وقدرته، ولا نشبهها بصفات المخلوقات قال تعالى : **﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾**[(٢)]، وقال تعالى : **﴿وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾**[(٣)]، وعن سلمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «**إن ربكم حييّ كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردّهماصفراً خائبتين**»[(٤)].

قال ابن قيم الجوزية[(٥)] رحمه الله ، وأما حياء الرب تعالى من عبده فذاك نوع آخر، لا تدركه الأفهام ، ولا تكيفه العقول ، فإنه حياء كرم وبر وجود وجلال.

ثانياً: الحياء صفة من صفات ملائكة الله الكرام، لقد أذن الرسول ﷺ لأبي بكر وعمر في الدخول عليه ثم لما جاء عثمان جلس عليه الصلاة والسلام فقالت

---

(١) البخاري حديث رقم ٧.

(٢) البقرة ٢٦.

(٣) الأحزاب ٥٣.

(٤) انظر صحيح الجامع ، حديث رقم ١٧٥٣ وهو حديث صحيح "حم. د. ت. هـ . ك. "

(٥) مدارج السالكين ٢٠/ ٢٦١.

عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله مالي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان رضي الله عنه فقال رسول الله ﷺ : «**إن عثمان رجل حيي وإني خشيت ان أذنت له على تلك الحال ان لا يبلغ إليّ حاجته**»[١]. وقال الليث : وقال جماعة الناس إن رسول الله ﷺ قال لعائشة رضى الله عنها : «**ألا أستحيي ممن تستحي منه الملائكة**»[٢]؟

ثالثاً: الحياء صفة من صفات انبياء الله تعالى ورسله الكرام، وخلق من أخلاقهم عليهم أفضل الصلاة والسلام، فهذا رسول الله ﷺ يصفه ابو سعيد الخدري رضي الله عنه فيقول «**كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه**»[٣]. ومن حيائه ﷺ أنه لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخابا في الأسواق[٤].

وهذا نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام كان حيياً ستّيراً، وكان يستر جميع بدنه حتى آذاه من آذاه من بني اسرائيل، وحياؤه عليه الصلاة والسلام من همته العالية التي تنشد الكمال، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : إن موسى كان رجلا حيياً ستيرا لا يرى شئ من جلده استحياء، فآذاه من آذاه من بني اسرائيل فقالوا : ما تستر هذا التستر الا لعيب أو أدره، وإن الله أراد أن يبرئه ، فخلا يوما ليغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه فجمح موسى في أثره يقول: ثوبي حجر . . . حتى انتهى إلى ملأ من بني اسرائيل فرأوه عريانا ، فوالله ان بالحجر لندبا من ثوبي حجر أثر ضربه ثلاثا أو اربعا أو خمسا[٥] فلذلك قوله: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ آذَوْاْ مُوسَى فَبرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُواْ**

---

(١) حم، ومسلم ، صحيح الجامع - حديث رقم ٢١٠٣، وصحيحه ١٦٨٧.

(٢) حم ١/ ٧١، أسد ٣/ ٤٨٨.

(٣) متفق عليه - البخاري ح ٦١٠٢، ومسلم ٢٣٢٠.

(٤) الترمذي، الأخلاق الاسلامية ٢/ ٥١٣.

(٥) متفق عليه

﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾[1].

وهذه ابنة الرجل الصالح الذي رعى موسى عليه السلام غنمه قد ذكر الله تعالى حياءها بقوله: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[2]

ثم إن حياء موسى عليه السلام بلغ القمة مع ابنة هذا الرجل إذ أمرها أنْ تمشي خلفه، ولا تسير أمامه لأنَّ نسل الأنبياء لا ينظرون الى أعجاز النساء.

رابعاً: الحياء من الأخلاق التي دعا اليها جميع الأنبياء والرسل وهو أصل الأخلاق، وهو قاسم مشترك بين دعوة الانبياء كدعوتهم للتوحيد والعقيدة، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى «اذا لم تستح فاصنع ما شئت»[3]. قال ابن رجب الحنبلي[4] اذا لم تستح فاصنع ما شئت في معناه قولان :

أحدهما: أنه ليس بمعنى الأمر ولكنه على معنى الذم والنهي وأهل هذه المقالة لهما طريقان :-

انه بمعنى التهديد والوعيد والمعنى اذا لم يكن لك حياء فاعمل ما شئت فالله يجازيك كقوله تعالى ﴿اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[5].

أنه أمر ومعناه الخبر والمعنى ان لم يستح صنع ما شاء فان المانع له من فعل القبائح هو الحياء فاذا فقده انهمك في كل فحشاء ومنكر .

---

(١) الأحزاب ٦٩..

(٢) القصص ٢٥،٢٦.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) جامع العلوم ١٨٨ .

(٥) فصلت ٤٠.

ثانيهما: أنه أمر بفعل ما يشاء، على ظاهره.

وقال في الوافي[1] شرح الأربعين النووية : ورد عن علمائنا الأجلاء ثلاثة معانٍ للحديث:-

١- أمر بمعنى التهديد والوعيد.

٢- امر بمعنى الخبر.

٣- امر بمعنى الاباحة، وما جاء في الوافي موافق لما سبق في جامع العلوم والحكم.

خامسا: لقد ركز رسول الله ﷺ على هذا الخلق كثيراً ورغب فيه وحث عليه حتى لا يغلب على المؤمنين انفراط الشهوة وانحطاط الخلق[2] والحياء إيمان وشعبة من شعبه اذ هو عنوان الفضل والنبل والخلق القويم ، قال عليه الصلاة والسلام «**الايمان بضع وستون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها اماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من شعب الايمان**»[3]وإذا عدم الانسان الحياء فقد الخلق القويم وأدّى ذلك إلى نقصان إيمانه بل قد يؤدي ذلك إلى سلب الايمان بالكلية، والملاحظ أن الباعث على الحياء من الوقوع في المعاصي وسوء الأفعال هو الايمان وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ : «**الحياء والايمان قرنا جميعا فاذا رفع احدهما، رفع الآخر**»[4]، وفي حديث آخر: «**الحياء والعي شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق**»[5].

(١) الوافي ص ١٤٠.

(٢) اخلاق الرسول وشمائله ص ١١٤.

(٣) متفق عليه: البحاري حديث ٩ ، مسلم ح ٣٥.

(٤) صحيح الجامع الصغير ٣:١٠٣ ح ٣١٩٥.

(٥) سابق : ٣، ١٠٣ ح ٣١٩٦.

سادساً: الحياء ملاك الخير وهو عنصر النبل في كل عمل وهو مظنة المدح وزينة لصاحبه ، قال رسول الله ﷺ : «**ما كان الفحش في شئ قط إلا شانه ولا كان الحياء في شئ إلا زانه**»[١]، وهو خلق الاسلام، فعن زيد بن طلحة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**إن لكل دين خُلُقاً وان خلق الاسلام الحيا**»[٢]، وهذا الخلق خلق أصحاب الانبياء ووصف رسول الله ﷺ عثمان فقال: «**وأصدقهم حياء عثمان**».

سابعاً: الحياء ضرورة من الضرورات التي يحتاجها الأفراد في بناء مجتمعاتهم، وهو شعور دقيق يتجلى على العبد، واذا نزع الحياء من الفرد أو القبيلة أو الأمة فقد استربت طريقها الى العذاب والهلاك. قال تعالى : ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً**﴾[٤]، فلما نزع من المترفين الحياء فسقوا ولا فسوق مع الحياء ولا حياء مع الفسوق.

قال ابن كثير: معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة[٥]، قلت: ومن كانت هذه صفته فقد قل حياؤه أو زال. قال عمر رضي الله عنه : من قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه[٦].

أنواع الحياء:

إن للحياء أقساماً كثيرة باعتبارات مختلفة ، نوجزها فيما يلي :

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه،، حم ، عن انس ، وانظر خلق المسلم ص ١٦٦، وهو حديث صحيح ، انظر صحيح الجامع،حديث رقم ٥٥٣١.

(٢) رواه ابن ماجه ومالك، صحيح الجامع - حديث رقم ٢١٤٥.

(٣) هود ١١٧.

(٤) الاسراء ١٦.

(٥) ابن كثير ٣/ ٣٢.

(٦) مكارم الاخلاق ص ٢٠.

١- باعتبار الفطرة أو الاكتساب

٢- باعتبار مدحه وذمه

٣- باعتبار ماهيته ومن الأحق بان يستحيا منه؟

الاعتبار الأول: الفطرة والاكتساب

إن الحياء باعتباره مركوزاً في فطرة الانسان أو اكتسابا يكتسبه الانسان مع مرور الأيام والليالي واختلاطه بالآخرين ينقسم الى قسمين هما :

-حياء فطري.

-حياء مكتسب.

١- الحياء الفطري: ما كان خلقا وجبلة يفطر الانسان عليها، فهو من أجلّ الأخلاق التي يمنحها الله للعبد ، ومن هذا الصنف ما قاله رسول الله ﷺ للأشج بن عبد قيس: إن فيك لخصلتين يحبهما الله قلت ما هما؟ قال: الحلم، والحياء، قلت : أقديما أم حديثا ؟ قال : بل قديماً ، قلت:الحمد لله الذي جعلني على خلتين يحبهما الله[1]، ومن هذا الحياء ايضا حياء رسول الله ﷺ حيث وصفه ابو سعيد الخدري رضي الله عنه بقوله : كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها»[2]، وقال عمر رضي الله عنه : من استحيا اختفى ومن اختفى اتقى ومن اتقى، وقي»[3].

قال الجراح بن عبدالله الحكمي وكان فارس أهل الشام : تركت الذنوب حياء أربعين سنة ثم أدركني الورع»[4].

الحياء المكتسب: وهو الحياء الذي يكتسبه الانسان اكتسابا من معرفة الله

(١) رواه مسلم .

(٢) سبق تخريجه.

(٣) مكارم الأخلاق ص ٢١ ، جامع العلوم ١٨٩ .

(٤) جامع العلوم ١٩٠ .

تعالى ومعرفة عظمته وقربه من عباده واطلاعه عليهم وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور[1]، ومن حقق هذا النوع من الحياء فقد وصل إلى أعلى درجات الايمان وهي مرتبة الاحسان « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [2]، قال بعض السلف : رأيت المعاصي مذلة فتركتها مروءة فصارت ديانة»[3]، قال بعض الحكماء: من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه»[4]، وليس لمن سلب هذا النوع من الحياء صاد عن قبيح أو زاجر عن محظور فهو يقدم على ما يهوى .

وقال صالح بن عبد القدّوس[5]

اذا قل ماء الوجه قل حياؤه ... ولا خير في وجه اذا قل ماؤه

حياؤك فاحفظه عليك وانما ... يدل على فعل الكريم حياؤه

أنواع الحياء باعتبار - مدحه وذمه «شرعيته وعدم شرعيته»:

إن الحياء بهذا الاعتبار ينقسم إلى نوعين اثنين :

الأول: باعتبار مدحه فهو الحياء الممدوح أو الشرعي.

الثاني : باعتبار ذمه وهو الحياء المذموم وهو الخجل أو الحياء غير الشرعي.

أولاً: الحياء الشرعي : هو الحياء الذي يقع على جهة الاجلال والتقدير للأكابر وهذا الحياء مأمور به محمود، وفي ذلك تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: رحم الله نساء الانصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين[6]، وهذا

---

(١) جامع العلوم والحكم ١٩٠، الوافي ١٤٠.

(٢) من حديث عمر الذي رواه مسلم في كتاب الايمان.

(٣) الفتح ٢/ ٧٥، جامع العلوم ١٩٠.

(٤) أدب الدنيا والدين ٧٥.

(٥) أدب الدنيا ٧٥.

(٦) الفتح ١/ ٢٢٨، ٢٢٩.

الحياء مطلوب من كل مؤمن، وفيه مراقبة للنفس وفيه يشعر المؤمن بندمه على غلطته فتراه خائفا منها مترقبا لضررها، وفي ذلك فال ابن مسعود رضي الله عنه: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على انفه فقال به هكذا- قال أبو شهاب بيده فوق أنفه [(١)].

ثانياً: الحياء غير الشرعي - الخجل-: وهو ما يقع من الانسان على سبيل الضعف والمهانة وقد يكون سببا لترك أمر شرعي، كأمر بمعروف أو نهي عن منكر أو توجيه حسن، مع عدم وجود المانع خجلاً وحياء بزعمه وهذا أمر مذموم وليس من الحياء، والى هذا النوع أشار البخاري رحمه الله فيما رواه عن مجاهد رحمه الله أنه قال: لا يتعلم العلم مستحيي ولا مستكبر [(٢)]، ومن هذا النوع أيضاً عدم قول الحق والجهر به. قال الحافظ ابن حجر: «ولا يقال رب حياء يمنع من قول الحق أو فعل الخير لأن ذلك ليس شرعياً»[(٣)].

وقال الامام النووي رحمه الله : فقد يشكل على بعض الناس من حيث أن صاحب الحياء قد يستحي أن يواجه بالحق من يجله فيترك أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وقد يحمله الحياء على الاخلال ببعض الحقوق وغير ذلك مما هو معروف في العادة. وجواب هذا ما أجاب به جماعة من الأئمة منهم أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله فقال : إن هذا المانع الذي ذكرناه ليس بحياء حقيقة بل هو عجز وخور ومهانة، وإنما تسميته حياء من اطلاق بعض أهل العرف أطلقوه مجازاً لمشابهته الحياء الحقيقي وإنما حقيقة الحياء، خلق يبعث على ترك القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق[(٤)]، والخجل من قول الحق والانتصار له إنما هو ضعف في شخصية صاحبه لذا كان صاحبه مذموماً جباناً.

---

(١) البخاري تعليقا ٤/ ١٥٤، ح ٦٣٠٨، ومسلم ٤/ ٢١٠٣ ح٣.

(٢) الفتح ١/ ٢٢٨،٢٢٩.

(٣) الفتح ١/ ٥٢.

(٤) شرح صحيح مسلم٢/ ٥-٦، دليل الفالحين بشرح رياض الصالحين ٥/ ١٤٧-١٤٨.

ثالثاً: باعتبار ماهيته في الإنسان ومن الأحق بأن يستحيا منه؟

وهذا النوع بهذا الاعتبار نقسمه إلى أنواع ثلاثة[1]:

١- الحياء من الله تعالى.

٢- الحياء من الناس.

٣- الحياء من النفس .

أولاً- الحياء من الله جل شأنه : الحياء في أسمى منازله وأكرمها يكون مع الله تبارك وتعالى المنعم المتفضل ، فحقه عظيم على عباده، ونعمه لا تحصى، وخيره يتجدد على الانسان في كل وقت وكل حين، ولو بقي العبد راكعاً ساجداً ما أدّى جزءاً من حق الله تعالى عليه، وإلى هذا التوجيه أشار ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :«**استحيوا من الله حق الحياء، قلنا إنا نستحيي من الله يا رسول الله والحمد لله، قال: ليس ذلك، الاستحياء من الله حق الحياء، أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وتذكر الموت والبِلَى ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا وآثر الآخرة على الأولى فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء**»[2]، وهذا الحديث من أبلغ الوصايا ومن جوامع الكلم، وحقيقة الحياء تكون بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، قال بعض السلف خف الله على قدر قدرته عليك واستحي منه على قدر قربه منك[3].

ثانياً: الحياء من الناس ويكون بأمور عدة:

١- ترك الأذى وكف المجاهرة بالقبيح وفيه صيانة للنفس والعرض .

---

(١) الماوردي: أدب الدنيا ص ٧٦، خلق المسلم ١٦٧، ١٦٨.

(٢) الترمذي: صفة القيان - باب ٢٤ ح ٢٤٦٣، المشكاه ١/٦٠٦ ح ١٦٠٨، جامع الاصول ح ١٩٥١، صحيح الجامع الصغير ح ٩٤٨.

(٣) الفتح ٢/٧٥

قال الشاعر

إذا لم تصن عرضا، ولم تخش خالقاً   وتستحي مخلوقاً فما شئت فاصنع

وكان السلف الصالح يستحي بعضهم من بعض، وهذا ليس من النفاق المذموم بل فيه صيانة للنفس وترفقاً عن التهمة، وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه راح الى الجمعة، فاذا الناس قد استقبلوه وقد صلوا قال فمال إلى المسجد، وإلى دار فصلى قال: فقيل له في ذلك ، قال: إنه من لا يستحي من الناس، لا يستحي من الله [١]، وكذلك نقل عن ابن سيرين والحسن البصري مثله[٢]، وعن مجاهد قال : ان المسلم لو لم يصب من أخيه إلا حياءه منه يمنعه المعاصي[٣].

٢- عدم الجرأة على الاعتداء على حقوق الناس بالاحتيال والغش والكذب والتدليس وأخذه الرشوة والغصب، واكل اموال الناس بالباطل[٤].

ومن هذا النوع من الحياء عدم الظهور بمظهر شاذ كمخاصرة امرأة أو اظهار العورة أو التلفظ بكلام بذئ أو السخرية والاستهزء بالآخرين.

ثالثاً: الحياء من النفس

ويكون بالعفة وصيانة الخلوات. ولذلك قال بعض السلف رأيت المعاصي نذالة فتركتها مروءة فصارت ديانة، وقال بعض الحكماء ليكن استحياؤك من نفسك اكثر من استحيائك من غيرك [٥]، وإن استحيا الانسان من نفسه كان استحياؤه من غيره أشد وان أستحيا من الناس كان استحياؤه من الله أشد وأبقى وهذا ما اشار اليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من استحيا استخفى ومن

---

(١) مصنف ابن ابي شيبه ٢/ ١٣٤، ١٣٥.

(٢) مصنف ابن ابي شيبه ١٣/ ٥١٧ أثر ١٧٣٠٠، مكارم الأخلاق ص ٢١.

(٣) اخلاق المسلم ص ٢٠٣.

(٤) أدب الدنيا ص ٧٧.

(٥) ادب الدنيا ص ٧٧.

استخفى اتقى ومن اتقى وقى».

وقال وهب بن منبه : «الإيمان عريان ، لباسه التقوى وحاله العفة وزينته الحياء»[1] .

ثمرات الحياء وفوائده

بعد أن عرفنا حقيقة الحياء وأنواعه المختلفة فما الثمرات والفوائد المرجوة من هذا الخلق؟ إن فوائد الحياء وثمراته مختلفة متعددة ، نذكر منها على سبيل الإجمال والتذكير:

أولاً:- الحياء يرقى بصاحبه نحو الكمال ومعالي الأخلاق ويربأ به عن سفاسف الأمور ومبتذل الأعمال فمن اتصف به اتصف بصفات الخير المختلفة كالعدل والتواضع والحلم والصدق والصبر والعفة والأمانة ويصدق فيه قول النبي ﷺ : الحياء كله خير أو خير كله .

ثانياً:- الحياء يبعد صاحبه عن فحش القول وبذيئه، فلسان الحَيِّ رطب بذكر الله تعالى ويحاسب نفسه على ما يتلفظ به ، قال رسول الله ﷺ : «**ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان ولا بالفاحش القول البذيء**»[2]، وقال أيضا : «**الحياء والعي شعبتان من الإيمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق**»[3].

والمقصود من البيان كأنه العجب بالفصاحة، وطلاقة اللسان.

ثالثاً:- الحياء تطبيق عملي لحقيقة الإيمان في نفس المسلم، وقرن مع الايمان في مواطن متعددة ، قال عليه الصلاة والسلام : «**الحياء والايمان قُرِنَا جميعا فإذا رفع أحدهما رفع الآخر**»[4].

---

(١) مصنف ابن ابي شيبه ١٣/ ٥١٠، اثر ١٧٠٨٤، مكارم الأخلاق ٢١.

(٢) صحيح الجامع : ٨٩ ح ٥٢٥٧.

(٣) صحيح الجامع ٣/ ١٠٣ ح ٣١٩٦.

(٤) صحيح الجامع ٣/ ١٠٣، ح ٣١٩٥.

رابعاً:- الحياء يحافظ على الروابط والقيود الاجتماعية الخيرة من أن يعتريها التحلل والانخلاع لان فيه حماية للفضيلة وخنقا للرذيلة[1].

خامساً:- الحياء فيه ستر فمن ألمّ بشئ من هذه القاذورات من ارتكاب الفواحش والمحرمات فهو يتستر ولا يجاهر بها ولا يفاخر بها.

سادساً:-الحياء جزء من الايمان ، والايمان في الجنة، قال رسول الله ﷺ: «**الحياء من الايمان والايمان في الجنة والبذاء من الجفاء والجفاء في النار**»[2].

سابعاً:- الحياء خلق الاسلام كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ «**انّ لكل دين خلقاً وخلق الاسلام الحياء**».

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الحياء والعمل بمقتضاه، فالحياء كله خير والله الموفق لكل خير.

---

(١) أخلاق الرسول ١١٢.

(٢) مكارم الأخلاق ١٦، سلسلة الأحاديث الصحيحة ح ٤٩٥.

المبحث الثالث عشر

العدل والظلم(*)

العدل خلق إسلامي مجيد، وقاعدة من قواعد الحياة في جوانبها المختلفة من سياسية واجتماعية واقتصادية، به يتحقق الأمن والاستقرار ، وتستديم للأمة عافيتها. ونقيضه الظلم، والظلم مؤذن بانهيار المجتمعات وأفول الحضارات وساء به في العالمين مثلاً.

فما معنى العدل والظلم؟وما أهمية العدل وما مخاطر الظلم؟ وما المجالات التي تبرز الدعوة لالتزام العدل وتجنب الظلم؟

معنى العدل والظلم

العدل لغة ما قام في النفوس أنه مستقيم، وهو ضد الجور، والعدل اسم من أسماء الله الحسنى، وهو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم، وقد استخدم المصدر هنا في حق الباري سبحانه وتعالى دون الصفة (العادل) باعتبار ان ذلك أبلغ. والعدل: الحكم بالحق. ورجل عدل أي ذو عدل ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَي عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾(1)، والعدل كذلك: النظير والمثل.

أما الظلم فهو وضع الشئ في غير موضعه، وأصل الظلم الجور ومجاوزة الحد، وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(2)، والظلم: الميل عن

(*) د. كايد قرعوش

(1) سورة الطلاق 2

(2) سورة لقمان 13.

القصد. والظلمة هم المانعون أهل الحقوق حقوقهم[1].

وهما في الاصطلاح لا يبعدان عن المعنى اللغوي، فالعدل حكم بالحق من غير هوى، وعدم الميل لطرف حيث تجب المساواة بين الأطراف، وإلا كان ذلك ظلماً يجب التنزه عنه والبراء منه.

أهمية العدل ومخاطر الظلم

يمكن إبراز أهمية العدل وفداحة الظلم ومخاطره في النقاط التالية: -

١- أن العدل اسم من اسماء الله تعالى وصفة من صفاته الحسنى كما ذكرنا.

٢- أن الله تعالى أمر بالعدل في آيات كثيرة، وقد ورد لفظ العدل ومشتقاته في القرآن الكريم (٨٢) مرة. كما نهى عن الظلم في تكرارات بلغت (٩٨٢) مرة، غير ما ورد من آيات كثيرة تتناول موضوع العدل والظلم بغير هذين اللفظين ومشتقاتهما.

وقد اتخذت الدعوة الى العدل صيغاً شتى منها: -

أ- الأمر المباشر المقترن بالتوكيد، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[2]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾[3].

ب- استخدام صيغة المبالغة، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾[4].

جـ- التحذير المباشر من الظلم كقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ

---

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة (عدل) ومادة (ظلم).

(٢) سورة النحل ٩٠.

(٣) سورة النساء ٥٨.

(٤) سورة النحل ٣٦.

عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[1] ، وقوله: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[2] .

د- استخدام الأسلوب القصصي مثل قصة داود عليه السلام التي حكتها لنا الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ الْمِحْرَابَ . إِذْ دَخَلُواْ عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ . إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ . قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾[3] .

٣- وقد حث الرسول ﷺ على العدل وبين فضله فقال: «**عدل يوم واحد أفضل من عبادة ستين سنة**»[4] ، وقال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله: الإمام العادل. . . .** »[5]

ونهى عن الظلم وبين شؤمه فقال: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**»[6] ، وقد ورد في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا**»[7] .

---

(١) سورة المائدة ٨.

(٢) سورة هود ١١٣.

(٣) سورة ص ٢١-٢٢.

(٤) رواه الديلمي عن ابي هريرة واسنده من طريق ابي نعيم بلفظ (عدل حكم ساعة خير من عبادة سبعين سنة. (انظر كشف الخفاء للعجلوني ٢/٥٨).

(٥) رواه البخاري في الجماعة باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، ورواه مسلم في الزكاة باب فضل اخفاء الصدقة.

(٦) رواه البخاري في المظالم باب الظلم ظلمات يوم القيامة . ومسلم في البر باب تحريم الظلم.

(٧) رواه مسلم في البر والصلة - باب تحريم الظلم .

٤- إن العدل أساس الملك، وفي هذا يقول ابن تيمية: **«ان الله ينصر الدولة العادلة وان كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة»**[(١)].

والظلم مؤذن بالتردي والانحطاط، وقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً (في ان الظلم مؤذن بخراب العمران) قال فيه: «واعلم ان هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري، وهي الحكمة العامة المراعية للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة»[(٢)].

وقد كتب احد العمال الى عمر بن عبد العزيز يستأذنه في تحصين مدينته فقال في جوابه له: «حصنها بالعدل ونقّ طرقها من الظلم»[(٣)].

وقال احد الشعراء:

لا تظلمن اذا ما كنت مقتدرا فالظلم ترجع عقباه الى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

٥- والعدل شرعة الأنبياء لم تخل من الدعوة اليه رسالة من الرسالات، قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾**[(٤)]، والطاغوت لفظ مشتق من الطغيان بمعنى الظلم.

مجالات العدل والظلم

تتعدد مجالات العدل والظلم وصورهما في الحياة الإنسانية ، فهناك العدل في مجال الاعتقاد، وفي مجال الحكم، وفي القضاء، وفي المجال الأسري، وفي المجال الاجتماعي (العدل الاجتماعي أو العدالة الاجتماعية).

---

(١) ابن تيمية ، الحسبة في الاسلام ص ٦.
(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٨.
(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد ١/٢٣.
(٤) سورة النحل ٣٦.

أ- العدل في مجال الاعتقاد:

لما كان العدل يعني الاستقامة واتباع الحق، فان تحقيق العدل في مجال الاعتقاد لا يتم إلا بالإيمان بإله واحد لا شريك له ولا نظير، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾ (١) ، والعدل المنسوب الى الكفار هنا ليس من باب العدل بالمعنى المتقدم، وانما هو من باب العدول عن الإيمان الحق الى اتخاذ عدل لله أي شريك له في ملكه يتوجهون اليه بالعبادة. وهذا السلوك من أفدح أنواع الظلم المورث للقلق والإحساس بعدم الطمأنينة. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾(٢) ، والظلم هنا بمعنى الشرك، عن عبد الله رضي الله عنه قال: «لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قلنا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال: «ليس كما تقولون، لم يلبسوا إيمانهم بظلم أي بشرك، أولم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٣).

ثم إن العدول عن منهج الله اعتقاداً بأن غيره أفضل منه صورة من صور الكفر الظالم.. قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾(٤) ، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٥) ولا شك ان هذا السلوك الجافي ليس من سلوك المؤمنين في شئ ، كما أنه ليس من أخلاقهم في قليل أو كثير.

---

(١) سورة الانعام ١ .

(٢) سورة الانعام ٨٢ .

(٣) رواه البخاري في كتاب الانبياء باب قوله تعالى (واتخذ الله ابراهيم خليلاً).

(٤) سورة المائدة ٤٤ .

(٥) سورة المائدة ٤٥ .

٢- العدل في مجال الحكم

العدل شرط من شروط تولية الحاكم في الإسلام، وواجب من واجباته، وهو مع ذلك قاعدة من قواعد الحكم في الاسلام، فضلاً عن كونه خلقاً يتحلى به كل راع في نطاق تعامله مع رعيته.

ومن مظاهر العدل في الحكم في الإسلام اعتبار المسلمين سواء امام الشرع، لا يفرقهم حسب ولا نسب، ولا فقر ولا غنى، فالشرع يسود الجميع دون أن يكون هناك خصوصية لبعضهم أو حصانة تسمح لهم بالخوض في الباطل بعيداً عن الحق والعدل. ومن معاني العدل المساواة التي لا تسمح بالازدواجية في تطبيق الأحكام الشرعية.

عن عائشة رضي الله عنها أن قريشاً أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم رسول الله ﷺ ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، فكلم رسول الله ﷺ، فقال: **«أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فخطب فقال: «يا أيها الناس انما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»**[(١)].

وقال الامام مالك: أقاد رسول الله ﷺ من نفسه وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب من أنفسهما[(٢)].

وقام عمر بن الخطاب يخطب في الناس ويقول: ألا من ظلمه أميره فليرفع ذلك إلي أقيده منه، فقام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، لئن أدب رجل منا رجلاً من أهل رعيته لتقصنه منه؟ قال: كيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه «، وقال ذات مرة: إني لم أبعث عمالي ليضربوا

(١) رواه البخاري، كتاب الحدود ١٩٩/٨.

(٢) مالك بن انس، المدونة الكبرى، ٢٥٦/٦/ والصنعاني، المصنف ٤٦٩/٩.

أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، فمن فعـــــــل ذلك فليرفعه إلي أقصه منه»[1].

وليس تحقيق العدل قصراً على آحاد المسلمين في المجتمع الاسلامي، إذ هو من الشمول بحيث يغطي كافة المواطنين في الدولة بما هنالك من ذميين من يهود ونصارى.

قال رسول الله ﷺ: **«ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»**[2]. وقال رسول الله ﷺ: **«من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة»**[3].

ومن الإنصاف أن نذكر أن عدل المسلمين كان من أهم الأسباب في انتشار الإسلام عبر الفتوحات الإسلامية الأولى، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار مبلغ الظلم الذي كان يلحق بأهل البلاد المفتوحة من قبل حكامهم في امبراطوريتي الروم والفرس. يذكر المؤرخون أنه لما بلغ الجيش الاسلامي وادي الأردن وعسكر ابو عبيدة في مكان ما، كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد الى العرب يقولون: «يا معشر المسلمين انتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا، وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا»[4]. وهذا الذي كان في فتح الأردن حدث مثله في فتح مصر كذلك، فقد كان كثير من المصريين يرحبون بالمسلمين كيما يتخلصوا من ظلم حكامهم.

لقد استحال العدل في نفوس المسلمين خلقاً تجذر في نفوسهم، فضلاً عن كونه واجباً يضع المسلم أمام مسؤولياته. ويضرب لنا الخليفة الفاروق مثلاً شروداً في الإحساس بهذه المسؤولية تجاه رعيته. فقد روي أن أعرابيا أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:

---

(١) تفسير القرطبي، ١/ ٦٣٤، وابن قدامة، المغني ٩/ ٣٥٥.

(٢) رواه ابو داود في الخراج والامارة، باب في تعشير أهل الذمة..

(٣) رواه الخطيب في تاريخه والطبراني في الأوسط، (انظر الجامع الصغير للسيوطي ص ٢٩٤).

(٤) سير توماس آرنولد، الدعوة الى الاسلام ص ٥٣.

يا عمر الخير جُزيت الجنة . أُكْسُ بنياتي وأمهنه
وكـن لنا مـن الزمان جنة أقسـم بالله لتفعلنه

فقال عمر رضي الله عنه: إن لم أفعل يكون ماذا؟ فقال: لأذهبنه إذاً أبا حفص فقال: وإذا ذهبت يكون ماذا؟ فقال:

يكون عن حالي لتسألنه يوم تكون الأعطيات هنة
وموقف المسؤول بينهنه إما إلـى نـار وإمـا جنة

قال: فبكى عمر رضي الله عنه حتى خضبت لحيته ،وقال: يا غلام أعطه قميصي هذا لذلك اليوم لا لشعره،أنا والله لا أملك غيره.

جـ- العدل في مجال القضاء

إذا ذكر القضاء تداعت إلى الذاكرة صورة العدل التي درج المعاصرون على أن يرمزوا لها بميزان ذي كفتين. والإسلام بهذا الصدد يدعو إلى العدل المطلق،ويحذر من التهاون في القضاء،قال ﷺ: «**القضاة ثلاثة: واحد في الجنة واثنان في النار،فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق وقضى به،ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار**»[1].

ونظراً لخطورة القضاء وخشية الزلل كان بعض الأئمة ينفرمنه،كما فعل ابو حنيفة إذ رفض تولي القضاء للعباسيين.

وفي التاريخ الإسلامي صور مضيئة تشهد باستقلال القضاء وتحريه العدل دون نظر الى المركز أو المنصب السياسي أو الاجتماعي الذي يتمتع به المتخاصمون أو أحد أطراف القضية،وقصة عمر بن الخطاب مع الفتى القبطي مشهورة. فقد دخل فتى قبطي في سباق بالخيل مع ابن عمرو بن العاص والي مصر،ولما كان الفوز للقبطي عمد ابن عمرو الى القبطي فلطمه،فما كان منه إلا أن توجه إلى

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٢٨،١٢٩.

عمر بن الخطاب شاكياً ابن عمرو، فطلب عمر عمراً وابنه لمجلس القضاء وأثبت الحق للقبطي، وطلب إليه أن يبدأ بالقصاص من عمرو نفسه، فقال القبطي: انما ضربني ابنه، فقال عمر: أجلْها (اي العصا) على صلعة عمرو، فباسمه ضربك. وكانت من بعد كلمة الفاروق الخالدة: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟

وموقف آخر مثل فيه بين يدي القاضي شريح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان قد اشتكى يهودياً لأخذه درعاً له سقط في إحدى الغزوات فالتقطه اليهودي، ولما عجز الخليفة عن تقديم البينة للقاضي شريح قضى شريح بأن الدرع لليهودي، فلما رأى اليهودي ذلك اعترف بأن الدرع ليس له، وأعلن إسلامه.

وتقدمت امرأة بظلامتها إلى الخليفة المأمون تشكو ابنه العباس لاغتصابه أرضاً لها، وقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال: وعليك السلام، أين الخصم؟ فقالت: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين، وأومأت إلى العباس ابنه، فقال: يا أحمد بن أبي خالد: خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم، فجعل كلامها يعلو كلام العباس، فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله، إنك بين يدي أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأمير فاخفضي من صوتك. فقال المأمون: دعها يا أحمد، فان الحق أنطقها وأخرسه. ثم قضى لها برد ضيعتها وأمر لها بنفقة [1].

يظهر مما تقدم أن حكم القضاء كان يخضع له الخلفاء والأمراء والولاة على حد سواء، وأن مبادئ العدل كانت محوطة بسياج من الوازع الديني والخلقي، فكانت عظمة الأخلاق حافزاً لبعض الخصوم أن يعلنوا إسلامهم كما تبين من موقف اليهودي الذي خاصم أمير المؤمنين في درعه.

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ١/ ٢٠، ٢١.

د- العدل في نطاق الأسرة

يوحي لفظ (الأسرة) بالارتباط الوثيق بين أفرادها، فالإسار هو الحبل الذي يشد به الأسير فلا يملك حراكاً. ولا يستديم هذا الارتباط إن سارت أمور الأسرة على حال من هضم الحقوق وظلم الزوجة أو الولد.

- أما بالنسبة للزوجة فإن العدل معها يكون بإعطائها مهرها وتقديم نفقتها ومعاشرتها بالمعروف.

- وإذا تعددت الزوجات وجب العدل بينهن في النفقة والمبيت، قال رسول الله ﷺ: «**من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل**»[1].

وكان ﷺ يقسم فيعدل ويقول: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك - يعني القلب -**»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، وكان يقسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها»[3].

أما العدل بين الأولاد فيكون في الأعطيات بخاصة. عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: إن أباه أتى به رسول الله ﷺ فقال: «**إني نحلت ابني هذا غلاماً كان لي. فقال رسول الله ﷺ: أكلّ ولدك نحلته مثل هذا؟ فقال: لا ،فقال رسول الله ﷺ: فارجعه**»[4].

وعن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال: إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني

---

(١) رواه ابو داود في النكاح باب القسمة بين النساء برقم ٢١٣٣.

(٢) رواه أبو داود في النكاح باب في القسم بين النساء، برقم ٢١٣٤، والترمذي في النكاح باب ما جاء في التسوية بين الضرائر.

(٣) رواه البخاري في الهبة، باب هبة المرأة لغير زوجها، وأبو داود في النكاح باب في القسمة بين النساء.

(٤) رواه البخاري في الهبة، باب الهبة للولد، وباب الاشهاد في الهبة. وهناك روايات مختلفة للحديث في كتب السنة.

تصدقت على ابني بصدقة، فاشهد. فقال هل لك ولد غيره؟ قال: نعم. قال: هل أعطيتهم مثل ما أعطيته؟ قال: لا. قال: لا أشهد على جور»[1].

وان مراعاة الآباء لبعض اولادهم دون بعض من شأنه ان يزرع الضغينة بينهم، ويؤدي الى القطيعة والعداء، وربما استخدمه بعضهم ذريعة للكيد ضد من خصه الوالد بمزيد من الرعاية. ونستذكر في هذا المقام قصة أبناء يعقوب عندما كادوا لأخيهم يوسف عليه السلام مما ورد في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ . إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ . اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾[2].

وما كان يعقوب عليه السلام متحيزاً إلى ابنة يوسف عليه السلام. ولكنه الحسد الدفين في القلوب المريضة.

هـ - العدل الاجتماعي (العدالة الاجتماعية)

إن تحقيق العدل الاجتماعي مطلب أسمى وأصل عظيم من الأصول الإسلامية على كل صعيد سياسياً كان ذلك أو اقتصادياً أو اجتماعياً.

والعدل الاجتماعي مفهوم يقوم على إحلال اليسر بدل العسر وتحقيق كرامة الإنسان والحيلولة دون الظلم والجور وتحقيق الرفاه العام. ومرتكزه الرئيس مراعاة العدالة في التوزيع.

إن الأسلام إذ يقر التفاوت في الملكية بين الأفراد يحرص ابتداء على ردم هوة الفقر، ثم لا بأس بالتفاوت بعد ذلك. وإذا حلت بالمسلمين ظروف تستدعي إجراءات استثنائية من شأنها تحقيق قدر من التوازن الاجتماعي بين فئات المجتمع

---

(١) رواه النسائي في النحل في فاتحته، وهو حديث صحيح.

(٢) سورة يوسف ٧-٩.

فإن الشرع الإسلامي يفوض إلى رئيس الدولة سن التشريعات اللازمة للوصول إلى ذاك التوازن.

لقد كان المجتمع الإسلامي في المدينة يعاني بعيد وصول المهاجرين إليها من فروق اقتصادية كبيرة، لذا فقد قام الرسول ﷺ بالتخفيف من هذه الفروق من خلال الإجراءات التالية: -

١- تحقيق المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار بصورة تسمح بالتوارث بينهم، ولا شك أن المهاجر هو المستفيد بدرجة رئيسية من هذا التشريع المؤقت.

٢- تخصيص المهاجرين بفئ بني النضير إلا رجلين من الأنصار كان بهما حاجة، وقد استدعى الرسول ﷺ الأنصار وقال لهم: ان أحببتم قسمت ما أفاء الله على بني النضير بينكم وبينهم، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم، وان أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم، فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: بل تقسمه بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا»(١).

٣- منع التعامل بالمزارعة بين المهاجرين والأنصار ودعوة الأنصار لاستغلال أرضهم بأنفسهم أو تقديم ما يرونه منها للمهاجرين دون مشاركتهم في الغلة. قال ﷺ: «**من كانت له ارض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ولا يؤاجرها إياه ولا يكريها**»(٢).

وعندما استقرت الأمور وجاء عهد الخليفة أبي بكر رضي الله عنه، رأى أن يقسم العطاء بين الناس بالتساوي، فجاءه ناس من المسلمين فقالوا: يا خليفة رسول الله إنك قسمت هذا المال فسويت بين الناس، ومن الناس أناس لهم فضل وسوابق وقدم، فلو فضلت أهل السوابق والقدم والفضل بفضلهم. فقال: أما ما ذكرتم من السوابق والقدم والفضل فما أعرفني بذلك، وانما ذلك شئ ثوابه على

---

(١) تفسير القرطبي ١٨-٢٥.

(٢) رواه البخاري في المزارعة، باب ما يكره من الشروط في المزارعة.

الله جل ثناؤه، وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة.

فلما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه، ففرض لأهل السوابق والقدم من المهاجرين والأنصار ممن شهد بدراً خمسة آلاف خمسة آلاف، ولمن لم يشهد بدراً أربعة آلاف أربعة آلاف، وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر دون ذلك»[1].

وكان عمر يقول: والله الذي لا إله الا هو ما أحد الا وله في هذا المال حق أعطيه أو منعه، وما أنا فيه إلا كأحدكم، ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل، وقسمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل وبلاؤه في الاسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناه في الإسلام، والرجل وحاجته في الإسلام، والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه (يعني في طلبه)[2].

فها هو كل من الخليفتين الراشدين يترجم العدل في العطاء من وجهة نظره الخاصة، ولكل أدلته وقناعاته، ويعمد بعض الباحثين إلى التوفيق بين الرأيين على النحو التالي: «لو كانت الأوضاع الاقتصادية تلزم بالمساواة في العطاء، وذلك عندما يكون مستوى المعيشة منخفضاً بحيث لا يوجد فائض يسمح بالتفاوت، فإن المعتبر إسلامياً هو المساواة في العطاء. وهذه هي حالة عهد أبي بكر رضي الله عنه. أما حين تسمح الأوضاع الاقتصادية بتفاوت الدخول فإن الاسلام يجيز التفاوت في العطاء، وهذا ما فعله عمر رضي الله عنه»[3].

وبعد، فقد كانت هذه صور لأبرز المجالات لتطبيق العدل في الإسلام، ولا شك أن هنالك صوراً اخرى غير ما ذكرنا، وغايتنا من ذلك إبراز روعة هذا الخلق الإسلامي الأصيل دون الاستقصاء والتفصيل.

---

(١) أبو يوسف، كتاب الخراج، ص ٤٢.

(٢) ابو يوسف، كتاب الخراج، ص ٤٦، وانظر: ابو عبيد، كتاب الأموال ٣٣٥-٣٣٧.

(٣) رفعت العوضي، في الاقتصاد الاسلامي- كتاب الأمة، رقم ٢٤- ص ١٥٠.

المبحث الرابع عشر
الغيبة والنميمة(*)

لعل من أشد الظواهر الاجتماعية سوءاً تلك الآفات المتعلقة باللسان وبخاصة الغيبة والنميمة، حتى أصبح ما يسلم منهما الا القليل من الناس، وبصدد الحديث عنهما فانني سأتعرض الى تعريف كل منهما ، ثم الأسباب المؤدية اليهما، وحكم كل منهما وخطرهما على الفرد والمجتمع.

اولاً- الغيبة

الغيبة لغة واصطلاحاً:

الغيبة لغة: مشتقة من الغيب الذي هو خلاف الشهادة أو هو كل ما غاب عن الانسان. ويقال: اغتاب اغتيابا اذا وقع فيه، والاسم الغيبة، وهي ذكر العيب بظهر الغيب.

وعليه فالغَيبة: اسم المرة من غاب، وهو البعد والتواري عن الأنظار.

والغيبة: هي ذكر الغيرفي غيابه سواء اكان ذلك بما يرضي ام بما لا يرضي[1].

والغيبة اصطلاحاً: ذكرك اخاك بما يكره، وهي كما عرفها رسول الله ﷺ بقوله: «أتدرون ما الغيبة قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره،

(*) د. خالد القضاة

(1) انظر المعجم الوسيط ج٢ ١ / ٦٩١ -٦٩٢ لسان العرب ج ٤/ ١٠٣٣.

قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: «ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»[1].

ولقد حدد الامام الغزالي رحمه الله تعالى معنى الغيبة فقال:-

اعلم أن الغيبة أن تذكر أخاك بما يكره لو بلغه، سواء أذكرته بنقص في بدنه، أم في نسبه أم في خلقه أم في قوله أم في دنياه حتى في ثوبه وداره ودابته.

- اما في البدن: فكذكرك العمش والحول، والقرع، والقصر، والطول والسواد والصفرة، وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان.

- وأما النسب: فكأن تقول: أبوه نبطي أو هندي أو فاسق أو خسيس أو زبال أو شيء مما يكرهه كيفما كان.

- وأما الخلق: فبأن تقول: هو سيء الخلق، بخيل ، متكبر، مراء، شديد الغضب، جبان، عاجز ضعيف.

- وأما أفعاله المتعلقة بالدين: فكقولك: سارق، أو كذاب، أو شارب خمر، أو ظالم، اومتهاون بالصلاة أو الزكاة لا يتحرز من النجاسات ونحو ذلك.

واما افعاله المتعلقة بالدنيا: فكقولك: انه قليل الادب، متهاون بالناس، أو لا يرى لأحد على نفسه حقاً، أو يرى لنفسه الحق على الناس أو انه كثير الكلام إلى غير ذلك.

وأما في ثوبه: فكأنك تقول: هو طويل الذيل، وسخ الثياب.

وقال قوم: لا غيبة في الدين لانه ذم ما ذمه الله تعالى، فذكره بالمعاصي وذمة هبها يجوز بدليل ما روي أن رسول الله ﷺ ذكرت له امرأة وكثرة صلاتها وصومها، ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها فقال: هي في النار»[2].

وقال الحسن رضي الله عنه: - الغيبة على ثلاث مراتب أو

(١) اخرجه مسلم في البر باب تحريم الغيبة ٨/ ٢٠١، الترمذي ٤/ ٣٢٩.
(٢) احياء وعلوم الدين ٣/ ١٤٣.

أوجه: الغيبة، والإفك، والبهتان:

أما الغيبة: فأن يذكر الرجل الآخرين بما فيهم مما يكرهون.

وأما الإفك: فهو أن يسمع الرجل من غيره كلاماً فينقله ويخوض فيه.

وأما البهتان: فهو رمي الآخرين بما ليس فيهم من غير دليل ولا برهان [1].

حكم الغيبة وحكمة تحريمها:

الغيبة محرمة بإجماع المسلمين، وقد تظاهرت على تحريمها الأدلة الصريحة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

أولاً- أما الأدلة من الكتاب: قال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ، وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضَاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوه، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾** [2] فهذا الخطاب القرآني بشأن تحريم الغيبة مقروناً بمثل من يأكل لحم أخيه ميتاً يزيد النهي شدة وتغليظاً، ويوقع في النفوس من كراهيتها واستقذارها مالا يقدر قدره، فإن أكل لحم الإنسان من أعظم ما يستقذره بنو آدم جبلة وطبعاً، ولو كان كافراً أو عدواً، فكيف إذا كان أخاً في النسب أو في الدين فإن الكراهية تتضاعف بذلك [3].

ولقد قبح الله الغيبة، وصورها بأبشع صورة تنفيراً للمؤمنين عنها، «أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً، أيحب أحدكم أن يجلس على جيفة مؤمن يقطع منها ويأكل؟ «فكرهتموه» فكرهتم الأكل من الجيفة لأن أطباعكم تنفر منها فإذا كرهتم ذلك طبعاً فاكرهوا الوقوع في أعراض الناس شرعاً، فإن الله ينهاكم عن الوقوع في أعراض المؤمنين» [4].

---

(١) الجامع لاحكام القرآن ط ١٦ /٢١٩، معالم المجتمع المسلم- عبد العظيم بدوي ٣٨.

(٢) الحجرات ١٢.

(٣) ثلاث رسائل في الغيبة /٤٧.

(٤) معالم المجتمع كما بينتها سورة الحجرات /٣٨.

وقال تعالى﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ قال الزمخشري: الهمزة: الكسر واللمز: الطعن: يقال لمزه ولهزه أي طعنه والمراد الكسر من أعراض الناس والغض منهم واغتيابهم والطعن فيهم»[١].

ثانياً- الدليل من السنة: لقد حذر النبي ﷺ في أحاديث كثيرة من الغيبة ،حيث وصلت الى ما يقارب ستة وخمسين حديثاً وسأذكر بعضها لأن المقام لا يتسع لها كلها.

-قال رسول الله ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام،دمه وماله،وعرضه**»[٢].

- قال رسول الله ﷺ: «**من يضمن لي ما بين رجليه،وما بين لحييه،اضمن له الجنة**»[٣]. ذلك أن أكثر ما يورد النار هو اللسان والفرج.

- قال ﷺ: «**اياكم والغيبة،فان الغيبة أشد من الزنا،إن الرجل قد يزني فيتوب، فيتوب الله عليه، وان صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه**»[٤].

- وعن عائشة رضي الله عنها انها ذكرت صفية فقالت: انها قصيرة فقال النبي ﷺ: «**لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته**»[٥]. أي غيرت طعمه ولونه ورائحته.

- وعن عبيد مولى رسول الله صلى الله علسه وسلم: أن «امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ فجعلتا تغتابان فجاء رجل فقال: يا رسول الله ان ههنا امراتين صامتا وقد كادتا أن تموتا فقال رسول الله ﷺ «**ائتوني بهما فجاءتا فدعا بِعس العُسّ**: (القدح العظيم) أو قدح فقال لاحداهما،قيئي: فقاءت من قيح ودم وصديد حتى قاءت نصف القدح،وقال للأخرى قيئي فقاءت من قيح ودم وصديد

(١) الكشاف ٤/ ٢٨٣.

(٢) رواه مسلم ج ٨/ ١٠-١١.

(٣) البخاري ١١/٣٠٨ رقم ٢٦٤٧٤ الترمذي ٤/ ٣١/ ٢٥٢٠.

(٤) رواه الطبراني في الاوسط ط ١/ ٩١/ ٩٢.

(٥) رواه الترمذي رقم ٢٦١٩٩، واحمد ج٥ / ٢٣١

حتى ملأت القدح، فقال رسول الله ﷺ **«ان هاتين صامتا عما احل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما، جلست احداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس»**[1].

- عن انس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«مررت ليلة أسري بي على قوم يخمشون وجوههم بأظافرهم، فقلت يا جبريل: من هؤلاء؟ قال: الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم»**[2].

قال ﷺ: **«ان من اربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق»**[3].

قال ﷺ: **«يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»**[4].

ثالثاً- الاجماع: لقد اجمعت الامة في السابق واللاحق على تحريم الغيبة لما فيها من مخاطر وآفات.

حكمة تحريم الغيبة

حرمت الغيبة مبالغة في حفظ عرض المؤمن والاشارة الى عظم تأكد حرمته وحقوقه«كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه». وزاد ذلك تأكيداً وتحقيقاً تشبيه عرض المؤمن بلحمه ودمه مع المبالغة في ذلك أيضاً بالتعبير عنه بالأخ فقال: **«أيحب أحدكم ان يأكل لحم اخيه ميتاً»** ووجه التشبيه ان الانسان يتألم قلبه من مالقدح في عرضه كما يتألم بدنه من قطع لحمه، بل أشد من ذلك، لأن عرض العاقل أشرف عنده من لحمه ودمه.

---

(١) رواه احمد في المسند ٥/ ٤٣١.

(٢) اخرجه ابو داود ج٢/٢٦٩/ ، وأحمد /٣/٢٢٩/٢٣١.

(٣) اخرجه احمد ج٣/٢٦٩، وابو داود رقم ٤٨/٧٦.

(٤) اخرجه احمد ٤/ ٤٢٠، وابو داود رقم ٧٤٨٨.

ووجه الآكلية في لحم اخيه أن الاخ لا يمكنه مضغ لحم أخيه فضلاً عن أكله بخلاف العدو»[1]. وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب اليه يوم القيامة، فيقال له: كله ميتاً كما اكلته حياً، فيأكله، ويكلح ويقبح**»[2].

هذا بالإضافة إلى أن في الغيبة إشغالاً لوقت المسلم بما لا يفيد، وحشو مجالسه بالعبث الذي حرمه الله تعالى كما أن الغيبة سبب في تقطيع أواصر المحبة بين المسلمين، وقد عظم الله تعالى شان هذه الاواصر ولعن قاطعها، فقال سبحانه: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ**﴾[3].

بواعث الغيبة وأسبابها

للغيبة بواعث وأسباب كثيرة، بعضها يتعلق بنفس الانسان الداخلية وما تكنه من سوء تجاه الآخرين، والبعض الآخر يتعلق بصلة الانسان بمن حوله، والى أي مدى تؤثر هذه الصلة به.

وأهم هذه البواعث والأسباب ما يلي:

١- **اشفاء الغيظ والغضب**: ويكون ذلك بذكر مساوئ من يغضبك وقد لا يكفيك ذلك فيحقن الغضب في باطنك، ويصير حقداً ثابتاً، فيكون ذلك سبباً دائماً لذكر المساوئ ولعل هذا من بين الأسرار التي من اجلها دعا الاسلام الى كظم الغيظ ومقاومة الغضب اذ يقول الرسول ﷺ: «**من كتم غيظاً وهو قادر على ان ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من الحور العين، يزوجه منها ما شاء**»[4].

---

(١) آفات اللسان/ ٢٨.

(٢) رواه الهيثمي في كتاب الادب والمنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٥٠٨

(٣) سورة محمد / ٤٧.

(٤) اخرجه ابوداود ٤/ ٢٤٨، الترمذي رقم ٧٤.

٢- عدم التثبت أو التبين: ذلك ان الحكم على الأمر والأشخاص بالسوء دون طلب للدليل والتأكد من صحته والموازنة بينه وبين الظروف المحيطة والواقع المعاش وهو ما يعرف بعدم التثبت أو التبين، قد يكون من بين الأسباب التي تدفع بالانسان إلى أن يقع في الغيبة وصدق الله تعالى اذ يقول: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ امَنُواْ إن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[1].

٣- البيئة المحيطة به: وقد تكون البيئة المحيطة به من بيت أو أصدقاء هي السبب في الوقوع في الغيبة. ذلك أن الانسان شديد التأثر ببيئته ولا سيما ان كان في مرحلة الاعداد والبناء، وعليه فإذا وجد في بيئة لا ترعى للغائب حقه ولا حرمته فانه يحاكيها

٤- الحسد: ذلك ان الانسان قد يحسد من يثنى الناس عليه ويجلونّه ويكرمونه، متمنياً زوال نعمته، ولا يجد سبيلاً لتحقيق هذه الأمنية إلا بالطعن فيه والنيل منه حتى تسقط منزلته ومكانته عند الناس وهذه هي الغيبة المحظورة والمحرمة.

ولعل هذا من الاسرار التي من أجلها نهى الاسلام عن الحسد والتحاسد اذ يقول الرسول ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخواناً»[2]. وقوله: «الحسد ياكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[3].

٥- الإعجاب بالنفس إلى حد الغرور والكبر: - ذلك أن الإنسان قد تعجبه نفسه إلى حد الغرور والتكبر، فيحاول وصفها بالرفعة وعلو المنزله والمكانة على حساب غيره، فيتناول غيره بالانتقاص والطعن كان يقول: فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه هزيل أو ضعيف.

---

(١) الحجرات ٦.

(٢) أخرجه البخاري ٨/ ٢٣، ومسلم ٧/ ١٠.

(٣) اخرجه ابو داود ٥/ ٢٠٨ رقم ٤٩٠٣.

٦- **المزاح واللعب والهزل**:- وقد يذكر عيوب الآخرين ولا سيما في غيابهم من باب المزاح ومحاولة تضييع الوقت واضحاك الناس، ناسياً انه بذلك يأكل لحوم الناس وناسياً حديث الرسول ﷺ: «**ان الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار**»[1].

٧- العمل لحساب أفراد أو جهات مشبوهة: وقد يكون العمل لحساب افراد أو جهات مشبوهة معروفة بالحقد على الاسلام واهله، طمعاً في عرض زائل من أعراض الدنيا، كجاه أو منصب أو مال- هو السبب في الوقوع في آفة الغيبة، على النحو الذي نشهده الآن من الطعن في رموز الحركات الإسلامية ومحاولة إلصاق التهم والعيوب بهم.

المواضع التي تجوز فيها الغيبة

قال الشاعر:

الذم ليس بغيبة في ستة ... متظلم ومعرِّف ومحذر

ولمظهر فسقاً ومستفت ومن ... طلب الإعانة في إزالة منكر

هنالك ستة مواضع رأى الفقهاء والعلماء جواز الغيبة فيها وهذه المواضع هي:-

١- التظلم: فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان أو القاضي وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول إن فلانا ظلمني، وفعل بي كذا واخذ لي كذا، وأطلب منك إنصافي، ورد مظلمتي والله يقول: **﴿لاَّ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾**[2]

٢- الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي الى الصواب: فيقول لمن يرجو قدرته على ازالة المنكر فلان يعمل كذا فازجره عنه، ونحو ذلك ويكون مقصوده

(١) اخرجه البخاري ٨/ ١٢٥ ومسلم ج٤ رقم ٥٠٤٩.

(٢) النساء ١٤٨.

التوسل الى ازالة المنكر فإن قصد غير ذلك كان مغتاباً إذ يقول ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فان لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان**»[1]. ومن التغيير باللسان الاستعانة بذوي القدرة على إزالة هذا المنكر ـ أو أن يتولى نصحه بنفسه مستعيناً على ذلك بقدرته على الوعظ والارشاد.

٣- الاستفتاء: بان يقول للمفتي ظلمني أبي أو أخي أو فلان بكذا فهل له ذلك، ام لا؟ وما طريقي في الخلاص منه: وتحصيل حقي ودفع الظلم عني ونحو ذلك، وكذلك قوله: زوجتي تفعل معي كذا أو قولها زوجي يفعل كذا: ونحو ذلك فهذا جائز للحاجة.

جاء في حديث هند بنت عتبة ام معاوية وزوجة ابي سفيان رضي الله عنهما قولها للنبي ﷺ يا رسول الله ان ابا سفيان رجل شحيح وإنه لا يعطيني ما يكفيني وبنيَّ إلا ما اخذت منه وهو لا يعلم فهل علي في ذلك جناح؟ فقال ﷺ: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**»[2].

فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يزجرها النبي ﷺ إذ كان قصدها الاستفتاء لا التشهير.

٤- تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم ويكون ذلك على اقسام منها:

أ- الجرح والتعديل للرواة والمصنفين والشهود وذلك جائز باجماع المسلمين بل واجب للحاجة فانه ما زال سلف هذه الامة وخلفها يجرحون من يستحق الجرح من رواة الشريعة ومن الشهود على دماء العباد وأعراضهم ويعدلون من يستحق التعديل ولولا هذا لكثر الكذابون واختلط المعروف بالمنكر، وقد استأذن رجل على النبي ﷺ فقال: «ائذنوا له، بئس أخو العشيرة»[3]. وقال ﷺ في

---

(١) اخرجه مسلم ٦٩/١ رقم ٧٨٩ وابو داود ٦٧٧/١.

(٢) اخرجه البخاري ١٠٣/٣ ومسلم ١٣٣٨/٣ رقم ١٧١٤.

(٣) اخرجه البخاري ١٥/٨، ١٦ ومسلم ٢٠٢/٤ رقم ٢٥٩٠.

رجلين من المنافقين: «**وما أظن فلانا وفلانا يعرفان من ديننا شيئاً**»[(١)].

ب- عند المشورة: فاذا استشارك انسان في مصاهرته أو مشاركته أو معاملته، وجب عليك ان تذكر له ما تعلمه منه على جهة النصيحة، فان حصل الغرض بمجرد قولك (لا تصلح لك معاملته أو مصاهرته أو لا تفعل هذا أو نحو ذلك) لم تجزئه الزيادة بذكر المساوئ وان لم يحصل الغرض الا بالتصريح بعينه وجب ذكره صراحة قال ﷺ: «...**وإذا استنصحك فانصحه**»[(٢)]. وجاء في حديث فاطمة بنت قيس انها جاءت تستشير رسول الله ﷺ في رجلين خطباها، هما معاوية وأبو الجهم فقال ﷺ: «**اما معاوية فصعلوك لا مال له وأما أبو الجهم فلا يضع العصا عن عاتقه**»[(٣)].

جـ- اذا رأيت متفقهاً يتردد الى مبتدع أو فاسق ياخذ عنه العلم وخفت ان يتضرر المتفقه بذلك فعليك نصيحته ببيان حاله، بشرط ان يكون القصد النصيحة، مجردة عن أي حظ من حظوظ النفس.

د- ان يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها، إما بألا يكون صالحاً لها واما بان يكون فاسقاً فيجب ذكر هذا لمن له عليه ولاية عامة ليزيله، ويولي من يصلح وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «**الدين النصيحة«قلنا: لمن؟ قال: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[(٤)]. فالنصيحة التي يقصد منها تحذير المسلم من مبتدع أو فتان أو غاش أو مفسد ليست من باب الغيبة المحرمة، وانما هي قربة إلى الله تعالى من جملة الحسنات، واذا وقعت على وجه الذم، وتمزيق العرض والتفكه بلحمه، والغض منه لتضع منزلته من قلوب الناس فهي الداء العضال، ونار

---

(١) اخرجه البخاري ٨/ ٢٣ .

(٢) اخرجه البخاري ٤/ ٣٧٠، واحمد ٣/ ٤١٨ .

(٣) مسلم ٢/ ١١٤، وأبو داود ٢/ ٧١٢ رقم ٢٢٨٤ .

(٤) مختصر منهاج القاصدين ص ١٨٦، آفات على الطريق ٥٤-٥٦ ثلاث رسائل في الغيبة ٥٦-٦٠ والحديث اخرجه مسلم ج١/ ٥٣ .

الحسنات التي تاكلها كما تأكل النار الحطب»[1].

٥- المجاهرة بالفسق أو البدعة: كالمجاهر بشرب الخمر أو مصادرة الناس وتولي الأمور الباطلة وغير ذلك، فيجوز ذكره بما يجاهر به، يقول الرسول الله ﷺ، «**كل أمتي معافى الا المجاهرين، وان من المجاهرة ان يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا، وكذا، وقد بات يستره الله، ويصبح يكشف ستر الله عنه**»[2].

والمجاهر هو الذي أظهر معصيته وكشف ما ستر الله عليه فيحدث بها، والمبتلى بذنب أو خطيئة فستر الله عليه، فلا يكشف ستر الله فان الله ستير يحب الستر.

وقد روي عن الرسول ﷺ: «**ومن القى جلباب الحياء فلا غيبة له**»[3].

وقال ﷺ: «**اذكروا الفاسق بما فيه كيما يحذره الناس**»[4]. وقال عليه السلام: «**وليس للفاسق غيبة**»[5]. وقال ايضاً: «**إذا مدح الفاسق غضب الله واهتز لذلك العرش**»[6]. وقال ايضاً: «**ان الله يغضب اذا مدح الفاسق**»[7].

وقال ﷺ «**ثلاث ليس لهم غيبة، الظالم، والفاسق، وصاحب البدعة**»[8].

٧- التعريف: فإذا كان الانسان معروفاً بلقب مذموم كالاعمش والاعرج والأصم والاعمى والأحول وغير ذلك، جاز تعريفه بذلك بنية التعريف، ويحرم اطلاقه على جهة النقص، ولو أمكن التعريف بغيره كان اولى واذا أمكن التعريف

---

(١) تذكير الانسان بحفظ العين واللسان ٨٩-٩٠.

(٢) البخاري ٥/ ٢٢٥٤ ومسلم ٤/ ٢٢٩١٢ رقم ٥٢.

(٣) البيهقي في السنن وشعب الايمان / ١٥٣.

(٤) رواه ابن عدي في الكامل٢/ ٥٩٦ .

(٥) الاسرار ٢٩٠/ ٣٩٠ ، المقاصد الحسنة ٤١٧/ ٩٢١ والحديث فيه مقال

(٦) البيهقي في شعب الايمان ج٦/ ٩٦-٩٧.

(٧) البيهقي ج٦/ ٩٧.

(٨) البيهقي ج٦/ ٩٧.

بلقب واحد من الألقاب المذمومة فان الزيادة عن هذا اللقب تعد غيبة وهي حرام»[1].

آثار الغيبة

للغيبة آثار ضارة، وعواقب وخيمة على الفرد والمجتمع والامة واهم هذه الآثار ما يلي:-

١- **قسوة القلب**: ذلك ان المغتاب كثير الكلام بغير ذكر الله، لانه وقاع في أعراض الناس، أكال للحومهم، ومن كثر كلامه بغير ذكر الله قسا قلبه، فلم يوفق لخير، وان وفق، فانما هو توفيق الجوارح لا توفيق القلوب، ولهؤلاء من ربهم الويل كل الويل قال تعالى: **﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾**[2]

٢- **التعرض لسخط الله وغضبه**: ذلك ان المغتاب قد تطاول بهذه الغيبة على حدود الله تعالى وإتيان المنكر من القول وزوراً، مما يعرضه لغضب الله وسخطه كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**وان الرجل يتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم**»[3].

٣- **العذاب الشديد**: وذلك أن المغتاب يضيع حسناته إن كانت له حسنات، بل تتكاثر عليه السيئات الأمر الذي يعرضه للعذاب الشديد، قال ﷺ لأصحابه: أتدرون من المفلس قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: ان المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، واكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من

---

(١) آفات على الطريق ٥٢-٥٧، آفات اللسان ٢٩-٣٠، صيانة الايمان من عثرات اللسان /٨٨-٨٩.

(٢) الزمر ٢٢.

(٣) البخاري٨/ ١٢٥ في الموطا. ٦١.

حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، اخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[1].

٤- الفرقة والتمزق: الأمر الذي يؤدي إلى شيوع الشر والفساد، وتمكين العدو من رقابنا، ذلك أن الغيبة تؤدي الى قول الزور، وقول الزور يؤدي الى البهتان، والبهتان يؤدي الى الخصومة ثم التدابر والقطيعة والفرقة، ولعل هذا هو ما عناه سهل بن عبد الله حيث قال: «من أراد ان يسلم من الغيبة فليسد على نفسه باب الظنون، فمن سلم من الظن، سلم من التجسس، ومن سلم من التجسس سلم من الغيبة، ومن سلم من الغيبة، سلم من الزور، ومن سلم من الزور سلم من البهتان»[2]. وهكذا فانه يسلم من هذا المسلسل القاتم برمته بسلامته من الغيبة التي هي الأساس لمجموعة من الآفات!

علاج الغيبة

بعد ان وقفنا على اسباب الوقوع في الغيبة، وادركنا آثارها الضارة وعواقبها المهلكة، فقد صار من السهل بيان العلاج بل الوقاية من هذه الآفة المستشرية في مجتمعنا وتتلخص في الأمور التالية:-

١- التوبة: من وقع في هذه الآفة فعليه التوبة عن معصيته وتصح التوبة بشروطها الثلاثة إن كانت المعصية بين الانسان وخالقه وشروط التوبة النصوح هي:-

أ- الإقلاع عن الذنب، فلا يجوز ان يقول العبد: تبت إلى الله وهو مقيم على الذنب.

ب- الندم على ما فات.

جـ- العزم على عدم العودة إلى الذنب أبدا.

---

(١) مسلم ٤/١٩٩٧ رقم ٥٩، الترمذي ٤/٦١٣ رقم ٢٤١٨.

(٢) البيهقي شعب الايمان ٥/٣١٦برقم ٦٧٨٣.

د- وإن كانت المعصية أو الذنب متعلقاً بحقوق الآدميين فان من شروط التوبة ان يرد الحقوق إلى أهلها إن استطاع، أو يستحلهم ان امكن ما لم يترتب على استحلالهم مفسدة، فان ترتب على استحلالهم مفسدة، فعليه ان يتوب ما بينه وبين الله وان يكثر من الحسنات.

٢- تعويد النفس على التقوى والمراقبة الدائمة، فهذه اذا رسخت في النفس تحمي صاحبها من أكل لحوم الناس، بل قد ترفعه الى ان يصون أعراض الآخرين من ان تنتهك في مجلسه وهو ساكت لا يفعل شيئاً، ولعل هذا الدواء هو الوارد في آخر آية تحريم الغيبة، إذ ختمت بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

٣- أن يضع المسلم في حسابه ان كل ما يتفوه به ويتكلم به مكتوب ومحسوب عليه قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٢).

٤- التثبت والتبين في الحكم على الأشياء والأشخاص، بل وفي نقل هذا الحكم وإشاعته بين الناس حفاظاً على أعراض الناس وإبقاء على رابطة الاخوة يقول تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ امَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾(٣).

٥- دعوة ذوي الاسوة والقدوة من العلماء والفقهاء أن تكون تصرفاتهم دقيقة ومحسوبة، وإلا اقتدى بهم الآخرون وكانت شرور ومفاسد لا يعلم عقباها الا الله، وفي هذا يقول الإمام النووي رحمه الله: «اعلم انه يستحب للعالم والمعلم والقاضي والمفتي والشيخ المربي وغيرهم ممن يقتدي به، ويؤخذ عنه أن يجتنب الأقوال والأفعال والتصرفات التي ظاهرها خلاف الصواب وان كان محقاً

---

(١) الحجرات ١٢.

(٢) ق ١٨.

(٣) الحجرات ٦.

فيها»[1] وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾[2]

٦- قيام الأمة بواجبها نحو المغتابين، بألا تسمح لهؤلاء بالغيبة، بل عليها أن تزجرهم بما تملك من أساليب ووسائل، ومن أبرز هذه الأساليب وتلك الوسائل رد غيبة هؤلاء فقد جاء في الحديث ان النبي ﷺ قال: «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»[3]. «وما من امرئ خذل أمرءاً مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يجب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلماً في موضع ينتقص من عرضه، وينتهك فيه من حرمته الا نصره الله في موطن يحب نصرته»[4]. «ومن حمى مؤمناً من منافق بعث الله تعالى ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلماً بشيء يريد شينه حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال»[5].

وعلى ولي الامر بالذات لفت نظر المغتابين الى خطورة الغيبة وضررها على الفرد والجماعة فان لم ينزجروا، أنذرهم ثم عزرهم وبذلك يقضي على الشر من أساسه، ويقتل السوء في مهده.

٧- التذكير الدائم بعواقب الغيبة في الدنيا والآخرة، سواء اكان ذلك على العاملين أم على المجتمع، فان الانسان ينسى، وعلاج النسيان، انما يكون بالتذكير ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[6]

---

(١) الأذكار للنووي ص ٢٨٣.

(٢) الصف ٢، ٣.

(٣) اخرجه الترمذي ٤/٣٢٧ رقم ١٩٣١ واحمد في المسند ٦/٤٤٩.

(٤) اخرجه ابو داود ٥/١٩٧ رقم ٤٨٨، واحمد٤/٣٠.

(٥) اخرجه ابو داود ٥/١٩٦، واحمد٣/٤٤١.

(٦) الذاريات ٥.

النميمة

النميمة لغة: نمّ الحديث ينمه نماً فهو نمام، والاسم منه النميمة، وتطلق النميمة في اللغة على معان عدة منها:-

١- قتّ الكلام أو الحديث مطلقاً أي نقله، نقول: نمَّ الحديث نماً أي قتّه ورجل نمام أي قتات، ثم صارت تطلق على نقل الكلام على جهة الافساد، وفي الحديث «لا يدخل الجنة قتات»(١).

٢- الهمس والحركة: ومنه قولهم: اسكت الله نامته، أي ما ينم عليه من حركته.

٣- الترقيش والزخرفة، نقول نمنم الشيء نمنمة أي رقشه وزخرفه، وثوب منمنم أي موشى ومنه قيل للبياض الذي يكون على اظفار الأحداث نمنمة»(٢).

واصل النميمة: نقل الكلام من قوم الى آخر، وضابطها كشف ما يكره كشفه سواء اكرهه المنقول عنه أم المنقول اليه أم غيرهما، وسواء أكان المنقول قولاً ام فعلاً وسوءا اكان عيباً ام لا.

والنمام: هو ناقل الحديث من قوم الى قوم على جهة الافساد والشر.

النميمة اصطلاحاً: هي نقل كلام الناس بعضهم الى بعض على جهة الافساد بينهم، وقيل الفرق بين القتات والنمام: ان النمام الذي يحضر القصة فينقلها، والقتات الذي يستمع من حيث لا يعلم به ثم ينقل ما سمعه»(٣).

الفرق بين الغيبة والنميمة

الغيبة كما مر بنا: ذكر الانسان في غيبته بما لا يرضيه.

---

(١) البخاري ٨/ ٢١، مسلم ١/ ١٠١,

(٢) تهذيب الصحاح ج/ ٢/ ٧٩٤، الصحاح في اللغة والعلوم ص ١٠٢٨، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٥/ ١٢٦.

(٣) فتح الباري ١٠/ ٤٧٢.

والنميمة: نقل حال الشخص لغيره على جهة الافساد وبغير رضاه سواء أكان بعلمه أم بغير علمه. فامتازت النميمة بقصد الافساد، ولا يشترط ذلك في الغيبة وامتازت الغيبة بكونها في غيبة المنقول عنه.

إذا يكون الفرق بينهما هو العموم والخصوص المطلق، أي ان كل نميمة غيبة، وليس كل غيبة نميمة، فان الإنسان قد يذكر عن غيره ما يكرهه ولا إفساد فيه بينه وبين أحد، وهذا غيبة، وقد يذكر عن غيره ما يكرهه وفيه إفساد وهذا غيبة ونميمة معاً»[1].

وحري بنا ونحن نتحدث عن الغيبة والنميمة، ان نبين معنى السعاية لان لها علاقة وطيدةفي الموضوع، فالسعاية: هي السعي لدى السلاطين والأمراء للايقاع ببعض المقربين لديهم، أملاً في الظفر بمواقعهم، وفي هذا ورد في الاثر: «الجنة لا يدخلها ديوث ولا قلاع». والقلاع هو الساعي بالناس عند ذوي السلطة ليقلعهم من عنده.

حكم النميمة في الإسلام

النميمة محرمة بإجماع المسلمين- وقد تظاهرت على تحريمها الأدلة الصريحة من الكتاب والسنة والإجماع. وبين الإسلام ان النميمة من الكبائر التي تحرم الواقع فيها المقيم عليها من الجنة، وتوجب له النار نظراً لأنه يسعى في قطع ما أمر الله به ان يوصل، ويسعى في الأرض الفساد، والأدلة على تحريمها ما يلي:-

أولا- الكتاب:- يقول الله تعالى: **﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾**[2]وقال أيضاً: **﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾**[3].

---

(١) آفات على الطريق جـ٣ / ٨١، آفات اللسان / ٤١.

(٢) القلم ١٠-١١

(٣) الهمزة ١.

ثانياً-السنة

١- قال ﷺ : «لا يدخل الجنة قتات»[١]. والقتات هو النمام.

٢- وقال ﷺ «لا يدخل الجنة نمام»[٢].

٣- ومر ﷺ بقبرين فقال: «ألا انهما ليعذبان ،وما يعذبان في كبير، وانه لكبير، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من بوله، واما الآخر فكان يمشي بين الناس بالنميمة» وفي لفظ آخر «كان الآخر يؤذي الناس بلسانه ويمشي بينهم بالنميمة»[٣].

٤- وقال ﷺ : «الا أنبئكم بشراركم قالوا: بلى يا رسول الله ،قال المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب»[٤].

٥- وقال ﷺ : «الا اخبركم بافضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة قالوا: بلى يا رسول الله ،قال: إصلاح ذات البين، فان فساد ذات البين هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر وإنما تحلق الدين»[٥].

ثالثاً- الإجماع: لقد اجمعت الامة في القديم والحديث على تحريم النميمة وانها من اعظم الذنوب عند الله تعالى.

أسباب النميمة[٦]

للنميمة أسباب كثيرة نذكر منها ما يلي:-

١- الحسد أو محبة الشر والسوء للناس- قد يكون الحسد أو محبة الشر والسوء للناس مدعاة للوقيعة والافساد ،ذكر صاحب الاحياء ان رجلا باع عبداً وقال للمشتري ما فيه عيب الا النميمة فاستخف بهذا العيب، وقال:

(١) البخاري ٧/ ٨٦، مسلم ١/ ١٠١.

(٢) مسلم / ١٠١ واحمد ٥/ ٣٩١، ٢٤.

(٣) متفق عليه البخاري ١/ ٦٥، مسلم ١/ ٨٦٦.

(٤) احمد ٦/ ٤٥٩.

(٥) احمد ٦/ ٤٤٥، وابو داود ٥/ ٢١٨.

(٦) آفات على الطريق جـ ٣/ ٨٣-٨٨

رضيت، فاشتراه، فمكث الغلام أياماً، حتى نمّ لزوجة سيده ان سيده لا يحبها ويريد التزوج أو التسري- وأمرها ان تأخذ الموسى وتحلق بها شعرات ليسحره لها فيهن، فصدقته وعزمت على ذلك، فجاء لسيده ونمّ له عنها انها اتخذت خليلاً احبته وتريد ذبحك، فتناوم لها حتى تعرف ذلك فتناوم فجاءت لتحلق، فقال صدق الغلام فلما هوت اليه أخذ الموسى منها وذبحها به، فجاء اهلها فرأوها مقتولة، فقتلوا الزوج فوقع القتال بين القبيلتين لشؤم ذلك النمام»[1].

٢- التملق لدى ذوي الوجاهة والسلطان ارضاء لهم أو طمعاً فيما بأيديهم: -

وقد يكون التملق لذوي الجاه والسلطان إرضاء لهم أو طمعاً فيما عندهم هو بسبب في الوقوع في آفة النميمة، ذلك ان نفراً بفهمهم القاصر يتصورون ان ارضاء ذوي الجاه والسلطان أو الحصول على ما عندهم لا يتم إلا على اعراض الناس، والوشاية أو الوقيعة بينهم، وقد نسوا أو تناسوا ان ما عند الناس لا يناله المرء الا بطاعته لله- وتفانيه في مرضاته تبارك وتعالى اذ يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2]

ويقول الرسول ﷺ: **«من اكل برجل مسلم أكلة، فان الله يطعمه مثلها من جهنم، ومن كسى ثوباً برجل مسلم فان الله يكسوه مثله من جهنم ومن قام برجل مقام سمعة ورياء فان الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة»**[3].

٣- العمل لحساب افراد أو جهات مشبوهة: وقد يكون العمل لحساب افراد أو جهات مشبوهة هو السبب في الوقوع في آفة النميمة، ذلك ان هناك افراد وجهات مشبوهة لا تصل إلى مرادها الا بالوقيعة، والفساد والسعاية بين الناس

(١) احياء علوم الدين جـ٣/ ١٥٤.

(٢) الأعراف ٩٦.

(٣) ابو داود ٥/ ١٩٥ رقم ٤٨٨.

بالإفساد مباشرة أو بواسطة آخرين من ذوي النفوس الضعيفة والقلوب المريضة ومن ثم تنتشر وتشيع النميمة بين الناس ولعل الفرقة الواقعة اليوم بين المسلمين نابعة من هذا السبب الخطير.

٤- الغفلة عن العواقب الناشئة عن النميمة: وقد تكون الغفلة عن العواقب الناشئة عن النميمة هي السبب في الوقوع في هذه المصيبة، إذ لا يقدر النمام عواقب الشيء ولا سيما اذا كانت هذه العواقب وخيمة، فتراه يقدم على فعلته وان كان في إقدامه هذا الحتف والهلاك.

٥- عدم قيام الامة بواجبها نحو النمام بل استحسان عمله هذا: - وقد يكون عدم قيام الأمة حكاماً ومحكومين بواجبها نحو النمام من تكذيبه وزجره وتخويفه واستهجان عمله هذا، بل استحسان الامة لمثل هذا العمل، قد يكون سبباً من الأسباب التي تؤدي إلى الوقوع في آفة النميمة.

وقد وعى السلف الصالح واجبهم نحو المغتابين والنمامين فقطعوا عليهم سبيل الوقيعة فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله يدخل عليه رجل فيذكر له عن رجل شيئاً، فيقول له امير المؤمنين عمر: «ان شئت نظرنا في أمرك فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية ﴿إِنْ جَاءَكُم فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ وان كنت صادقاً فانت من اهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ وان شئت عفونا عنك فقال: العفو يا امير المؤمنين لا اعود اليه ابداً»(١).

علاج النميمة

بعد بيان أسباب وبواعث النميمة وآثارها الضارة وعواقبها الوخيمة يجدر بنا بيان علاجها ويتلخص ذلك في الأمور التالية: -

١- المبادرة بعدم تصديق النمام، بل زجره وتخويفه الله تعالى والدار الآخرة

---

(١) احياء علوم الدين ٣/ ١٥٣-١٥٤.

فان ذلك مما يقطع الطريق على النمام، ولا يجعله يستمرئ أو يتمارى، ويوقن المسلم ان مثل هذه الخطوة من باب ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾(١)

٢- بغض النمام في الله تعالى بغضاً يظهر في السلوك، وفي طريقة المعاملة، فان ذلك له اثر كبير في الاقلاع عن هذه المعصية والآفة.

٣- نقاء الوسط الذي يعيش فيه النمام، سواء أكان هذا الوسط قريباً كالبيت ام بعيداً كالمجتمع، فان المرء ابن بيئته وكم من أناس طهرت قلوبهم وزكت جوارحهم واستقاموا على الطريق بسبب عيشهم في وسط نقي نظيف.

٤- اليقين التام بان ما عند الله لا ينال بالمعصية والوقيعة والإفساد بين الناس، وانما ينال بالطاعة والورع والاستقامة.

٥- قيام أولي الأمر بواجبهم نحو النمامين وذلك بزجرهم وتخويفهم، بل وتعزيرهم ان اقتضت المصلحة ذلك وان الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن.

٦- مقاطعة النمام إن أصر على هذا الخلق الذميم، ولم تنفع معه الأساليب المتقدمة وآخر الدواء الكي حيث يقول الرسول ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان**»(٢).

وقال بعضهم وكل من نقلت اليه النميمة فعليه ستة اشياء:

أ- ان لا يصدق الناقل لان النمام فاسق مردود الشهادة

ب- أن ينهاه عن ذلك وينصحه.

جـ. ان يبغضه في الله فانه بغيض عند الله.

د- ان لا يظن بأخيه الغائب السوء.

هـ- ان لا يحمله ما حكاه على التجسس والبحث لقوله تعالى: ﴿ولا

---

(١) لقمان ١٧.

(٢) آفات على الطريق جـ٣/ ٨٩-٩٠.

تجسسوا﴾.

و- ان لا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه فلا يحكى النميمة.

ومن هذا العرض الموجز للغيبة والنميمة وبيان أسبابهما ونتائجهما وما يترتب عليهما من تقطيع اواصر المجتمع فاننا نحذر منهما ومن التلوث بجراثيمهما التي هي أشد فتكاً في البنية الاخلاقية من اخطر الامراض الجرثومية فتكاً في البنية الجسدية، ونحن اذ نحذر من مخاطر عدواهما لنسأل الله تعالى أن يقينا منهما ليبقى المجتمع الاسلامي كما أراده الله تعالى سليماً من التفكك والانحلال متماسكاً كالبنيان المرصوص!.

المبحث الخامس عشر

الحسد(*)

الحسد خلق ذميم مضر بالبدن مفسد للدين أمر الله بالاستعاذة من شره قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾(١).

ولو لم يكن من ذم الحسد - إلا أنه خلق دنيء يتوجه نحو الأكفاء والأقارب ويختص بالمخالط والصاحب لكانت النزاهة عنه كرماً، والسلامة منه مغنماً ، فكيف وهو بالنفس مضر وعلى الهم مصر حتى ربما أفضى بصاحبه إلى التلف من غير نكاية في عدو ولا إضرار بمحسود.

تعريف الحسد

الحسد لغة: مصدر قولهم حسد يحسُدُ ويحسِدُ بكسر السين وضمها، وأصله القشر، وهو مأخوذ من الحسدل ، وهو القراد ، فالقراد يقشر القلب كما تقشر القراد الجلد فتمتص دمه ، وحسدتك على الشئ وحسدتك الشئ بمعنى، يقول الفيومي(٢): حسدته على النعمه وحسدته النعمة حسداً. وهو غير الغبطة ، لأن الأولى صفة المنافقين والثانية صفة المؤمنين(٢)، قال الراغب الأصفهاني(٣): وروى «المؤمن يغبط والمنافق يحسد» ومنه قوله تعالى: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾(٤)

(*) د. محمد موسى نصر

(١) سورة الفلق : ٥.

(٢) المصباح المنير (١/ ١٣٥).

(٣) المفردات للراغب الاصفهاني (ص ١١٧).

(٤) سورة البقرة : ١٠٩.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[1] ،وقوله ﷺ: «لا حسد الا في اثنتين»[2]، وهو ان يتمنى الرجل ان يرزقه الله مالا ينفق منه في سبيل الخير،أو يتمنى ان يكون حافظاً لكتاب الله فيتلوه آناء الليل وأطراف النهار،ولا يتمنى ان يرزأ صاحب المال في ماله أو تالي القرآن في حفظه«وهذا هو الحسد المباح وهو ما يسمى بالغبطة«،قال ابن منظور: الحسد أن يتمنى زوال نعمة المحسود،وحسده يحسده ويحسده حسداً ،وحسّده إذا تمنى أن تتحول إليه نعمته وفضيلته أو يسلبهما،وتحاسد القوم ورجل حاسد من قوم حسّد.

الحسد اصطلاحاً: كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه ،قال الماوردي[3]: حقيقة الحسد: شدة الأسى على الخيرات أن تكون للناس الأفاضل.

وقال المناوي: الحسد: تمني زوال نعمة عن مستحق لها،وقيل: هو ظلم ذي النعمة يتمنى زوالها عنه وصيرورتها إلى الحاسد[4]

وقد غلط أقوام فظنوا أن المنافسة في الخير هي الحسد وليس الأمر على ما ظنوا،لأن المنافسة ،طلب التشبه بالأفاضل من غير ادخال ضرر عليهم،والحسد: مصروف إلى الضرر،لأن غايته ان يعدم الأفاضل فضلهم من غير أن يصير الفضل له،فالمنافسة فضيلة،لأنها داعية إلى اكتساب الفضائل والاقتداء بأخبار الأفاضل،وبحسب فضل الانسان وظهور النعمة عليه يكون حسد الناس له،فإن كثر فضله كثر حساده،وإن قل قلوا،لأن ظهور الفضل يثير الحسد،وحدوث النعمة يثير الكمد».

الأدلة على ذم الحسد

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً

(١) سورة الفلق : ٥

(٢) رواه البخاري في العلم باب الاغتباط في العلم والحكمة ومسلم باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه.

(٣) أدب الدنيا والدين (٢٦٠)

(٤) نظرة النعيم بمكارم اخلاق الرسول الكريم (٤٤١٨)

حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ﴾[1]

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُواْ لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[4].

أما الأحاديث في هذا فهي كثيرة ،منها:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا[5]، ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عبـــاد الله إخوانا»[6].**

٢- وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«دبّ اليكم داء الأمم الحسد والبغضاء»[7].**

٣- عن ضمرة بن ثعلبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا»[8].**

٤- عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«والله لينزلن ابن مريم حكما عدلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير، وليضعن**

---

(١) سورة البقرة : ١٠٩.

(٢) النساء :٥١-٥٤.

(٣) سورة الفتح : ١٥.

(٤) سورة الفلق : ٥.

(٥) التحسس: الاستماع لحديث القوم ، والتجسس: البحث عن العورات، وقيل ان الاول في الخير والثاني في الشر

(٦) البخاري-فتح ١٠/٦-٠٦٦) ومسلم (٢٥٦٣)

(٧) اخرجه الترمذي (٢٥١٠) واحمد في مسنده (١٦٥،١٦٧)

(٨) رواه الطبري في معجمة ورواته ثقات.

الجزية، ولتتركن القلاص[1] فلا يسعى عليها ولتذهبن الشحناء، والتباغض، والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد»[2].

٥- عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «**ما حسدتكم اليهود على شئ ما حسدتكم على الاسلام والتأمين[3]، أي قولكم: آمين**».

٦- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**العين حق ولو كان شئ سابق القدر سبقته العين واذا استغسلتم فاغسلوا**»[4]. والمراد بذلك إذا طلب منكم المعان أن تتوضأوا، وتغسلوا داخلة أزركم لكي تصب عليه لشفائه من العين، فافعلوا.

٧- وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: «**كان رسول الله ﷺ يتعوذ من عين الجان ثم أعين الانسان فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سوى ذلك**»[5].

قلت والفرق بين العائن والحاسد أن كل عائن حاسد وليس كل حاسد عائناً وإنما يصيب الرجل بعينه عندما تتكيف نفسه بكيفية خبيثه فينظر إلى حاسده نظرة بغض أو اعجاب دون أن يُبرِّك، أو يذكر اسم الله فيصيب الحاسد المحسود بالأمراض وربما قتله، فالعين تدخل الرجل القبر، والجمل القدر كما ثبت بذلك الحديث»[6].

ومن الآثار الواردة في ذم الحسد

قال رجل للحسن: هل يحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك بني يعقوب نعم

---

(١) القلاص : هي من الابل كالفتاة من النساء، وذكرت هنا لكونها اشرف الابل التي هي انفس الاموال عند العرب، والمعنى ان يزهد فيها لكثرة الأموال(نضرة النعيم (ص ٤٤٢٤).

(٢) اخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٥٤٧) ورواه الطبراني ورواته ثقات.

(٣) اخرجه ابن ماجه (٨٥٦) وسنده صحيح.

(٤) اخرجه مسلم (٢١٨٨).

(٥) الترمذي (٢٠٥٨) والنسائي (٨/ ٢٧١) وابن ماجه (٣٥١١)، وصححه الألباني في صحيح النسائي (٥٠٦٩).

(٦) احياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٢٠١).

ولكن غمة في صدره فانه لا يضرك ما لم تعد به يدٌ ولا لسان.

وقال معاوية رضي الله عنه: ليس في خصال الشر أعدل من الحسد يقتل الحاسد قبل أن يصل الى المحسود[1].

وفي ذلك يقول المثل: -

لله در الحسد ما أعدله   بدأ بصاحبه فقتله

قال أبو بكر بن عبد الله: كان رجل يغشى بعض الملوك فيقوم بحذاء الملك فيقول: أحسن الى المحسن بإحسانه، فإن المسيء يكفيه إساءته فيحسده رجل على ذلك المقام والكلام، فسعى إلى الملك فقال: إن هذا الذي يقوم بحذائك ويقول ما يقول زعم أن الملك أبخر فقال له الملك: وكيف يصح ذلك عندي؟ قال: تدعوه إليك فانه إذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم رائحة البخر فقال له: انصرف حتى انظر ،فخرج من عند الملك فدعا الرجل من عنده، وقام بحذاء الملك على عادته فقال: أحسن إلى المحسن باحسانه، فان المسيء سيكفيه اساءته، فقال له الملك: ادن مني، فدنا منه فوضع يده على فيه مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم، فقال الملك في نفسه ما ارى فلانا الا قد صدق، قال: وكان الملك لا يكتب بخطه الا بجائزة أو صلة، فكتب له كتابا بخطه إلى عامل من عماله، إذا اتاك حامل كتابي هذا فاذبحه واسلخه، واحش جلده تبنا، وابعث به إلي فأخذ الكتاب وخرج، فلقيه الرجل الذي سعى به فقال: ما هذا الكتاب: قال خط الملك لي بصلة فقال: أعطني الخطاب ،فقال: هو لك فأخذه ومضى به إلى العامل فقال العامل: في كتابك أن أذبحك وأسلخك قال: إن الكتاب ليس هو لي ،فالله الله في أمري حتى تراجع الملك فقال: ليس لكتاب الملك مراجعة، فذبحه وسلخه وحشا جلده تبنا وبعث به، ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته فقال مثل قوله: فعجب الملك وقال: ما فعل الكتاب؟ فقال: لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له

(١) ادب الدنيا والدين للماوردي (ص ١٧٦).

قال له الملك: إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر قال: ما قلت ذلك: قال: فلم وضعت يدك على فيك؟ قال: لأنه أطعمني طعاماً فيه ثوم فكرهت أن تشمه قال: صدقت ارجع إلى مكانك فقد كفى المسئ اساءته»[1].

دواعي الحسد

قال الماوردي - رحمه الله -أعلم ان دواعي الحسد ثلاثة: -

١- بغض المحسود فيأسى عليه بفضيلة، تظهر أو منقبة تشكر، فيثير حسداً قد خامر بغضا وهذا النوع لا يكون عاما، وإن كان أضرها، لأنه ليس يبغض كل الناس.

٢- ان يظهر من المحسود فضل يعجز عنه، فيكره تقدمه فيه، واختصاصه به، فيثير ذلك حسداً لولاه لكف عنه، وهذا أوسطها ، لانه لا يحسد من الأكفاء من دنا، وإنما يختص بحسد من علا، وقد يمتزج بهذا النوع ضرب من المنافسة، ولكنها مع عجز، فلذلك صارت حسداً.

٣- ان يكون في الحاسد شح بالفضائل وبخل بالنعم وليست إليه فيمنع منها ولا بيده، فيدفع عنها لأنها مواهب قد منحها الله من شاء فيسخط على الله - عز وجل - في قضائه ويحسد على ما منح من عطائه، وإن كانت نعم الله - عز وجل - عنده اكثر ومنحه عليه أظهر، وهذا النوع من الحسد أعمها وأخبثها، إذ ليس لصاحبه راحة، ولا لرضاه غاية فإن اقترن بشر وقدرة كان جودا وانتقاما، وإن صادف عجزا كان جهداً وسقاماً»[2].

علاج الحسد ودفعه

قال الامام ابن قيم الجوزية: ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب: -

---

(١) الغزالي - الاحياء (٣/ ٢٠٠-٢٠١) ط. الريان.

(٢) أدب ، الدنيا والدين للماوردي - ص ١٧٦ .

السبب الأول: التعوذ بالله من شره والتحصن به واللجوء اليه.

السبب الثاني: تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه فمن اتقى الله تولى الله حفظه ولم يكله إلى غيره.

السبب الثالث: الصبر على عدوه، وأن لا يقاتله ولا يشكوه ولا يحدث نفسه بأذاه أصلا فما نصر على حاسد وعدوه بمثل الصبر عليه.

السبب الرابع: التوكل على الله ،فمن توكل على الله فهو حسبه، والتوكل من أقوى الاسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من اذى الخلق وظلمهم وعداوتهم، وهو من اقوى الأسباب في ذلك فإن الله حسبه أي: كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه، فلا مطمع فيه لعدوه.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له ،فلا يلتفت إليه ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينه على اندفاع شره.

السبب السادس: الاقبال على الله والاخلاص له وجعل محبته ورضاه والإنابة إليه في محل خواطر نفسه وأمانيها تدب فيها دبيب تلك الخواطر شيئاً حتى يقهرها ويغمرها ويذيبها بالكلية فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محابّ الرب والتقرب اليه.

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[1].

السبب الثامن: الصدقة والاحسان ما أمكنه فان لذلك تأثيرا عجيبا في دفع البلاء، ودفع العين، وشر الحاسد ولو لم يكن في هذا الا تجارب الأمم قديما، وحديثا، لكفى به فما حرس العبد نعمة من الله عليه بمثل شكرها ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله، وهو كفران النعمة وهو باب إلى

---

(١) الشورى: ٣٠.

كفران المنعم.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله، وهو اطفاء نار الحاسد، والباغي، والمؤذي بالاحسان إليه، فكلما زاد أذى وشراً وبغيا وحسدا، ازددت إليه احسانا، وله نصيحة وعليه شفقة، وما أظنك تصدق بأن هذا يكون فضلا عن أن تتعاطاه فاستمع الان إلى قوله عز وجل: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ × وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1].

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله وعليه تدار هذه الاسباب، وهو تجريد التوحيد والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم والعلم بأن هذه الآلات بمنزلة الرياح، وهي بيد محركها وفاطرها وبارئها لا تضر ولا تنفع إلا بإذنه، فهو القوي يحس عبده بها وهو الذي يصرفها عنه وحده لا احد سواه[2]، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّهُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾[3].

وهكذا فإننا بعد عرضنا للحسد وأسبابه ووسائل الخلاص منه لندعو الله تعالى أن لا يجعلنا حاسدين ولا محسودين، وأن يطهر قلوبنا من هذه الآفة التي أسوأ ما فيها أنها من علامات الخسة والنذالة وضآلة النفس النابعة كلها من ضعف الايمان، وانعدام التوكل وعدم اللجوء إلى الله تعالى في الشدّات، والاعتماد عليه في الملمّات.

---

(١) فصلت (٣٤-٣٥).

(٢) التفسير القيم (٥٨٥-٥٩٣) لابن قيم الجوزية.

(٣) سورة يونس: ١٠٧.

المبحث السادس عشر

النفاق[*]

النفاق من أمراض القلوب القاتلة فهو يهلك الأمة ويعصف بها عصفا ويجعل بأسها بينها شديدا حينما يوجد بينها أفراد ينتمون لها اسما بينما قلبا وقالبا مع اعدائها جندوا انفسهم لخدمة الشيطان وحزبه، وفي هذه السطور نتعرف على معالم النفاق وصفات اهله.

فعل النفاق

إسم مأخوذ من مادة (ن ف ق) التي تدل على الخروج ،فالنفق سرب في الأرض له مخلص الى مكان ،والنفق: المسلك النافذ الذي يمكن الخروج منه»[1].

وعلى ذلك نبه القرآن الكريم ،قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الفَاسِقُونَ**﴾[2] (أي: الخارجون من الشرع وقد جعلهم الله شرا من الكافرين فقال: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**﴾[3].

قال ابن منظور: والنفقة والنافقاء: جحر الضب واليربوع، وقيل النفقة والنافقاء موضع يرققه اليربوع من جحره، فاذا اتي من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فخرج، ويقال نافق اليربوع اذا دخل في نافقائه، قال ابو عبيد: سمي المنافق منافقا للنفق وهو السرب في الأرض، وقيل: إنما سمي منافقا لأنه نافق كاليربوع

(*) د. محمد موسى نصر

(١) مقياس اللغة (٥/ ٤٥٤-٤٥٥).

(٢) التوبة : آية ٦٧.

(٣) النساء : آية ١٤٥.

وهو دخوله نافقاءه وله جحر آخر يقال له القاصعاء، فهو يدخل في النافقاء ويخرج من القاصعاء والعكس وهكذا يفعل المنافق، يدخل في الاسلام ثم يخرج منه من غير الوجه الذي دخل فيه. وهو اسم اسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به(١).

والذي قاله أهل العلم المعتبرون ان النفاق في اللغة: هو من جنس الخداع والمكر وإظهار الخير وابطان خلافه(٢).

النفاق اصطلاحا: قال الجرجاني: النفاق اظهار الايمان باللسان وكتمان الكفر بالقلب(٣).

أنواع النفاق

النفاق نوعان: أكبر، وأصغر.

فالأكبر: ان يظهر الانسان الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله ﷺ ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار.

والأصغر: هو نفاق العمل: وهو أن يظهر الانسان عملاً علانية ويبطن ما يخالف ذلك(٤).

وقال ابن الأثير: «. . . . وفيه: «أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها»: أراد بالنفاق هنا الرياء لان كليهما اظهار غير ما في الباطن(٥).

---

(١) لسان العرب (١٠/ ٣٥٩) ومختار الصحاح (٦٧٣)

(٢) جامع العلوم والحكم (٣٧٥).

(٣) التعريفات ص ٢٤٥.

(٤) جامع العلوم والحكم ص ٣٧٥.

(٥) النهاية في غريب الحديث

والمقصود من الرياء والنفاق واحد وهو إظهار غير ما في السرائر.

وقال ابن رجب: ومن اعظم خصال النفاق العملي أن يعمل الانسان عملاً ويظهر انه قصد به الخير، وإنما عمله ليتوصل به إلى غرض له سيئ فيتم له ذلك ويتوصل بهذه الخديعة إلى غرضه ويفرح بمكره وخداعه وحمد الناس له على ما أظهره ويتوصل به إلى غرضه السيئ الذي أبطنه[1].

أضرار النفاق على الأفراد والجماعات

للنفاق آثاره الخطيرة في حياة الناس أفراداً ،وجماعات، فالناس من حيث علاقتهم بك أصناف ثلاثة: صديق محب، وعدو حاقد، وثالث محايد، أما الأول فتدفع عنك صداقته، وأما الثاني: فيريحك منه مكاشفته بعداوته فأنت منه على حذر، وأما الثالث فتحكم علاقتك به البراءة الأصلية، لكن كيف بك مع صنف رابع من الناس يظهر صداقته ويضمر عداوته لسانه معك وقلبه عليك... صاحب شعارات خادعة ،وهو في حقيقة أمره تاجر شعارات ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾[2]

لم تزل هذه الشريحة الرابعة موجودة في كل مجتمع وقد كان لها بروز واضح بعد أن اصبح للإسلام دولته الأولى في المدينة المنورة أما في مكة فلم يكن لها وجود ،فمنشأ النفاق هو الحصول على مكاسب مادية ،أو معنوية وهو ما لم يكن المشركون بحاجة إليه في المجتمع المكي، فلمن يتزلفون وقد كان المسلمون تحت ملاحقتهم واضطهادهم، أما في المجتمع المدني حيث ساد الاسلام والمسلمون ،فقد نبزت طائفة من أهل المدينة وجدوا مصالحهم الخاصة مهددة مع ظهور النظام الجديد سواء ذلك في بعض العرب واليهود ممن هالهم انتقال السلطة الى المسلمين فلم يجدوا بدّاً من المهادنة والتلون ،فأظهروا اسلامهم وفي قلوبهم كيد للاسلام

(١) جامع العلوم والحكم ص ٢٧٨.

(٢) المنافقون : ٤.

وأهله وعم شرهم ولم يقصروا في خذلان المسلمين، وكانوا يتحينون كل فرصة للايقاع بالمسلمين والنيل من رسوله ﷺ ، فنزلت الآيات الكريمة تترى، تفضح هؤلاء المنافقين وتحذر من شرورهم ومكائدهم.

حكم النفاق

اذا كان نفاق عقيدة، فهو كفر بواح مخرج من الملة والعياذ بالله بل هو أشد أنواع الكفر، ولذلك جعل الله المنافقين في أسفل دركات جهنم وخصهم بها لعظم ضررهم، وخطرهم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[1].

آيات وأحاديث في ذم النفاق والمنافقين:

١- ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾[2]

٢- ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾[3]

٣- ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[4].

٤- ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[5].

ومن الأحاديث

١- عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: «قال رسول الله

---

(١) سورة النساء : اية ١٤٥ .

(٢) سورة النساء: اية ١٣٨، ١٣٩ .

(٣) سورة النساء : اية١٤٠ .

(٤) سورة النساء : اية١٤٢ .

(٥) سورة التحريم : ٩اية .

ﷺ : «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً. ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق. حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر» غير أن في حديث سفيان «وإن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق»(١).

٢- عن انس - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال: «العبد إذا وضع في قبره وتولى وذهب اصحابه - حتى انه ليسمع قرع نعالهم - أتاه ملكان فقعداه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟ فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال: انظر إلى مقعدك من النار، أبدلك الله به مقعدا من الجنة. قال النبي ﷺ فيراهما جميعا. وأما الكافر -أو المنافق- فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس. فيقال: لا دريت، ولا تليت. ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين»(٢).

٣- عن أبي موسى رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجّة طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر أو خبيث ولا ريح لها»(٣).

٤- عن بريدة بن الحصيب - رضي الله عنه - ان رسول الله ﷺ قال: «لا تقولوا للمنافق سيد فإنه إن يك سيداً فقد أسخطتم ربكم - عز وجل»(٤).

٥- عن انس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «آية الايمان حب الانصار، وآية النفاق بغض الانصار»(٥).

---

(١) اخرجه البخاري - فتح ١/ ٣٤، ومسلم (١/ ٥٨

(٢) اخرجه البخاري - فتح ٣/ ١٣٣٨، ومسلم (٢٨٧٠)

(٣) اخرجه البخاري - فتح ٩/ ٥٠٥٩، ومسلم (٧٩٧).

(٤) اخرجه ابو داود ٤/ ٤٩٧٧ بسند صحيح.

(٥) اخرجه البخاري - فتح ١/ ٧، ومسلم ص ٧٤.

٥- عن حنظلة الأسدي قال: «وكان من كتاب رسول الله ﷺ - قال: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة. قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا رأي عين، فاذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرا. قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا. فانطلقت انا وابو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ: قلت: نافق حنظلة ،يا رسول الله ،فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك «؟ «قلت: يا رسول الله ،نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة، كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك ،عافسنا الازواج والأولاد والضيعات، نسينا كثيراً، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر ،لصافحتكم الملائكة على فرشكم، وفي طرقكم، يا حنظلة، ولكن ساعة وساعة (ثلاث مرات)»[١].

من الآثار الواردة في ذم المنافق والمنافقين:

١- روي فيما معناه عن عمر - رضي الله عنه -: «خشوع النفاق أن ترى الجسد خاشعا والقلب ليس بخاشع»[٢]

٢- عن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - قال: «ان المنافقين اليوم شر منهم على عهد النبي ﷺ، كانوا يومئذ يسرون ،واليوم يجهرون»[٣].

٣- قال اناس لابن عمر - رضي الله عنهما -: «انا ندخل على سلطاننا فنقول بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عنده، قال: كنا نعده نفاقا»[٤].

٤- وقال - رضي الله عنه - إنكم ترون الكافر من أصح الناس جسما

---

(١) اخرجه مسلم (٢٧٥).

(٢) جامع العلوم والحكم - ابن رجب الحنبلي (٣٧٧).

(٣) المصدر السابق ص ٣٧٨.

(٤) جامع العلوم والحكم ص ٣٧٨.

وأمرضهم قلبا، وتلقون المؤمن من أصح الناس قلبا وأمرضهم جسما، وأيم الله لو مرضت قلوبكم وصحت أجسامكم لكنتم أهون على الله من الجعلان»[1].

٥- عن عبد الرحمن بن أبي حسين قال: «بلغني أن لقمان كان يقول: يا بني لا تتعلّم العلم لتباهي به العلماء، أو تماري به السفهاء وترائي به في المجالس»[2].

بعض صفات المنافقين كما وردت في القرآن والسنة الصحيحة

١- نقض العهد: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ. فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾[3]

٢- البطر والرياء والصد عن سبيل الله: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[4].

٣- الجهل بشرع الله وأحكام دينه: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[5].

٤- اتقان زخرفة الكلام والاهتمام باصلاح المظهر مع فساد المخبر: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[6].

٥- الاعراض والصدود والاستكبار عن الحق: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ

---

(١) الفوائد لابن القيم ص ٢٠١.

(٢) اخرجه احمد ١/ ١٩٠ بسند صحيح.

(٣) التوبة: ٧٥-٧٧.

(٤) الأنفال: ٤٧ آية.

(٥) التوبة: آية٩٧.

(٦) المنافقون: آية ٤.

يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ . سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(1).

٦- التطاول على رسول الله ﷺ والطعن في أصحابه: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(2).

٧- حلف الأيمان الكاذبة طلبا للنجاة: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾(3).

٨- الاعاقة والتثبيط عن الجهاد في سبيل الله ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(4).

٩- اختلاق الأعذار الواهية للتنصل من المسئوليات والفرار من الجهاد: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَا إِلاَّ يَسِيراً. وَلَقَدْ كَانُواْ عَاهَدُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً﴾(5).

١٠- تحين الفرص للوقيعة بالمسلمين واتخاذ كل وسيلة لذلك: ﴿وَمِنَ

---

(1) المنافقون : آية ٦.

(2) المنافقون : آية ٨.

(3) التوبة " آية ٧٣-٧٤.

(4) الأحزاب : ١٨.

(5) الأحزاب :آية ١٣-١٥.

الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

١١- الافساد في الأرض: قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾[2].

١٢- التذبذب في المواقف: قال ﷺ: «مثل المنافق كالشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة»[3]، وبمثل ذلك جاء وصفهم في سورة النساء ،الخيانة واخلاف الوعد والكذب.

قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا أئتمن خان»[4].

١٣- الموالاة لاعداء الاسلام: قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً﴾[5].

من مضار «النفاق»

١- المنافق لا يقبل الله منه عملا صالحا.

٢- المنافق مريض القلب يفرح إذا أصاب المسلمين ضر ويحزن إذا انتصروا، ويتربص بهم الدوائر.

٣- المنافقون بخلاء، ولكن ينفقون أموالهم رئاء الناس.

٤- المنافق ضال باعتقاده وعلمه وعمله.

(١) التوبة : آية ٩٨.

(٢) سورة البقرة : آية ١١، ١٢

(٣) رواه مسلم. سورة النساء : ١٣٨، ١٣٩.

(٤) اخرجه النسائي بسند صحيح.

(٥) سورة النساء :آية ١٣٨، ١٣٩,

٥- المنافقون والمراءون يتعذبون بأموالهم في الدنيا والآخرة.

٦- الشدائد والمحن سرعان ما تظهر المنافق على حقيقته.

٧- المنافقون يلتمسون أدنى الأعذار للقعود عن الجهاد.

٨- المنافقون في كل مكان وزمان اخوة للكافرين والمشركين والملحدين يشدّون ازر بعضهم.

٩- النفاق والرياء يوردان أصحابهما المهالك في الدنيا وغضب الله وأليم عقابه في الآخرة.

١٠- وهو محبط للأعمال مهما كثرت [١].

وبعد بيان حال النفاق والمنافقين يتبين لكل مسلم آمن بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا خطر النفاق والمنافقين على المجتمعات والأفراد وأنهم يعملون في الأمة عمل النار في الهشيم بل وأشد من ذلك إنهم الأرضة التي تنخر المجتمع دون أن يشعر بها أحد ،لذا وجب فضحهم والتحذير منهم والتشريد بهم والعمل على عزلهم وجهادهم في كل حين وفوق كل صعيد ليحيي من حيّ عن بينة ويهلك من هلك عن بينة والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات [٢].

❁ ❁ ❁

---

(١) نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ، ص ٥٦٣٠ لمجموعة من العلماء.

(٢) لمزيد من البيان حول موضوع النفاق والمنافقون في القرآن الكريم. للدكتور .عبد العزيز الحميدي «وصفة المنافق» للفريابي .

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم

٢- ابراهيم: أحمد عبد الرحمن. الفضائل الخلقية في الاسلام ط١ المنصورة دار الوفاء للطباعة والنشر ١٩٨٩م.

٣- ابن أبي الدنيا: عبد الله بن محمد البغدادي. الصبر والثواب عليه ط١ بيروت دار ابن حزم ١٩٩٧م.

٤- ابن أبي الدنيا: عبد الله بن محمد البغدادي. الصمت وحفظ اللسان ط١ بيروت دار الكتاب العربي ١٤١٠هـ. و/ ط٢ مصر دار الاعتصام ١٩٨٨م.

٥- ابن أبي الدنيا: عبد الله بن محمد البغدادي. مكارم الاخلاق دار ابن تيمية ١٩٩٠م.

٦- ابن ابي شيبة: محمد بن أبي بكر: المصنف في الاحاديث والآثار. الطبعة السّلفية.

٧- بن الأثير: المبارك بن محمد. جامع الأصول في أحاديث الرسول دار البيان ومطبعة الملاح توزيع رئاسة ادارات البحوث العلمية والإفتاء الرياض ١٩٦٩م.

٨- ابن الأثير. المبارك بن محمد. النهاية في غريب الحديث والأثر بيروت نشر المكتبة الاسلامية -رياض الشيخ تحقيق طاهر احمد الزاوي -محمد محمود الطناحي.

٩- ابن تيمية وآخرون: أحمد بن عبد الحليم ثلاث رسائل في الغيبة ط٣ مكتبة المنار ١٩٨٩م.

١٠- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم: مجموع فتاوي شيخ الاسلام ابن تيمية

الرياض ١٣٩٨هـ. جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم النجدي.
١١- ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي البغدادي. كتاب البر والصلة. ط١ القاهرة مكتبة السنة ١٩٩٣م. تحقيق عادل عبد الموجود -علي معوض
١٢- ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي البغدادي. صيد الخاطر بيروت دار الكتب العلمية.
١٣- ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي فتح الباري بشرح صحيح البخاري الرياض مكتبة الرياض الحديثة، اخراج وتصحيح محب الدين الخطيب.
١٤- ابن حزم: علي بن أحمد. جوامع السيرة.
١٥- ابن حنبل: احمد الشيباني. مسند الامام احمد بيروت مصورة عن دار صادر.
١٦- ابن رجب الحنبلي: عبد الرحمن بن علي. جامع العلوم والحكم دار المعرفة.
١٧- ابن عبد الوهاب: محمد مختصر زاد المعاد المكتب الاسلامي.
١٨- ابن علان: محمد بن علان، الصديقي الشافعي. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ط٢ دار المعرفة ١٩٩٦م.
١٩- ابن فارس: احمد معجم مقاييس اللغة ط١ بيروت القاهرة. دار الجيل ١٩٩٦ تحقيق عبد السلام هارون.
٢٠- ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم. عيون الاخبار بيروت دار الكتاب العربي.
٢١- ابن قدامة المقدسي: احمد بن عبد الرحمن. مختصر منهاج القاصدين ط١ دار عمار ١٤٠٦هـ تحقيق علي الحلبي و/ دمشق دار البيان ١٩٧٨م.
٢٢- ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر. بدائع الفوائد بيروت. دار الكتاب العربي مصورة عن المنيرية.
٢٣- ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر. التفسير القيم بيروت دار الكتب العلمية ١٩٧٨م.

٢٤- ابن قيم الجوزية: نحند بن أبي بكر. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين دار الريان ١٩٨٨م.

٢٥- ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر الفوائد المدينة المنورة المكتبة السلفية.

٢٦- ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين.

٢٧- ابن كثير: اسماعيل بن عمر. تفسير القرآن العظيم.

٢٨- ابن ماجة: محمد بن يزيد القزويني. سنن ابن ماجة.

٢٩- ابن مسكويه: أحمد. تهذيب الاخلاق بيروت منشورات دار مكتبة الحياة.

٣٠- ابن مفلح: محمد الآداب الشرعية والمنح المرعبة القاهرة مؤسسة قرطبة.

٣١- ابن ملوح صالح بن حميد بن عبد الرحمن. نظرة النعيم بمكارم اخلاق الرسول الكريم دار الوسيلة. ١٩٨٨م.

٣٢- ابن منظور محمد بن مكرم لسان العرب بيروت دار صادر.

٣٣- ابن منقذ: أسامة لباب الآداب مصر دار الكتب السلفية ١٤٠٧هـ تحقيق احمد شاكر.

٣٤- ابن هشام: عبد الملك سيرة ابن هشام بيروت مطبعة دار الجيل.

٣٥- ابو داود: سليمان بن الأشعث سنن ابي داود.

٣٦-. الأصفهاني: حسين محمد بن الفضل (ألراغب) الذريعة الى مكارم ط١ الشريعة القاهرة دار الصحوة. وطبعة أخرى تحقيق أبي اليزيد العجمي.

٣٧- الأصفهاني: حسين بن محمد بن الفضل (الراغب) محاضرات الادباء، ومحاورات الشعراء والبلغاء بيروت منشورات.

٣٨- الأصفهاني: حسين بن محمد بن الفضل (الراغب) المفردات في غريب القرآن) دار المعرفة.

٣٩- الألباني: محمد بن ناصر الدين سلسلة الأحاديث الصحيحة بيروت المكتب الإسلامي.

٤٠- الألباني/ محمد بن ناصر الدين الألباني صحيح الترغيب والترهيب بيروت المكتب الاسلامي ١٩٨٢م.

٤١- الألباني: محمد بن ناصر الدين صحيح الجامع الصغير وزيادته ط٢ بيروت المكتب الاسلامي ١٩٧٩م.

٤٢- الألباني: محمد بن ناصر الدين. ضعيف الجامع الصغير ط٢ بيروت المكتب الاسلامي ١٩٧٩م.

٤٣- انيس: ابراهيم وصحبه المعجم الوسيط ط٢ لبنان دار الامواج ١٩٩٠م. و/ قطر دار احياء التراث الاسلامي.

٤٤- البخاري: محمد بن اسماعيل. صحيح الامام البخاري ط السلفية استانبول تركيا. المكتبة الاسلامية.

٤٥- بدوي: عبد العظيم. معالم المجتمع المسلم كما بينتها سورة الحجرات ط١ عمان المكتبة الاسلامية ١٤١٠هـ.

٤٦- البستي: محمد بن حيان. روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ط١ القاهرة مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠١ هـ.

٤٧- البغا. د/ مصطفى/ الواقي في شرح الأربعين النووية ط٢ بيروت مؤسسة علوم القرآن ١٩٨٢م.

٤٨- البنا. احمد بن عبد الرحمن الساعاتي. الفتح الرباني لترتيب مسند الامام احمد الشيباني القاهرة.

٤٩- البيهقي احمد بن الحسين شعب الايمان بيروت دار الكتب العلمية.

٥٠- .الترمذي محمد بن عيسى من سورة جامع الترمذي.

٥١- الترمذي محمد بن عيسى من سورة الشمائل المحمدية - بلا.

٥٢- الجراح وكيع. الزهد ط١ المدينة المنورة مكتبة الدار ١٤٠٤ هـ.
٥٣- الجرجاني علي بن محمد بن علي. التعريفات بيروت دار الكتب العلمية ١٤٠٣هـ.
٥٤- الجزائري ابو بكر جابر هذا الحبيب يا محب دمنهور مكتبة لينة للنشر والتوزيع.
٥٥- الجيلاني عبد القادر. الفتح الرباني والفيض الرحماني بيروت دار الكتب العلمية ١٩٨٣.
٥٦- حبنكة عبد الرحمن حسن: الأخلاق الاسلامية وأسسها ط٣ دمشق دار القلم ١٩٩٢.
٥٧- حبنكة وآخرون عبد الرحمن حسن: الثقافة الاسلامية (المستوى الأول) مكة مطابع جامعة أم القرى.
٥٨- خان محمد صديق نزل الأبرار/ العلم الماثور من الأدعية والاذكار ط٣.
٥٩ خرائطي أبو جعفر: مسازئ الأخلاق. تحقيق مجدي السيد.
٦٠- الدباغ محمد وجدي بكر: الايدولوجية الصهيونية واسرائيل ط٢.
٦١- الدجوي: أحمد سعيد فتح الخلاق في مكارم الاخلاق مكتبة دار المحبة تحقيق عبد الرحمن مارديني.
٦٢- دراز محمد عبد الله: دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية ط٢، الكويت دار القلم ١٩٧٤.
٦٣- دراز محمد عبد الله دستور الاخلاق في القرآن بيروت، مؤسسة الرسالة تعريب د. عبد الصبور شاهين.
٦٤- ذكرى أبو بكر: تاريخ النظريات الاخلاقية وتطبيقاتها العملية ط٤ مصر دار الفكر العربي ١٩٦٥م.

٦٥- الرازي محمد بن أبي بكر. مختار الصحاح في اللغة. بلا
٦٦- الزبيدي محمد بن محمد الحسيني: اتحاف السادة المتقين شرح احياء علوم الدين بيروت دار الكتب العلمية.
٦٧- الزمخشري محمود بن عمر: تفسير الكشاف ط١ بيروت دار الفكر ١٩٨٣م.
٦٨- سابق سيد: اسلامنا ط١ بيروت دار الكتاب العربي ١٩٧٣م.
٦٩- سابق سيد دعوة الاسلام ط١ بيروت دار الكتاب العربي ١٩٧٣م.
٧٠- السعدي: عبد الرحمن بن ناصر بهجة قلوب الابرار بشرح جوامع الأخبار. بلا
٧١- السفاريني محمد بن أحمد غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ١٣٩٣هـ.
٧٢- السلفي. احمد بن محمد المنتقى من مكارم الاخلاق.
٧٣- السلفي حمدي عبد المجيد مرشد المختار الى ما في مسند الامام احمد من الاحاديث والآثار بغداد مطبعة الارشاد ١٩٨١م.
٧٤- السلمان: عبد العزيز موارد الظمآن في دروس ومواعظ الزمان ط٥.
٧٥- السلمي: محمد بن الحسين بن محمد طبقات الصوفية تحقيق فؤاد سيد.
٧٦- السهيلي عبد الرحمن بن عبد الله الروض الأنف. بلا
٧٧- الشرباصي احمد موسوعة اخلاق القرآن ط١ دار الرائد العربي ١٩٨١م.
٧٨- شلتوت محمود الاسلام عقيدة وشريعة ط١٦ بيروت دار الشروق ١٩٩٢م.
٧٩- شميسي عبد المنعم التلمود كتاب بني اسرائيل المقدس. بلا
٨٠- الشنقيطي محمد الأمين مذكرة في اصول الفقه على روضة المنار. بلا
٨١- الشوكاني محمد بن علي تحفة الذاكرين. القاهرة مكتبة المثنى.
٨٢- الشوكاني محمد بن علي نيل الاوطار بيروت مطبعة دار الجيل.

٨٣- الشيباني عبد الرحمن بن علي تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على السنة الناس من الحديث. بلا

٨٤- صالح محمد طارق محمد عمل المسلم في اليوم والليلة قطر مطابع دار احياء التراث.

٨٥- صبري محمد التلمود شريعة بني اسرائيل. بلا

٨٦- الصنعاني محمد بن اسماعيل سبل السلام شرح بلوغ المرام ط٤ دار احياء التراث العربي مصر ١٩٦٠م.

٨٧- طاليس أرسطو مقدمة كتاب الاخلاق ترجمة لطفي السيد.

٨٨- طبارة عفيف روح الدين الاسلامي ط٦.

٨٩- الطبراني سليمان بن احمد معجم الطبراني الكبير القاهرة مكتبة التوعية.

٩٠- عاقل فاخر طبائع الشر (كتاب العربي رقم ٦). يناير ١٩٩٥م.

٩١- العبد عبد اللطيف محمد الأخلاق في الاسلام دار التراث.

٩٢- عبد الواحد مصطفى شخصية المسلم كما يصورها القرآن ط٤.

٩٣- العربي عبد المنعم صالح تهذيب مدارج السالكين ط١، الامارات العربية المتحدة.

٩٤- عقلة محمد النظام الاخلاقي في الاسلام ط٢ مكتبة الرسالة الحديثة ١٩٨٦م.

٩٥- علام محمد مهدي فلسفة الكذب ط٢ القاهرة مكتبة التراث الاسلامي ١٤٠٨ هـ.

٩٦- علوان: عبد الله ناصح تربية الاولاد في الاسلام ط٣ بيروت دار السلام للطباعة والنشر ١٩٨١م.

٩٧- عودة عبد القادر التشريع الجنائي في الاسلام بيروت دار الكتاب العربي.

٩٨- الغزالي: محمد بن محمد الطوسي احياء علوم الدين القاهرة مؤسسة الحلبي وشركاه ١٩٦٧م.

٩٩- الغزالي محمد بن محمد خلق المسلم ط١ دمشق دار الفكر ١٩٧٨م.

١٠٠- الغزالي محمد بن محمد الطوسي ميزان العمل بيروت دار الكتاب العربي ١٩٨٣م.

١٠١- الفريابي جعفر بن محمد بن الحسين صفة المنافق بيروت دار الكتاب للنشر والتوزيع (مكة المكرمة) ١٩٨٥ تحقيق محمد عبد القادر عطا.

١٠٢- الفيروز أبادي محمد بن يعقوب بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، بيروت المكتبة العلمية ١٣٨٣ هـ.

١٠٣- الفيروز أبادي محمد بن يعقوب القاموس المحيط ط٢ بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٨٧.

١٠٤- الفيومي احمد بن محمد المصباح المنير في غريب الشرح الكبير بيروت دار الفكر.

١٠٥- القرضاوي يوسف الخصائص العامة للاسلام ط٢ بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٨٣م.

١٠٦- القرضاوي يوسف الصبر في القرآن الكريم ط٥ بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٩١م.

١٠٧- القرطبي محمد بن احمد الانصاري الجامع لأحكام القرآن بيروت مؤسسة مناهل العرفان.

١٠٨- القشيري عبد الكريم بن هوازن الرسالة القشيرية ط٢ مصر مطبعة البابي الحلبي ١٩٥٩م.

١٠٩- قطب محمد شبهات حول الاسلام مصر دار الشروق ١٩٨١.

١١٠- كامل محمد أديب صيانة الايمان من عثرات اللسان ط١ ١٩٩٤م.

١١١- الماوردي علي بن محمد ادب الدين والدنيا مع شرح منهاج اليقين بيروت دار الكتب العلمية ١٩٨٠م.
١١٢- الماوردي علي بن محمد تسهيل النظر وتعجيل الظفر بيروت دار النهضة العربية ١٩٨١ تحقيق محيي هلال السرحان.
١١٣- المحاسبي الحارث بن أسد الرعاية لحقوق الله ط٤ بيروت دار الكتب العلمية ١٤٠٦هـ تحقيق عبد القادر عطا.
١١٤- المحاسبي الحارث بن أسد الوصايا ط١ بيروت دار الكتب العلمية تحقيق عبد القادر عطا.
١١٥- مبيض محمد سعيد اخلاق المسلم وكيف نربي ابنائنا عليها ط١ مكتبة الغزالي سوريا ١٩٩١م.
١١٦- مرار يوسف ضرورة الفكر الارهابي الصهيوني.
١١٧- مرعشي محمود حمدي ادب الخلق في الاسلام ط١ بيروت دار الخير ١٩٨٧تحقيق محمد علي بلغه جي.
١١٨- المشوخي ابراهيم سليمان آفات اللسان ط٥ الزرقاء الاردن -مكتبة المنار ١٩٩١.
١١٩- المنذري عبد العظيم عبد القوي الترغيب والترهيب دار احياء التراث العربي بيروت.
١٢٠- المنذري عبد العظيم عبد القوي مختصر سنن ابي داود بيروت دار المعرفة ١٤٠هـ تحقيق محمد حامد الفقي وتحمد شاكر.
١٢١- منصور حلمي عبد الفتاح اخلاق المصطفى وشمائله ط١ بيروت دار الابداع ١٩٩٣م.
١٢٢- النجدي احمد بن محمد العوالة الوحدية في المسائل المفيدة.
١٢٣- نوح محمد آفات على الطريق ط١ دار الوفاء بيروت ١٩٩٣.

١٢٤- نووي يحيى بن شرف الاذكار دار مصر للطباعة والنشر القاهرة.
١٢٥- نووي يحيى بن شرف رياض الصالحين مكتبة الرياض الحديثة.
١٢٦- نووي يحيى بن شرف شرح للنووي على صحيح مسلم ط٢ دار احياء التراث قطر ١٩٧٢م.
١٢٧- النيسابوري بن الحجاج القشيري صحيح مسلم ط١ دار احياء التراث بيروت ١٩٥٥ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
١٢٨- هارون عبد السلام تهذيب الاحياء.
١٢٩- الهلالي سليم التواضع في ضوء القرآن والسنة الصحيحة مكتبة ابن القيم/ عمان. ١٩٩٢م.
١٣٠- الهيتمي نور الدين بن علي موارد الظمآن الى زوئد بن حبان دار الكتب العلمية. بيروت تحقيق عبد الرحمن حمزة.
١٣١- وهبي عبد الوهاب حسين تذكير الانسان بحفظ العين واللسان ط١ ١٩٩١م.
١٣٢- ياجن مقداد التربية الاخلاقية الاسلامية ط١ مكتبة الخانجي مصر.
١٣٣- اليحصبي عياض الشفا بتعريف حقوق المصطفى المكتبة التجارية الكبرى توزيع دار الفكر بيروت.